

د. فرانسيس ديتق

# دينامية الهوية

أساس للتكامل الوطني في السودان



ترجمة:

محمد علي جاد



٧

الفصل الأول

مدخل

١٧

الفصل الثانى

تعريب شمال السودان - تجربة فى مرونة الهوية

٣٧

الفصل الثالث

صراع الهويات

٦٠

الفصل الرابع

علاقات الدينكانقوك والمسيرية الخمر  
تجربة فى التوافق وصراع المصالح

٨١

الفصل الخامس

اعادة بناء الهوية - خطوة نحو سلام دائم

١٠٣

الفصل السادس

الثقافات الجنوبية - جذور الهوية

١٢٢

الفصل السابع

خلاصة

## الفصل الأول

### مقدمة

بقرار للرئيس نميري، منح المديريات الجنوبية الحكم الذاتي الاقليمي، دخل السودان حقبة جديدة انتهت فيها الحرب الاهلية، التي استمرت أكثر من ستة عشر عاماً متواصلة، ظلت تميز مايعرف بمشكلة الجنوب. وبذلك يعود السلام للسودان، ويمكن القول أن المشكلة قد وجدت الحل، ولكن تداعياتها في مستقبل السودان لاتزال تطرح اسئلة جادة وهامة تنتظر الاجابة من السودانيين انفسهم. وأهم تلك الاسئلة يتمثل في: هل يستطيع السودان، الآن، بناء وعي بهوية مشتركة وموحدة، تضمن بناء وحدة وطنية حقيقية ودائمة؟

لقد اختلف التركيز على الجوانب المختلفة لمشكلة علاقة الشمال والجنوب باختلاف وجهات النظر، ولكن الجانب الاكثر وضوحاً، والأكثر مثاراً للجدل، يتمثل في التركيز علي الهوية العرقية الثقافية، حيث يعتبر الشمال عربياً ومسلماً، والجنوب زنجياً ووثنياً بقيادة مسيحية<sup>(١)</sup>. والواقع أن هناك الآن اتفاق عام على صعوبة تحديد إنتماء وهوية الشمال أو الجنوب على أساس عرقي، ليس لأن الشمالي هو مزيج من العناصر العربية والأفريقية، وإنما أيضاً، لأن الجنوبي ليس زنجياً صافياً، ورغم التناقض الذي قد تعكسه حقيقة أن سكان الجنوب هم من بين البشر الاكثر سواداً في العالم<sup>(٢)</sup>. ولكن المسألة ليست في الجانب العرقي فقط، وإنما في الجانب الثقافي، أيضاً. فالاسلام واللغة العربية، اللذان يجمعان ويوحدان الشمال، خضعا، معاً، لتأثير الثقافة القبلية الشمالية السابقة. وفي الجنوب، لا يمكن نكران وجود التأثيرات الحامية. وهذه التعقيدات العرقية الثقافية توضح لنا مدى المرونة والمحافظة، التي كُيفت عملية الانتماء والهوية في السودان. فقد تميز السودانيون بتحديد هويتهم وفقاً لرموز تختلف من وقت لآخر ومن مكان لآخر، تركز على حقائق الحياة الماثلة وتشدد، غالباً، على القيم العائلية والقبلية والاثنية، وبشكل اساسي القيم العرقية.

إن مسألة الانتماء والهوية في السودان، متجذرة، كما هو واضح، في القيم التقليدية، وهي مفهوم عميق، بقدر ما هو حساس، يعبر عنها بفخر واعتزاز ويدافع عنها بيقظة عالية ولا يتنازل عنها إلا باكراه. ومع انها قابلة



للتغير والتبدل ببطء شديد، فهي، مع ذلك، مفهوم ديناميكي قادر على التكيف وحتى التحول. ومن جانب آخر، فإن صياغة وتوزيع السلطة السياسية تطرح قضايا المناقشة والصراع فالسلطة كقيمة خارجية، تماماً كالملكية الخاصة، تثير مشاكل مفاجئة حول توزيعها. وأياً كانت حدة تلك المشاكل وسواء كان الناس مدركين لها أم غير ذلك، فإن السلطة تنزع إلى ترتيب البشر إلى حاكمين، ومحكومين، مسيطرين وتابعين، مُميزين ومحرومين. وفي الانتماء، قد يكون الفرد نويرياً (من قبيلة النوير) أو عربياً أو أوروبياً، وقد يشعر بمزايا أو عيوب مثل هذا الانتماء، ولكنه "ينتمي". وذلك الانتماء يمنح الفرد، في العادة، شعوراً بالعزة والكرامة. فقط، عندما تطرح انتماءات وهويات مختلفة في إطار تنافسي واحد، بشكل يستلزم ترتيبها، يضطر الناس، في بعض الأحيان، لإبراز شعور بالتأرجح تجاه انتماءهم وهوياتهم.

وعندما يتعلق الأمر بالصراع حول السلطة ومقاومة السيطرة الأجنبية، فمن المتوقع بروز موقف يرفض الآخر. والارتباط بمثل هذا الانتماء قد يجد ما يعرقله إذا لم يتم تحصينه. ومثل هذه الحالة تدعو إلى موازنة دقيقة في السياسات. فإذا كان الهدف هو التأثير ثقافياً في مجموعة معينة، لتبديل هويتها، فإن أفضل النتائج يمكن تحقيقها عن طريق استراتيجية لا تهدد بنزع سلطة تلك المجموعة على شئونها الخاصة، وفي الوقت نفسه تعزز رموز الهوية المعنية. وهذه هي الطريقة التي اتبعت في شمال السودان، حيث تمت إسلته وتعريبه، من خلال عملية قامت بها الإمبراطورية العربية الإسلامية، أولاً، بغزو السودان، وتمكنت من السيطرة عليه من علي البعد، وفتحت قنوات الاتصال مع العالم العربي، وأمنت حرية حركة العرب المسلمين وحماية تجارتهم واستقرارهم في البلاد، وفي الوقت نفسه حافظت، ظاهرياً على استقلال السودانين. ومع أن الوافدين العرب كانوا تجاراً فقط ولم يكونوا حكاماً، فإن مكانتهم المميزة وثقافتهم الأكثر حداثة، وهيمنتهم الاقتصادية، منحتهم موقعاً ممتازاً لا يُنافسون عليه. وترافق مع كل ذلك أن ديانتهم، بتوجهاتها المتحررة، قد فتحت الباب واسعاً "للأخوة" الإنسانية، الأمر الذي جعلهم طبقة مرغوبة للتزاوج مع الأسر السودانية القائدة. وبما أن العرب لم يحضروا معهم زوجاتهم، والدين الإسلامي يحرم زواج المرأة المسلمة من غير المسلم، فقد كان التزاوج في اتجاه واحد فقط. وعن طريق نظام الإرث الأمومي Matrilineal descent الذي كان سائداً في الشمال، لذلك استطاع أحفاد العرب الوصول إلى المواقع القيادية وسط مجموعات أمهاتهم وأخوالهم.

ومنذئذ سيطر النظام الابوى وتعزز نظام النسب العربي الاسلامى الذكورى. فالاطفال اصبحوا يعرفون بنسب آبائهم، وبمرور الزمن اكتملت سيطرة العنصر العربي. وكما يقول د. يوسف فضل، " فان النظام السابق لم يسقط بالقوة بقدر ما حوّل من داخله " (٣).

وفي الجنوب كانت الحالة مختلفة بشكل واضح. فقد كانت هجرة العرب واستقرارهم في الجنوب صعبة بسبب العوامل الطبيعية والظروف المناخية وصعوبة شروط الحياة هناك، والقلّة من العرب، التي اشتغلت في حملات جلب الرقيق من تلك المناطق، لم تكن مهتمة بأسلمة وتعريب الجنوبيين، لأن ذلك سيحولهم من " دار الحرب " الي " دارالاسلام "، وبالتالي يعنى حمايتهم من الاسترقاق. وجاءت حملات الحكم التركى المصرى ودولة المهديّة لتعمق من خوف الجنوبي من موجات الغزو المتكررة من الشمال - ومع مجىء الاحتلال البريطانى توقفت الحملات وساد السلام، ولكن الفجوة بين الشمال والجنوب ازدادت اتساعاً وتعززت في الفترة المعاصرة. وبعد الاستقلال، كانت الحكومات المتعاقبة تعتقد أن بإمكانها توحيد البلاد من خلال توسيع عمليتي الاسلمة والتعريب الى الجنوب، الامر الذي أدى الي تخوف الجنوبيين من الطمس الثقافى والهيمنة السياسية من قبل الشمال العربى المسلم \* وعلى أى حال، فقد شهدت مناطق معينة في الجنوب، قبل اعلان البريطانيين لسياسة فصل الجنوب، درجة من الاسلمة والتعريب، نتيجة لتوفر التمازج السلمى مع الشماليين وعدم وجود خوف من الهيمنة الثقافية والسياسية. فقد شهدت منطقة الدينكا نقوك، وهى مجموعة جنوبية تابعة لادارة مديرية كردفان، احدى المديريات الشمالية، علاقات جيدة وتمازجاً اجتماعياً واسعاً بين السكان الجنوبيين وجيرانهم الشماليين، أحدث درجة من التأثير الثقافى المتبادل بين الطرفين.

إن تجربة الشمال وبعض مناطق الجنوب تكشف لنا أن الانتماء أو الهوية يمكن إعادة صياغتها، إذا ماتوقرت الشروط المناسبة لذلك. وسيولة الانتماء لا تلغى الخوف من المحو أو الطمس الثقافى، لأن مثل هذا الخوف يزداد ويتفاقم، بشكل خاص، عندما يحمل معه ما يعتبر آلية سيطرة خارجية. فالشماليون قاوموا محاولات العرب المسلمين لغزو بلادهم والسيطرة عليها، ولكن عندما جاء العرب للعمل بالتجارة داخل السودان، دون تهديد بالهيمنة على السكان المحليين، ظل نفوذهم يتزايد ويتسع، حتي تغلبوا على النظم السابقة لهم. وكان المتغير الحاسم هو السلطة، رغم انه يظل للهوية، وباستمرار، رموز عاطفية

ظاهرة فى السطح. وجذور هذه النزعة العاطفية ترتكز على الثقافات التقليدية الشمالية والجنوبية. فالثقافات الشمالية التقليدية، السابقة للإسلام، والثقافات الشمالية الحالية، تشترك مع الثقافات الجنوبية فى الميل الشديد لنظام الذرية، الذى قد يتخذ اشكالاً متعددة من احترام وتقدير الاسلاف وثقافتهم، وهذا الميل يمثل، تقليدياً، نظاماً للقيم يعمل على إدامة نفسه، ويقاوم التغيير والتمثل الواضح والمباشر. وعلى أى حال، فقد تمكنت عملية الاسلام والتعريب من التغلب على هذه النظرة التقليدية فى الشمال، ودفعت الشماليين لاستيعاب انفسهم فى مجموعات ثقافية أوسع. وبما ان هذه العملية قد تمت بطريقة إختيارية وارتكزت على مثل وقيم الثقافتين الجديدة والقديمة، فقد أدى ذلك الى أن يمتلك الشماليون رباطاً عاطفياً كبيراً بثقافتهم الجديدة، وحماساً عقائدياً لنشرها فى بقية أجزاء القطر. -

وفى الجانب الآخر ظل الجنوبيون التقليديون يحتفظون بثقافة تركز على داخلها وترفض أى نوع من الاستيعاب، ولكنها قد تقبل وتتبنى، بشكل انتقائى وتدرجى، بعض جوانب الثقافات الأجنبية، لتكييفها ودمجها فى نسيجها الخاص، وبالتالي تفقد طابعها الأجنبى وتصبح جزءاً من الثقافة المحلية. وأبرز ملامح هذا التوجه لاحظته علماء الانثربولوجيا، وتكشفه، بشكل رائع، الاغانى والحكايات الشعبية الغنية بالقيم الثقافية والرمزية والدراما، حيث يُمجد الاسلاف ويربطون بالحقائق المعاصرة، ويؤكد اعتزاز احفادهم بهم وبميراث أسلافهم. وتحكى الاساطير، ويعاد تكرارها فى الاغانى والحكايات الشعبية، لتحقيق نفس الهدف. وفى الحكايات ذات الأهمية التاريخية، يظهر الأجنبى كإنسان ردىء وتافه وضحية مهزومة أمام أبطال الاسطورة. ودرجة التركيز على الداخل والهوية، والعزلة الثقافية، وإبعاد الأجنبى، تظهر بشكل جلى فى حكايات الليل، الغنية فى محتواها الثقافى، حيث يشبه الأجنبى، عادة بالحيوانات التى تمتلك قدرة على التبدل فى شكل بشر عند دخولها الى المجتمعات الانسانية لترتكب أفظع الجرائم (تشير الحكايات الشعبية فى العادة الى خطف الرجال والنساء، فى إشارة واضحة لحملات الاسترقاق)، وتعود ثانية الى عالمها الحيوانى. ومفهوم الاسد الأدى فى تلك الحكايات يؤكد هذه النظرة. فالقبائل النيلية، مثلاً، لا تزال تعتقد فى ظاهرة المخلوقات الشبيهة للإنسان فى مظهرها، ولكنها، فى حقيقتها، أسود ضارية. وبما أنه ليس هناك ما يقنعنا بوجود مثل هذه المخلوقات، فانه ليس أمامنا سوى الافتراض بأنها تشير الى الأجانب من المجموعات الأثنية والعرقية الأخرى، وإذا كان موقف

الجنوبى التقليدى تجاه الثقافات الاجنبية واضحاً وجلياً، فقد تقدم المتعلمون، أيضاً، لمقاومة محاولات المحو الثقافى والهيمنة الاجنبية فى العصر الحديث، والظروف التى أدت الي ذلك أكثر تعقيداً من مجرد تمثيل هؤلاء المتعلمين لمجموعاتهم التقليدية. وذلك لأن هناك عامل الانسلاخ من الثقافة التقليدية، ورد الفعل تجاه هيمنة قياداتها فى مستوى القبيلة، ومواجهة ثقافة تقليدية أخرى وهيمنة قياداتها على المستوى الوطنى. فالسياسات البريطانية فى الجنوب كانت تستهدف "تحضير الأهالى" عن طريق الارشادات المسيحية، التى أشرفت على جزء كبير من المدارس ووجدت دعماً مقدراً من الحكومة لتحقيق ذلك الهدف. ومع أن التطور فى هذا المجال كان بطيئاً ومرتكزاً على التراث التقليدى، فقد أدى ذلك الى خلق طبقة من المتعلمين الجنوبيين مسيحية الديانة، وعلمانية فى توجهها الوطنى، وحديثة فى نظرتها العامة، أياً كانت درجة احتفاظها وارتباطها بأصولها التقليدية خلال عملية تحولها إلى وضعها الجديد. وفى الجانب الآخر، كان المتعلمون الشماليون نتاج نظام تطور ظل، باستمرار، يرتكز إلى احترام موروث الثقافة العربية وتقاليده الاسلام كأساس لبناء عصرى. ونتيجة لكل ذلك، أصبحوا أكثر التزاماً بتقاليدهم من المتعلمين الجنوبيين. صحيح ان قدراً من التحديث كان محتوماً، وأنه كان ينعكس، بهذا القدر أو ذاك، حسب المصلحة، والحالة المعنية. ولكن لكى تكون قائداً سياسياً فى حزب ما، فان ذلك يتضمن فى العادة انسجاماً معيناً، لأن القيادة السياسية فى السودان تعتمد على الولاءات التقليدية. ولكى تبقى فى موقع يعتمد على الولاءات السياسية ويتأثر بها بسهولة، فقد يتطلب ذلك ارتباطاً أكثر بالثقافة التقليدية. وهذا ما يتطلبه أيضاً وجود موظف فى مدينة ريفية صغيرة يتمسك سكانها بتقاليدهم ويتعصبون لقيمهم التقليدية.

كان الوطن يحكم عن طريق سياسات الحكم غير المباشر، وبما أن المناطق الريفية كانت غالبية فى الجنوب، فقد وجد المتعلمون الجنوبيون أنفسهم فى وضع قبلى تسيطر عليه الأوضاع التقليدية والتقليديون، مثل زعماء القبائل وكبار السن. ومع استمرار الصراع بين الطرفين إلا أن المحافظة على قدر من الولاء الاسرى والعرقى واحترام كبار السن، كل ذلك أدى إلى عدم انتقال الصراع حول السلطة إلى مستوى القبيلة. وقد قاد هذا الوضع، مع الانسلاخ من الثقافة القبلية الريفية، الى هجرة المتعلمين الجنوبيين للمشاركة على المستوى الوطنى فى المراكز الحضرية. وهناك وجد المتعلم الجنوبي، بجانب الهوية التى تجمعهم مع زملائه الجنوبيين، هوية ومشاركة أوسع، ترتكز على

المبادئ التقليدية، التي تُرتب الناس على أساس الاصل والعمر، وعلى الثقافة والعرق بشكل أساسي، ووجد أن التركيز على الاسلام واللغة العربية، كمؤهلات للتمييز والتقدير والمشاركة، يحوله الي مركز ثانوي وتابع، في وقت كان يُمني نفسه بأن تعليمه سيمكنه من تنمية التوجه الذي كانت تعكسه إحدى أغاني مدارس الدينكا، حيث تقول<sup>(٤)</sup>:-

انا ولد صغير ولكني زعيم المستقبل

انا طيبة ارضى وخيرها

وسأعمل مافي وسعى

علّمني، ان عقلى

يمكن ان يقبل كلمة التعليم

التعليم قوة

التعليم هو أفضل شيء.

ولكن المبادئ التقليدية، التي واجهها المتعلم الجنوبي في الجنوب، لم تكن آمنة تماماً في الشمال، لان ديناميات التحديث كانت ضعيفة، لكنها متواصلة في تمهيد طريق التغيير الاجتماعى، فالتراتبية، التي نشرتها الاوضاع التقليدية على المستوى الوطنى، كانت تعني سيطرة أسرة معينة، مع الجيل الاكبر سناً، علي السلطة. ولكن ذلك لم يتم دون مقاومة من الشباب الشمالى المتعلم. فقد قاوموا كل الحكومات التي تعاقبت على كراسي الحكم في مختلف فترات التاريخ الحديث، وذلك عن طريق استراتيجيات تطويرية متعددة<sup>(٥)</sup>. ومع ان الشباب الشمالى والجنوبى كانوا غير قادرين، في البداية، على الاتصال مع بعضهم، وكسر حواجز عدم الثقة بينهم، إلا أنهم، بمرور الزمن، بدأوا يلتقون حول مصلحة مشتركة في مقاومة النظام التقليدى القديم.

ان الصراع بين الاجيال، والنظرة الاكثر حداثة وسط الشباب الشمالى والجنوبى، مقارنة مع قياداتهم التقليدية، خلقت اهتماماً بفحص ومناقشة الافكار السائدة والبحث عن أسس للهوية الوطنية أكثر اتساعاً من الاطر التقليدية. وساعدت في تغذية هذا الاتجاه ظروف أخرى، علي رأسها: صعود حركة التحرر الوطنى في أفريقيا وتزايد الاعتزاز بالمووروث الافريقى، واكتشاف التشابه العرقى والثقافى بين السودانين الشماليين وعدد كبير من الافريقين الذين يدعون انفسهم "أفارقة" انا لم يقولوا انهم "زنوج"، والتحقق من وجود اختلافات جوهرية في السمات العرقية والثقافية بين السودانين الشماليين والعرب الآخرين، بالاضافة الي التأثيرات السلبية للحرب



الأهلية في الجنوب. في كل ذلك كان الشباب المتعلم يتقدم المسيرة ويقود كبار السن، فهم الذين سافروا الى الخارج، كطلاب أو كموظفين، ولاحظوا تعقيدات الانتماء العرقي وتخلف السياسات الحكومية والحاجة لتسريع عملية التنمية الاقتصادية الاجتماعية. وهؤلاء الشباب صغار السن، هم الذين سمعوا وصفهم "بالأسود" أو "الزنجي" في الاقطار العربية أو بعض الاقطار ذات التركيبة السكانية المختلطة، وعاشوا صدمة أن لايعتبرهم الآخرون عرباً. وفي بعض الاقطار العربية سمع السودانيون الشماليون وصفهم بكلمة "عبيد" وهذا ماقادهم الى إعادة اكتشاف أنفسهم، والاقتراب من المعرفة الحقيقية بتعقيدات الهوية السودانية.

ان الصراع حول السلطة بين كبار السن، المحافظين، وقوى التغيير الشابة، واكتشاف حقيقة التعقيدات العرقية والثقافية في السودان، بالاضافة الى تصميم الجنوب على النضال من أجل الاعتراف بحقوقه، ... كل ذلك شجع عملية الانسلاخ من السياسات القديمة وسط الشباب والأقليات الاثنية في الشمال. وهذه المجموعات كانت في السابق محبوسة تحت مظلة "الشمال العربي" الفضفاضة، وتحت ظروف التخلف المريع، مكتفية فقط بلافتة العروبة. وهكذا بدأت عملية استقطاب وتحالفات متنوعة بين هذه العناصر الشابة وبعض المجموعات الاثنية الشمالية المتحررة والمجموعات الجنوبية، واصبح هذا التحالف الواسع، بمرور الزمن، يهدد النظام التقليدي القائم. وكان طلاب جامعة الخرطوم واساتذتها، بمساندة صغار الضباط، هم الذين قادوا انتفاضة ٢١ اكتوبر ١٩٦٤ الشعبية، التي أجبرت حكومة الفريق عبود العسكرية على التخلي عن الحكم وتسليم السلطة لممثلي الشعب، وبحكم اواقعيتها، سمحت هذه القيادة الشابة باجراء انتخابات عامة أعادت الاحزاب التقليدية لكراسي الحكم في ظل نظام ديمقراطي تعددي. وبعد خمس سنوات استعاد تحالف القوى الشابة السلطة من جديد، بانقلاب ٢٥ مايو ١٩٦٩، تحت قيادة العقيد جعفر محمد نميري، الذي أعلن منح الجنوب الحكم الذاتي الاقليمي. وكان لتجاح نميري في حل مشكلة الجنوب أهميته التاريخية، ليس فقط على مستوى السودان والقارة الافريقية، بل على مستوى العالم. فالحكم الذاتي الاقليمي يمثل أفضل حل يمكن أن يقدمه رئيس الدولة، ولكن يجب النظر إليه كخطوة كبيرة في اتجاه الحل النهائي. إذ يبدو لي أن مثل هذا الحل يجب أن يكون في اتجاه التكامل والاندماج الوطني، اذا أردنا الابقاء على وحدة السودان بحدوده الراهنة، لأنه من الصعب القول بأن الجنوبيين السودانيون

سيكتفون بالمشاركة الإقليمية فقط، وأنهم لن يهتموا بالقضايا الوطنية والعالمية الكبرى، المؤثرة في هوية السودان.

عندما أعلن الاستقلال في مطلع ١٩٥٦، وصف وزير الخارجية آنذاك دور السودان في المسرح السياسي العالمي في الكلمات التالية:

"أن السودان يمثل، بشكل أساسي، جزءاً لا يتجزأ من الوطن العربي، وهذا هو السبب الذي جعلنا نسرّع في الانضمام لجامعة الدول العربية بعد إعلان الاستقلال مباشرة... وعلاقتنا مع الاقطار العربية الشقيقة لا تعنى تجاهل علاقتنا الأفريقية الحميمة... سيتمد نظرننا باستمرار صوب الجنوب، نحو أفريقيا، تقوى علاقتنا مع مختلف الشعوب الأفريقية ونساعدنا في مسيرتها نحو الحرية والحياة الكريمة" (٦).

هذا الموقف الوسطى وجد ترحيباً واسعاً على المستوى الدولي. فالولايات المتحدة الأمريكية أبدت تقديرها لموقف السودان المعلن حيث أكدت:-

" أن السودان، كدولة أفريقية جديدة، سيكون مرتبطاً ارتباطاً عميقاً بمستقبل أفريقيا، ولكنه، كدولة شرق أوسطية، أيضاً، سيمثل جسراً لأفريقيا، ينقل إليها الأفكار والفلسفات والقوى التي قد يكون لها تأثير كبير على مصير أفريقيا ومستقبلها" (٧).

وبالرغم من أنه كان ينظر إلى هذه الإزدواجية، على الدوام، كميزة كامنة، لها امكانيات كبيرة، إلا أنها في الممارسة العملية كانت مشحونة بالمشاكل. فلكي يتعرف السوداني على امكانياته الكامنة، عليه أن يطور هوية ذات فعالية شاملة يغنيها تنوع وتعدد تركيبتها، أكثر من أن يهددها بالتفكك والتشردم. وهدفنا في هذه الدراسة أن نستخدم معرفتنا باتجاهات الماضي لنرى امكانية تحقيق وتطوير التكامل الوطني في السودان، بطريقة متوازنة وأقل تفرقة وتفكيكاً مما حدث فعلاً في الفترات السابقة.

## الهوامش

(١) لقد هذه الجوانب يتمثل في التفاوت في التطور الاقتصادي بين الشمال والجنوب، فمن بين الخمس نقاط التي أوربتها لجنة التحقيق في أحداث تمرد ١٩٥٥ في الجنوب، كلسباب أساسية تقف خلف تلك الأحداث، تمحورت أربع منها حول موضوع الهوية بينما كانت الخامسة حول التنمية الاقتصادية الاجتماعية، وقد أشارت اللجنة إلى أنه "لأسباب سياسية ومالية وجغرافية واقتصادية تمكن شمال السودان من التطور بسرعة في كل المجالات:- الحكم المحلي، أنظمة الري، الصحة، التعليم العالي، التنمية الصناعية. بينما تخلف الجنوب في كل المجالات المشابهة، وهذا التفاوت البارز في التنمية بين مجموعتين مختلفتين تعيشان في بلد واحد يخلق، دون شك، شعوراً وسط المجموعة المتخلفة، سواء كان ذلك حقيقياً أم متوهماً، بأنهم قد خدعوا واستغلوا ولخصعوا بالقوة." جمهورية السودان، حوادث جنوب السودان في أغسطس ١٩٥٥، (١٩٥٦)، ص ٨١. والبعض يعتقد أن تطوير الجنوب اقتصادياً يجب أن يكون تعويضاً من الشمال على الأخطاء التي ارتكبتها أسلافه في حق الجنوبيين، إذ يقول أحدهم "نحن الشماليين ارتكبنا بعض الأخطاء الخطيرة في الجنوب. فأجدادنا شاركوا في حملات الاسترقاق، والجنوب كان ميدان تلك الحملات... وقد صممنا نحن أن نعوض لأخطاءهم هذه في شكل مساعدات مادية وتنمية لقدرات أبناء شعبنا." بشير محمد سعيد، The Sudan: Cross Roads of Africa, (London, Bodley Head, 1965), p. 151 لا شك أن التفاوتات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بين الشمال والجنوب تمثل جانباً هاماً من مشكلة الجنوب، ولا يمكن اعتبار هذه الجوانب أقل أهمية من موضع الهوية. وفي الجانب الآخر، فإن هذه التفاوتات بنيت على الفوارق الثقافية بين الشمال والجنوب، وساعدت بعد ذلك على تعميقها. فمجرد تحديد المشكلة كمشكلة جنوب/شمال يكشف لنا هذه الحقيقة. -إذ أن هناك مناطق في الشمال نفسه أكثر تخلفاً من مناطق الجنوب، ومع ذلك فإنها تُربط بالشمال لأغراض تحديد مشكلة العلاقة بين الشمال والجنوب.

(٢) يقول هـ. أ. ماكمايكل "كل هؤلاء للناس (الشماليون) مسلمون وتحتوي عروقهم على دماء عربية، ولكن الملامح العرقية التي ورثوها من أجدادهم غير العرب، ظلت باقية بشكل مستمر A History of the Arabs in the Sudan, (Tuckahoe, N.Y., De Graff, 1967) أما أركل في كتبه A. J. Arkell, A History of the Arabs 13 p.22 1955 فقد كتب يقول "هناك في السودان، بالطبع، درجة من التمازج بين الأعراق السمرية والزنجية". وهكذا، وبكلمات طلال أسد، "أصبح من المتفق عليه أنه ليس هناك

قبيلة عربية شمالية لاتزال تحتفظ بنقائها العرقي، بل انها، نتيجة للاختلاط، أصبحت كلها ترتبط بجذور متنوعة"

A Note in the History of the Kababish Tribe, SNR No. XL VII, 1966, p. 79-87.

Seligman, Some Aspects of the Hamitic Problem في ما يخص الجنوب انظر in the Anglo-Egyptian Sudan, the : Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain, 93(1913), p.p. 610-624.

Pagan Tribes of وفي نفس الاتجاه اشار C.G. and B.Z. Seligman في كتابهما the Nilotic Sudan, (London, Routledge and Kegan Paul, 1932), p.20.N إلى

تتأرجح القبائل النيلية بعناصر حامية قوقازية، أما بروفيسير ايفانز يرتشارد، فقد

لاحظ أنه "من المشكوك فيه أن هناك قبيلة أو مجموعة في السودان يمكن أن تدعي أنها زنجية. لان شخصيتها غير الزنجية، وحياتها الرعوية، لدرجة ما تركيب لغاتها،

ترجع الى مزيج وتأثير حامى E. E. Evans-Pritchard, Ethnological Survey in the Anglo-Egyptian Sudan from within ed J.A. de. C. :of the Sudan Hamilton, (London, Faber and Faber, 1935) 88, also Mekki Abbas, the Sudan Question, (New York,Prager, 1952) p. 15-16.

Y. F. Hassan, The Arabs and the Sudan, (Edinburgh Univ. (٣) Press, 1967), p90

Tradition and Modernization, (New Haven, في فرانسيس دينق، Yale Univ. Press, 1971) p.43.

The Dinka of the Sudan, (New York, 1972) p. 153.

(٥) ثورة أكتوبر ١٩٦٤، التي أجبرت الحكم العسكري الأول على التخلي عن كراسي

الحكم، فجرحا وقادها طلاب جامعة الخرطوم، انظر، El Sir Hasan Fadul, Their Finest Hours, (London, Rex Collins 1969). رواية قصيرة حول أكتوبر ١٩٦٤،

التي فجرت التناقض الحاد بين القوى التقليدية والنظرة الاثنوقرافيه للشيخ من جهة وقوى الطلاب ذات النظرة المستنيرة التي لعبت دوراً نشطاً في إسقاط الحكم العسكري من جهة أخرى.

United States, Department of State Background, 1957 ورد في (٦) p. 20.

Ibid, 1. (٧)



## الفصل الثانى

### تعريب شمال السودان

#### تجربة فى مرونة الهوية

##### (أ) الجذور القديمة للتعريب:

يمثل تعريب شمال السودان جزءاً من عملية طويلة ومعقدة، كان لها تأثيرها على سكان واعراق تلك المنطقة خلال فترة تاريخية تمتد الى بدايات التاريخ المكتوب. ونتيجة لتعتيد وقدم آثارها، أصبح من الصعوبة تحديد الطريقة التى تأثرت بها هذه المنطقة أو نسبة تأثير المصادر المختلفة فى الناتج النهائى، بشكل قاطع ودقيق. ولكن منذ بدايات القرن التاسع عشر الميلادى وحتى الآن، حيث تعاقبت على البلاد عدة أنظمة سياسية، شملت الحكم التركى المصرى ودولة المهديّة والحكم الثنائى الانجليزى المصرى ثم الحكم الوطنى، ظلت هذه الانظمة تعمل، بشكل مستمر، على حماية هوية الشمال العربية الاسلامية، بل على تقويتها وتعزيزها بشكل فعال فى بعض الاحيان، وكلمة "بلاد السودان"، التى تعنى أرض السود، كانت تشير الى "أرض كوش"، الاسم الذى كان يطلق على المنطقة منذ عهد المؤرخ اليونانى هيرودوتس، وأول من تسرب وتغلغل الى المنطقة هم قدماء المصريين الذين ظل حكامهم، طوال عهودهم المختلفة، يركزون اهتمامهم على الجنوب بهدف تأمين المناجم الغنية بالذهب، وجلب الرقيق ذوى الاصول الزنجية، جمع الضرائب والأتاوات من الأمالى، التجارة فى العاج والمواد الخام الأخرى، وفى بعض الاحيان لتفادى الغزوات التى كانت تتعرض لها مصر، باستمرار، من جهة الشمال. وفى عام ٣٠٠٠ ق.م. قام فرعون الاسرة الحاكمة المصرية الاولى بالاستيلاء على وادى حلفا، وبدأ المصريون القدماء فى الاستيطان جنوبها فى أعلي النيل، وبمرور الزمن دمجوا المنطقة وحولوها الى جزء تابع لمملكتهم، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً، حيث تمكن النوبيون من الانفصال وتكوين مملكة النوبة. وفى القرن

الثامن قبل الميلاد قاموا بغزو مصر نفسها وهزيمتها والسيطرة على وادي النيل بأكمله . وفى عام ٦٦٣ قبل الميلاد تعرضوا لهزيمة من الأشوريين أجبرتهم على التراجع جنوباً الى منطقة مروى. والمهم هنا، ان التمازج بين المصريين والنوبيين قد أدى الى ظهور مجموعة سودانية مختلطة عرقياً، تتحدث اللغة الحامية ولها علاقة قوية بقدماء المصريين. والواقع أن هذا التمازج العرقى لم يكن بعيداً عن تأثير العناصر الزنجية الجنوبية، وذلك بسبب «غزواتهم ومجمعاتهم المتكررة داخل المناطق الشمالية، التى كان لها تأثيرها المؤكد وسط القبائل الشمالية ....»<sup>(١)</sup> وفى الوقت نفسه فإن «استجلاب الرقيق، خاصة من النساء الجنوبيات، الذى استمر دون انقطاع لعدة قرون ، كان له هو الآخر تأثير واضح....»<sup>(٢)</sup>.

بينما ظل النوبيون يتعرضون للتأثير المصرى، فقد بقيت مجموعة البجا، فى الشرق، مستعصية على التأثير الخارجى، ولذلك لم تتعرض «لنفس درجة التأثير المصرى، التى تعرض لها جيرانها فى مناطق وادي النيل»<sup>(٣)</sup>، أما التأثير العربى، فقد جاء بطريقة غير مباشرة، من خلال المصريين، وبطريقة مباشرة من خلال الهجرات العربية المتواصلة. ورغم أن الوافدين العرب كانوا يمثلون أقلية محدودة، وتبنوا اللغة المحلية، وتزوجوا مع السكان المحليين، وأصبحوا جزءاً منهم، إلا أنهم كانوا فى وضع مميز؛ وذلك لأنهم إستفادوا من نظام الوراثة الامومى للوصول الى مواقع السلطة، وقاموا بتعزيز هذه المواقع بقدراتهم المتقدمة فى مجالات التجارة والزراعة وممتلكاتهم الواسعة من الابل والخيل. وبمرور الزمن تحولوا الى طبقة حاكمة.

### ب) التعريب كسمة بارزة للأسلامة،

إن التعريب، بمعنى التمازج العرقى والثقافى والدينى، الذى يتخذه الآن، بدأ بعد القرن السابع الميلادى، مع ظهور وانتشار الاسلام فى المنطقة، ومن ضمنها السودان. كانت المسيحية قد دخلت البلاد منذ القرن السادس الميلادى، عندما أرسل جوستنيان إرساليات تبشيرية من مصر لنشر المسيحية وسط النوبيين. ونتيجة لجهود الإرساليات انتشرت المسيحية فى المنطقة الممتدة من وادي حلفا حتى اثيوبيا والجزيرة العربية فى الشرق . وعلى اثر ذلك تكونت ثلاث ممالك؛ وهى: علوة والمقرة والمريس، فى بلاد السودان، وذلك قبل

انتشار الاسلام بعدة قرون.

لقد قامت الامبراطورية الاسلامية أولاً بفتح مصر. وإنطلاقاً من هناك بدأت فى إرسال حملاتها العسكرية الى داخل الاراضى السودانية. ومع أنها وُجِهُت بمقاومة عنيفة حملت العرب خسائر فادحة<sup>(٤)</sup>، إلا أن السودانين لم يستطيعوا الصمود أمام أسلحتها المتفوقة<sup>(٥)</sup>. ونتيجة لذلك طلبوا التفاوض حول إتفاقية للسلام، وأمام عجزهم عن تحقيق انتصار حاسم، قبل العرب العرض المطروح، وتوصلوا الى إتفاق سلام مع النوبة أولاً ثم مع البجا فى الشرق. ومن المهم هنا أن نشير الى أنه بالرغم من أن هذه الاتفاقيات قد استندت على تفوق قوة العرب العسكرية، وأنها منحت العرب إمتيازات كثيرة على حساب الممالك السودانية، إلا أنها حافظت، أيضاً، على درجة معينة من الاحترام لتلك الممالك، وذلك لأن الطرفين كانا قد توصلا إلى ضرورة انهاء حالة العداء وتحقيق مصالحهما المشتركة تحت ظل إتفاقية سلام دائم<sup>(٦)</sup>. وهكذا، جاءت الاتفاقيات المذكورة لتنظيم علاقاتهما بشكل يحافظ على إستقلال كل منهما، رغم اجحافها بحق الممالك السودانية، ورغم الالتزامات الكثيرة التى فرضتها عليها، لكنها لم تفرض سلطة الحكم العربى على السودانين.

كانت الاتفاقيات التى عقدت مع النوبيين تشير الى أنها إتفاقية للحماية والهدنة بين المسلمين والنوبيين، أهل الكتاب<sup>(٧)</sup>. وأعلنت تفاصيلها المحافظة على أمن النوبيين تحت حماية الله، رب العالمين، ورسوله الكريم، محمد، حيث تقول «أننا لن نحاريكم أو نشن حرباً عليكم أو نهاجمكم، طالما التزمتم بشروط الاتفاقية المبرمة بيننا وبينكم». والشروط المذكورة كانت تنص على حق النوبيين فى دخول مصر، كمسافرين وليس كمقيمين، وان عليهم حماية المسلمين، أو حلفائهم، المقيمين أو المسافرين فى أرض النوبة. وعليهم، أيضاً، ارجاع عبيد المسلمين الفارين الى دار الاسلام، وأن لا يستحوذوا عليهم أو يمنعوا أى مسلم من استعانتهم. وبالفعل، فقد كان عليهم تقديم كافة المساعدات المطلوبة لتحقيق هذا الغرض - وعلى النوبيين كذلك صيانة المسجد الذى شيده المسلمون فى عاصمتهم وتنظيفه واسراجه، مع معاملته باحترام وتقدير، وعدم منع أى شخص من الصلاة فيه. وعليهم تسليم إمام المسلمين سنوياً ٣٠٦ رأساً من العبيد الجيدين، غير المشوهين، متوسطى العمر. وإذا فشل النوبيون فى الوفاء بأى من هذه الشروط متصبح الهدنة ملغية ونعود الى حالة الحرب حتى يحكم

الله بيننا وبينكم، وهو أعدل الحاكمين...» (٨).

فى الاتفاق الاول الذى عقد مع البجا، فى حوالى نهاية القرن السابع الميلادى، وافق البجا على دفع ٣٠٠ رأساً من الابل سنوياً، وذلك كجزية مقابل السماح لهم بدخول مصر كتجار مسافرين وليس كمقيمين. ونص الاتفاق، أيضاً، على التزام البجا بعدم قتل أى مسلم أو ذمى، وعدم إخفاء أى من العبيد المسلمين الفارين، والعمل على اعادتهم إلى ساداتهم، كما أشار أيضاً، إلى إلزام البجاوى الذى يسرق نعجة أو بقرة بدفع مقابل يتراوح بين ٤ الى ١٠ دنانير. ولضمان تنفيذ الاتفاق فرض على البجا تسليم مصر بعض الرهائن المهمين.

ويبدو أن هذا الاتفاق لم يلبي رغبات البجا، فبالإضافة إلى مصادماتهم المتقطعة مع العرب المسلمين داخل السودان، فقد إستمروا أيضاً فى ممارسة عمليات النهب والتخريب فى مصر العليا. وفى عام ٨٣١م تمكن العرب من هزيمتهم وإجبارهم على قبول إتفاقية أخرى، مشابهة، فى الكثير من جوانبها للاتفاقية التى عُقدت مع النوبيين، ولكنها أكثر قسوة فى جوانب أخرى، وذلك يعنى تزايد نفوذ العرب المسلمين على البجا، مقارنة بنفوذهم عند عقد الاتفاقية الأولى. فحسب هذه الاتفاقية أصبحت أرض البجا وسكانها جزءاً من ممتلكات خليفة المسلمين، مع الإبقاء على الملك حاكماً تابعاً، عليه دفع جزية سنوية تعادل مائة رأس من الابل أو ثلاثمائة دينار، حسب مايرى الخليفة. وعلى البجا ان يذكروا الله والقرآن ومحمد رسول الله بالاحترام والتقدير اللازمين، وأن لا يساعدوا أعداء الاسلام بأى طريقة، وعليهم، أيضاً، عدم قتل أى مسلم أو ذمى، وأن لا يتعرضوا لهم فى أى مكان كانوا. وإذا قام البجا بقتل عربى واحد فقط، عليهم دفع عشرة أضعاف دية البجاوى العادى وعليهم، أيضاً، دفع عشرة أضعاف قيمة أى مسروقات، بالإضافة الى ارجاع عبيد المسلمين وماشييتهم الضالة. وبجانب ذلك سمحت الاتفاقية للعرب المسلمين بدخول أرض البجا كمقيمين وتجار ومسافرين وحجاج، دون مضايقات أو معوقات، وألزمت البجا بعدم الاضرار بأى من المساجد التى شيدها المسلمون، والسماح للموظفين المسلمين بجمع الزكاة والصدقات من الذين اعتنقوا الاسلام. وسمحت للبجا بدخول مصر، غير مسلحين، كمسافرين وتجار، باستثناء مناطق معينة - «وإذا فشل البجا فى الوفاء بأى من تلك الشروط، فإن ذلك يعنى إلغاء الاتفاقية، وبالتالي يصبح المسلمون فى حلٍّ من التزاماتها، ولهم حق مهاجمة البجا...» (٩).



وهكذا يتضح ان تلك الاتفاقيات كانت تستهدف تأمين مصالح العرب المسلمين وفتح بلاد السودان أمام تأثيراتهم ونفوذهم. فالعرب يمكنهم التحرك والاستقرار بحرية تامة في جميع الأراضي التي شملتها الاتفاقيات المذكورة، بالإضافة الى ضمان حماية مصالحهم التجارية وحريتهم الدينية والشخصية. وبجانب هذه الآليات، التي تضمن لهم السيطرة على البلاد من بعد، ولكن بطريقة فعالة، فقد عملت الحكومة الاسلامية على إحترام إستقلال السودانين في إدارة شئونهم، وأحتفظت بحقها في اللجوء إلى العنف ومواجهة أى محاولة لخرق الاتفاقية وعدم الوفاء بشروطها. وطالما، التزم السودانين بتنفيذ شروط الاتفاقية، بقدر ما تركوا لإدارة شئونهم بأنفسهم والعيش بسلام. وكان العرب يرسلون لهم بعض الهدايا والمنح، وفي بعض الاحيان قد يتسبأهلون في تنفيذ شروط الاتفاقية، وذلك لكسب ود السودانين ودفعهم للاستمرار في المحافظة على حالة الهدوء والاستقرار<sup>(١٠)</sup>.

ومع أن السودانين كانوا يتصادمون مع قوات الحكومة الاسلامية الرسمية، إلا أن علاقاتهم مع العرب المسلمين، المقيمين معهم، لم تتأثر بذلك، بل حافظت علي إستقرارها السلمي والودي بشكل عام. وبحكم تفوقهم في مجالات التجارة والأعمال، وتميز هويتهم، التي ضاعف من مكانتها، ارتباطها بالاسلام وامبراطوريته العظمى، تمكن العرب المسلمون، في فترة وجيزة، من التزاوج مع الاسر السودانية القائدة. وعن طريق نظام الوراثة الامومي، السائد وقتها، استطاع أحفادهم وراثه مواقع قيادية وسط مجموعات أمهاتهم وأخوالهم، ومن ثم حولوا النظام الامومي الي النظام الأبوي السائد الآن. وبذلك استطاعوا تعزيز الهوية العربية الاسلامية وإدامتها بشكل ثابت ومستقر<sup>(١١)</sup>.

لقد تأثرت الهجرات العربية للسودان وتعريب شمال السودان، أيضاً، بموقف العرب في الصراعات السياسية في مصر والامبراطورية الاسلامية. فصعود المجموعات السياسية المختلفة «الطولونيين، الاخشيديين، القاطميين، الأيوبيين والمماليك....» الى السلطة في مصر كانت له نتائج هامة في هذا المجال. وفي هذا الاطار كان لصعود المماليك، بشكل خاص، تأثيرات هامة، فصعود هذه المجموعة للسلطة، وهم عبيد العرب ومن أصل تركي، أدى الى تزايد الهجرات العربية للسودان، وإلى ظهور عملية معقدة من الاصطفاف وإعادة الاصطفاف بين المماليك والعرب والسودانيين. في هذا المناخ القلق غير

المستقر، إنتشرت المؤامرات والمكائدات بين أفراد الأسر الحاكمة السودانية بهدف الصعود الى كراسى الحكم إستناداً إلى تحالف مع المماليك أو العرب. فعندما فرض المماليك ضرائب باهظة على السودانيين وعقدوا معهم إتفاقيات تضمنت بعض الفقرات المجحفة بحقوق العرب، قام الاخيريون باستغلال إستياء السودانيين من الضرائب الباهظة والتحالف معهم ضد حكام مصر من المماليك. ومن خلال استغلال القرابات الأسرية المطالبة بالسلطة الشرعية والاستفادة من المنافسة على السلطة وسط الأسر الحاكمة، نجح العرب فى توطيد مركزهم. وسط الأسر الحاكمة ومن ثم انتزاع موقع القيادة فى السودان. ومع بداية القرن الخامس عشر الميلادى، كان العرب قد إنتشروا فى داخل البلاد، جنوباً حتى عطبرة وغرباً حتى كردفان، وفى عام ١٥٠٤م قامت مملكة الفونج الإسلامية، فى الجنوب الاقصى، بالتحالف مع عرب القواسمة بعد إسقاط الممالك المسيحية، التى تدهورت أوضاعها بمرور الزمن. وبتعريب السودان، بدأت مملكة الفونج تبسط هيمنتها على عموم مناطق السودان، باستثناء دارفور، التى كانت تحكمها مجموعة تدعى أن أصولها عربية، رغم طغيان ملامحها الزنجية.

إن الطبيعة الذاتية المستقلة لعملية تعريب شمال السودان تؤكد أنها كانت عملية اختيارية لحدود كبيرة. ويمكننا أن نلاحظ بسهولة كيف تحول الزنوج، الذين خضعوا لسلطة وهيمنة العرب، بسرعة واضحة الى إعتراف الإسلام وتبنى العروبة. ففى مقابل الامتيازات الكبيرة التى كان يجدها من يعتنق الإسلام، ويتبنى العروبة، إذا أمكن ذلك، كانت هناك الخسائر والاضرار الكبيرة التى يواجهها الوثنى والاسود بشكل خاص. وذلك لان الإسلام يقسم العالم الى قسمين: "دار الاسلام" و"دارالحرب"<sup>(١٢)</sup> وطالما أن الاسلام يسمح بتغيير المكانة الاجتماعية عن طريق الاهتداء والتعريب، فإن إغتراف مثل هذه الفرصة ما كان يجد أى مقاومة تذكر، وبالإضافة الى ذلك كان السودانيون يرون فى تزويج بناتهم للعرب المسلمين إرتباطاً بمجموعة تتمتع بامتيازات كبيرة. ومن جانبهم كان العرب يرون فى السودانى منخلاً لاكتساب وضع إجتماعي يمكنهم من غرس جذورهم فى أرض السودان. وبما أن العرب، بشكل عام، قد وفدوا الى البلاد بدون نسائهم، والاسلام لا يسمح بزواج المرأة المسلمة من غير المسلم، فقد كان التزاوج فى اتجاه واحد فقط. ولكن لأنه لم

يركّب تركيباً فوقياً فقد بنى هذا التزاوج على أساس نظام القيم العربى الافريقى المشترك، الذى يقوم على نظام الأسرة والنسب الممتد. وهو نظام يرتبط بمجموعات، وفى هذا الاطار يحافظ على هوية الفرد والمجموع، ويهدف الى تخليد الفرد عن طريق ذريته، ويقود الى نوع من تقديس النسب كمظهر من مظاهر الديانات الافريقية التقليدية. ونتيجة لذلك أدت عملية الاسلمة والتعريب إلى تطوير نظام مجموعات النسب فى شمال السودان ليحمل أسماء مؤسسيها الاصليين وفى بعض الاحيان يربطون بمجموعات قبلية تحمل أسماء السلالة المهيمنة<sup>(١٣)</sup>. وهذه السلالات، كما هو معروف، يمكن متابعتها، بقفزات أو فجوات عديدة، الى الوراء حتى أصولها فى الجزيرة العربية والسلالات السودانية البارزة فى المجالات الدينية والسياسية ترجع بنسبها، فى العادة، الى الرسول العربى، محمد، أو أقربائه أو صحابته أو قبيلته، قريش<sup>(١٤)</sup>.

إن عملية التعريب لم تنتشر فى البلاد بدرجة واحدة، فبعض المناطق شهدت درجة من التعريب أكثر أو أقل من المناطق الأخرى، مثل الفور الذين حافظوا على ملامحهم وثقافتهم الزنجية أكثر من القبائل الشمالية الأخرى<sup>(١٥)</sup>، والنوبة فى كردفان الذين لم يتأثروا كثيراً بعملية التعريب، والذين تأثروا منهم ظلوا محتفظين بثقافتهم السابقة بشكل أكثر من المجموعات الشمالية الأخرى<sup>(١٦)</sup>، ومع أن النوبيين فى الشمال قد تأثروا كثيراً بالثقافة العربية الاسلامية، إلا أنهم حافظوا على لغتهم جنباً الى جنب مع اللغة العربية، وكذلك حالة مجموعة البجا<sup>(١٧)</sup>، هكذا فإن إحتفاظ الشمال بهويات مجموعات السابقة يوضح لنا الطريقة التى إرتكزت بها عملية الاسلمة والتعريب على النظم السابقة لها. وهذه العملية ليست خاصة بالسودان وحده، لأن الإسلام، خلال مختلف عهوده، كان يطور نفسه من خلال تفاعله مع الأنظمة السابقة له<sup>(١٨)</sup>. إذ أنه لا بد من إزالة الافكار والمؤسسات الإرواحية، فإنه يحجبها برموز إسلامية خارجية، أى «أن عباداته وطقوسه لا تحل محل الاديان الإرواحية، بل تكملها...»<sup>(١٩)</sup>. وهذا المنهج لا يزال متبعاً من قبل المسلمين، فبينما يشتمل اعتناق المسيحية على أوامر دينية كثيرة، كشرط للتعميد<sup>(٢٠)</sup>، فإن إعتناق الإسلام يتطلب فقط ترديد كلمات محدّدة، هى «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»<sup>(٢١)</sup> «وليس هناك أى شروط أخرى، وليس مهماً أن كان الشخص المعنى قد سمع، أو لم يسمع، قبل ذلك، بمكة أو حتى القرآن»<sup>(٢٢)</sup>.

فى مجرى هذه العملية، وفى نقطة ما، تغلبت القيم والمؤسسات الاسلامية على مفاهيم وممارسات النظم السابقة، بشكل بدا وكان الثانية قد عززت مكانة الاولى<sup>(٢٣)</sup>. وهذه المرحلة هي التى كانت فى ذهن جاك ماندلسون Jack Mandelsohn عندما أشار الى أن السودانيين الشماليين «قد مارسوا عبقريتهم من أجل الاستيعاب، وذلك عن طريق اعادة تشكيل دين الرسول محمد بشكل يتناسب مع ادواقهم أكثر من رغبات علماء اللاهوت»، «غَنُوا ورقصوا فيه، ووَكَّنُوا جزءاً كبيراً منه، ولكنهم التزموا، دائماً، الحقيقة الخجولة بوحده المتأصلة تحت حكم الله الواحد الأحد»<sup>(٢٤)</sup>.

وهكذا، أصبح الاسلام مرتبطاً بالمجتمع المحلى وابتعد، بسرعة كبيرة، عن إعتباره شيئاً غريباً، وذلك من خلال إعترافه بالنظام التقليدى السابق له والبناء على أساسه، ونظرة سريعة للسودان الشمالى اليوم تكشف لنا «أن الاسلام قد ملأ حياة الأهالى واكتسب موقعا متماسكا، وأصبح يمثل حاجزا منيعا فى وجه التأثيرات الدينية الأخرى»<sup>(٢٥)</sup>.

لقد كان استيعاب الاسلام عنصر تعزيز، حيث تكون الانماط التقليدية مشابهة للمبادئ الاسلامية، كما هو حال العلاقة بين الدين والنظام العام، وفى أفريقيا التقليدية، تشمل المعتقدات الدينية «الميتافيزيقيا والكوزمولوجيا، بالإضافة الى نظرية الاخلاق والدين»<sup>(٢٦)</sup> وموقف الاسلام يتضمن، أيضاً، لسياسة، كجزء لا يتجزأ من النظام الاسلامى. وهكذا، «الحكومة الاسلامية لا يمكنها أن تفصل الجانب الدنيوى من الجانب الدينى فى الحياة»<sup>(٢٧)</sup>، ولذلك كان موقف الثقافة الشمالية صلباً، بحيث تمكن من الصمود والبقاء فى وجه لتوجهات العلمانية للإدارة الاستعمارية البريطانية.

### (ج) حماية الاسلام والتعريب فى الشمال:-

إن ارتباط هوية شمال السودان بالاسلام والثقافة العربية لم يكن، فقط، نتيجة احتكاكات مبكرة مع العرب، بل كان، أيضاً، نتاجاً للسياسات الحديثة التى انتهجها الحكم التركى المصرى والإدارات السياسية اللاحقة. فقد كانت السياسات الحكومية تركز، باستمرار، على تمايز وإختلاف الجنوب والشمال، والتنوع الدينى الذى يقف خلف هذا التمايز والإختلاف. نتيجة لذلك، ظلت «السياسة والدين فى السودان مترابطين لا ينفصلان»<sup>(٢٨)</sup> وفى معظم الاحيان كانت الاعتبارات الدينية تجب القدح المحلى<sup>(٢٩)</sup>.



لقد كان الحكم التركي المصرى يمثل إستثناءً، فى الدرجة فقط، بالنسبة للسياسات التى توجهت لحماية وتشجيع الاسلام والتعريب فى السودان. فالحكام لم يكونوا يتحدثون العربية بشكل جيد، كما أنهم لم يكونوا يمارسون الاسلام بالطريقة الاصولية التى يلتزمها السودانيون. ولكن، للمفارقة، إن الاسلام أصبح أداة للتوحيد والاندماج الوطنى وسلاحاً أخلاقياً لمحاربة ومقاومة مفسد الحكم التركى، كما أصبح التعريب مكوناً هاماً فى هوية السودانيين. فالحكام الاتراك/المصريون، بعكس الغرب، جاءوا منذ البداية، كقوى استعمارية، حيث قام محمد على باشا، الألبانى الاصل وممثل الامبراطورية العثمانية مصر، بغزو السودان فى عام ١٨٢١م، لأهداف واضحة ومحددة من بينها ملاحقة خصومه المماليك الذين هربوا الى داخل السودان. وكان، أيضاً، يستهدف الذهب والعاج ومصادر الدخل الأخرى فى البلاد. والهدف الذى عبر عنه بوضوح شديد تمثل فى الحصول على جنود للجيش المصرى من الزنوج الاقوياء. فقد كتب فى وقت لاحق لمثله فى السودان، يقول «إنك تعلم هدف كل جهودنا وأنفاقنا هو الحصول على الزنوج، الرجاء زيادة حماسكم لتحقيق رغبتنا فى هذا الموضوع...»<sup>(٣٠)</sup> وهكذا، تحولت كل هذه الاهداف المتعددة الى سيطرة استعمارية قاسية، واجهها السودانيون بالرفض والاستياء. تحرك جيش محمد على باشا، المكون من عناصر غير عربية، البانية وتركية، بشكل عام، الى داخل السودان بقيادة ابنه إسماعيل، وكان جيشاً متفوقاً فى أسلحته ولم تسبغ مقاومة السودانيين ايقاف زحفه، رغم بسالتها وقوتها. وبذلك تمكن من إنهاء حكم سلاطين الفونج وتأسيس الحكم التركى المصرى، الذى شملت سلطته فى البداية معظم مناطق الشمال وضُمت اليها دارفور فى عام ١٨٧٥.

كانت الطريقة التى بدأ بها الحكم التركى المصرى تأسيس نظامه قد تحددت فى رد فعله تجاه إغتيال إسماعيل ابن محمد على باشا، نتيجة اساءته للزعيم المحلى، نمر محمد نمر، زعيم قبيلة الجعليين. فقد طلب اسماعيل ٣٠٠٠٠ دولار و ٦٠٠٠ رأس من العبيد خلال يومين فقط، ولكن الملك نمر اعترض بحجة ان قبيلته لا يمكنها تقديم مثل هذا المبلغ الكبير خلال الوقت القصير المحدد. وتقول رواية الجعليين ان الباشا احتد فى النقاش واشتد غضبه «فقام بضرب الملك فى وجهه بغليونه، وكان رد فعل الملك نمر عادياً. وفى

المساء قام بقتل إسماعيل ومعيته. وتبع ذلك إنتشار ثورة عارمة فى معظم مناطق الشمال<sup>(٣١)</sup> وكان رد فعل الحكومة سريعاً وحاسماً. فخلال عامين متواليين قام الدفتردار، زوج بنت محمد على باشا، بأبشع عملية إنتقام فى تاريخ البلاد، شملت القتل العشوائى والتدمير والتخريب، وظلت ذكرى هذا العمل الوحشى حية حتى إنفجار الثورة المهدية فى عام ١٨٨١ وبعد هذا العرض الوحشى لوجه السلطة الجديدة، لم تواجه الادارة التركية فى السودان تحدياً طوال سنواتها الستين<sup>(٣٢)</sup>. ولكنها لم تنجح قط فى كسب ثقة أهل البلاد.

كانت الادارة التركية المصرية منظمة على شكل تسلسل هرمى، ركز السلطة، بشكل كبير، فى أيدي الجاكم العام، الذى تضاعف نفوذه وتأثيره نتيجة لبعده عن القاهرة. وكانت الحكومة المصرية قد قامت بمحاولتين فى ١٨٤٣ و ١٨٥٧، لتوزيع السلطة على أساس نظام المحافظات، ولكنها لم تنجح وفى الوقت نفسه لم يكن الخديوى، رئيس الحكومة فى القاهرة، يثق كثيراً فى حكام الخرطوم. لذلك كان يقوم بتبديلهم من وقت لآخر، بهدف إختبارهم، الأمر الذى تسبب فى عدم إستقرار الحكام وعدم تأكدهم من البقاء فى مناصبهم فى أى لحظة. لنفس السبب، كان الاعتماد على الجيش كبيراً فى مجال حفظ النظام وضمان السيطرة، وقد أدى كل ذلك، فى النهاية، إلى تأكيد المركزية وسياسة العنف والقمع، لذلك قامت السلطة الحاكمة بالمحافظة على النظام القبلى وتقويته وإستخدامه لأغراضها. ولكن زعماء القبائل تحولوا الى أبواق للسلطة المركزية، وأصبح وجود الزعيم القادر على المحافظة على إستقلاله وتأثيره وتقديره وسط قبيلته إستثناءً نادراً، ونتيجة لذلك «فجع السودانيون، بأسى عميق، لفقدان إستقلالهم القبلى لمصلحة حكومة أجنبية، غير محترمة، تقوم سياستها على النهب ومطالبة الشعب بما يفوق طاقته»<sup>(٣٣)</sup> فقد كان مصدر الحكومة التركية المصرية الرئيسى لدخلها فى السودان يتمثل فى الضرائب، وهذا ما أدى الى استياء وسخط الأهالى<sup>(٣٤)</sup>، وذلك لأن «.. الأتراك كانوا يتدخلون فى كل شىء، ويفرضون ضرائب على كل شخص .. كان السلاطين، وخلفاؤهم، الفترات، يفرضون من الضرائب مايكفى لتسيير خدمات دولتهم البسيطة، أما الأتراك المصريون فقد عملوا على الحصول على ضرائب فوق طاقة السودانيين... وبتطبيق نظام جديد للضرائب، لم يجربهُ السودان من قبل،

وقد أدخل الحكم التركي الفوضى في حياة البلاد الاقتصادية» (٣٥).

وفي المجال الديني، أتبع الحكم التركي المصري الاسلام الارثوذكسي، وأدخل نظام المحاكم الدينية لتطبيق احكام الشريعة، أو القانون الاسلامي، بدلاً من القانون والاعراف القبلية والمحلية. وكان ذلك بالنسبة للسودانيين، بمثابة فرض قانون اجنبي عليهم، لأنهم كانوا يعتقدون في إسلامية قانونهم وأعرافهم التقليدية، رغم أنها كانت نتاج تفاعل بين المبادئ الإسلامية والقانون والاعراف التقليدية السابقة (٣٦). وكانوا، عملياً، يرون أنهم أكثر تمسكاً بالاسلام من الحكومة التركية المصرية، التي يصعب تمييز إسلامها فـ «المستوى المتدنى لاخلاقيات موظفي الحكومة التركية، عند محاكمتها بالمقاييس الاصولية للاسلام الشعبي، كان يقابل بالاحتقار والأستياء وسط السودانيين» (٣٧).

المهم كانت المسألة الأساسية في النزاع والخلاف بين الشماليين والحكم التركي تتمثل في محاولات الحكم التركي الاخيرة منع تجارة الرقيق (٣٨)، فقد كانت حملات جلب الرقيق، كما ذكرنا سابقاً، في مقدمة أهداف غزو محمد علي باشا للسودان. وخلال عهد الخديوي إسماعيل اضطرت الحكومة التركية، تحت ضغط الحكومة البريطانية، إلى إتخاذ إجراءات محددة في إتجاه منع حملات وتجارة الرقيق، ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً. وهذا الفشل كان يرجع، في جانب من جوانبه، إلى حقيقة أن الحكومة ظلت مستمرة في فرض ضرائب باهظة على السودانيين. وذلك لأن فرض المزيد من الضرائب كان يعنى ضرورة إستمرار تجارة الرقيق. فالشماليون كانوا يرون أنه ليس من المنطقي أن تُفرض عليهم ضرائب باهظة، غير عادلة، في الوقت الذي يحرمون فيه من مصدرهم الرئيسي للدخل، باعتباره نشاطاً غير مشروع، وهم ينظرون لهذا النشاط كـ «نشاط مشروع ومصدر شريف للربح، وينظرون إلى كل محاولات منعه باعتبارها تدخلاً غير عادل وغير مبرر في عرفه القرآن الكريم وفي عمل مشرف ومقدس» (٣٩).

قادت هذه العوامل، في مجملها، الى سلسلة انتفاضات وتمردات، كانت الحكومة قادرة على سحقها في البداية بسياسة العنف والقمع. ولكن مثل هذه السياسة كانت، في الواقع، توفر المزيد من العوامل والشروط لانتفاضات وتمردات أخرى. وهكذا، تضافرت عدة عوامل، تمثلت في: تدهور الاقتصاد

المصري، تدنى الروح المعنوية للجيش المصرى في السودان وضعف مرتباته، إستياء السودانين من الجيش المصرى الخ... كل هذه العوامل تضاعفت لتؤدى الى تفجر الثورة المهدية فى عام ١٨٨١، كحركة وطنية شعبية وحّدت عموم شمال السودان وامتد تأثيرها الى الجنوب.

كانت المهدية، بشكل أساسى، ثورة اسلامية ووطنية، إستطاعت أن تفجر طاقات هائلة مكنت السودانين من مواجهة أسلحة الجيش التركى المتفوقة بالحراب والسكاكين، ومن الانتصار عليه معركة بعد معركة حتى اسقاط الخرطوم فى مطلع ١٨٨٥ وقتل غردون باشا، وبالتالي انتهاء الحكم التركى المصرى واقامة دولة المهدية<sup>(٤٠)</sup>، ومع ان المهدي لم يعش طويلاً ليبنى ثمار انتصاره الاعجازى، فقد واصل الخليفة عبدالله، الذى خلفه، فى حمل الرسالة، وبدأ فى تطبيق الشريعة الاسلامية بشكل حرفى، وشرع فى نشر الرسالة المقدسة<sup>(٤١)</sup>، وكان هدف المهدية يتمثل فى ضم كل بلدان العالم الى دار الاسلام. وبالفعل شرع الخليفة فى الاتصال بعدد كبير من حكام العالم، من بينهم الملكة فكتوريا، ملكة بريطانيا، وطلب منهم الاستسلام أو مواجهة الحرب<sup>(٤٢)</sup>. وفى عام ١٨٩٨م تجمعت عدة عوامل أدت إلى سقوط دولة المهدية وإستعادة السودان بواسطة الجيش المصرى الانجليزى، تحت قيادة كتشنر. كان البريطانيون فى البداية، غير راضين فى توريط انفسهم فى السودان، ويركزون فقط على إصلاح وتطوير الوضع الاقتصادى فى مصر، ولكنهم وافقوا، فى النهاية، لايقاف الجيش الفرنسى الزاحف من الجنوب لاحتلال السودان وضمها للامبراطورية الفرنسية. ولولا ذلك لكان من المحتمل ان لا يوافقوا على إستعادة السودان، لأن سيطرة الفرنسيين على أعالى النيل ستهدد المصالح المصرية وبالتالي المصالح البريطانية<sup>(٤٣)</sup>.

لقد كانت بريطانيا الحاكم الفعلى للسودان، من خلال ماسمى الحكم الثنائى الانجليزى المصرى، الذى أعلن بعد انتصار قوات كتشنر مباشرة. ومنذ البداية عملت الادارة البريطانية على الاعتراف باسلام وعروبة الشمال وحمايتها. فاذا كانت دولة المهدية قد سقطت، فإن التقاليد الاسلامية، التى تربط السياسة بالاسلام، ظلت حية ومستمرة. ومن هنا، شعرت الحكومة بضرورة بناء سياساتها العملية على هذا الأساس، إذا أرادت أن تكون مقبولة وفعالة. لذلك «قرر انه طالما القطر مسلم، فان حكومته يجب اعتبارها مسلمة»<sup>(٤٤)</sup>.



وهكذا أصبح يوم الجمعة، وليس يوم الاحد، يوم العطلة الاسبوعية الرسمي، وقررت الحكومة، كذلك، استبعاد الارساليات المسيحية من الشمال، وفى وقت لاحق سمح لها بالنشاط فى بعض المدن الشمالية، التى كان يتواجد فيها مسيحيون من أوربا وبلدان الشرق الأوسط، وأُشترط عليها عدم القيام بمحاولات لتنصير الشماليين، مع السماح لها بتقديم خدماتها التعليمية والصحية فى أوساطهم. وقد عبّر القنصل العام فى مصر، وقتها، لورد كرومر، عن دوافع هذه السياسة فى الكلمات الآتية: «فى الجزء الشمالى من السودان، ليس من الممكن الآن تبنى سياسة ليبرالية ومتسامحة، كتلك التى أتبعنا فى مصر، بدون التعرض لآخطار كبيرة... فإذا ما تركت الارساليات المسيحية لتعمل بحرية، فإن ذلك لن يكون فقط غير مفيد فى النهاية، بل من المحتمل أن يتسبب فى اضطرابات حقيقية، قد تدفع عملنا الحضارى هذا كله الى الوراء، بدلاً من تطويره وترقيته، وهو أمل يعمل كل من ارتبط بهذا القطر، سواء كان مرتبطاً أم غير مرتبط بنشاط تبشيري، على تحقيقه فى أرض الواقع»<sup>(٤٥)</sup>.

وفى حديث الى جمهور شمالى فى عام ١٩١٤، أكد الحاكم العام أن سياسة حكومته تعمل على دعم وتشجيع الاسلام، حيث قال «اشهد الله، أننا تفقدنا الاماكن المقدسة فى الخرطوم خلال الأسابيع القليلة الماضية، وأتينا دعمنا وساعدنا رجال الدين، وبيننا وساعدنا فى بناء مساجد فى كل انحاء القطر، وأن القضاة وغيرهم قد تلقوا تعليماً مجانياً وشاملاً فى القرآن والعقائد المحمدية»<sup>(٤٦)</sup>.

ولكن السياسة البريطانية المؤيدة للعرب والاسلام واجهت أزمة فى ما يتعلق بالنظام القانونى.. فقد «وجدت أنه ليس هناك نظام عدلى يستحق هذا الاسم قد أسس فى القطر»<sup>(٤٧)</sup>، من جهة أخرى اكتشفت أنه «ليس هناك حكومة اسلامية يمكن أن تفصل الجانب الدنيوى من الجانب الدينى للحياة»<sup>(٤٨)</sup> فالنظام الذى انشئ كان حلاً وسطاً، إتجه فى القانون الجنائى الى سن قانون عقوبات، عبارة عن تكييف للقانون الهندى، المرتكز، هو الآخر، على القانون الانجليزى، حتى يتناسب مع ظروف السودان<sup>(٤٩)</sup>.

أما القانون المدنى، القانون الأساسى فى القطر، فقد ارتكز على القانون الانجليزى المستورد لتطبيقه المحاكم المدنية<sup>(٥٠)</sup> وفى الأحوال الشخصية، مثل

الورثة والزواج والطلاق وعلاقات الاسرة والاقواف وغيرها، فان قانون القضاء المدنى لسنة ١٩٠٠ «أعيد سنّه فى عام ١٩٢٩» قد اشترط أن «المحاكم المدنية سوف لن تكون مؤهلة لتقرر فى دعوى كل أطرافها مسلمون، إلا بموافقة كل هذه الأطراف» وحسب القسم السادس من قانون محاكم القانون المحمدى، تقع مثل هذه المسائل تحت سلطة المحاكم الشرعية، وتحكم بأحكام الشريعة الإسلامية، وفي المجتمعات القبلية الشمالية، حيث يمتزج القانون العرفى مع الشريعة الإسلامية، قامت الدولة بتأسيس المحاكم المحلية لإدارة شئونها القانونية.

وفى مجال التعليم، قامت السياسة البريطانية على .. «طالما أنه ليس هناك حكومة إسلامية تفصل الجانب الدنيوى عن الدينى للحياة، وخاصة فى مجال التعليم، فان النظام التعليمى يجب أن يركز على الإسلام، بدلاً من أن يكون علمانياً»<sup>(٥١)</sup> وفى المدارس الحكومية، يدرس الدين الإسلامى كجزء من المنهج العام، أما المدارس السودانية الخاصة، فأما أنها كانت تدرس العلوم الإسلامية، بشكل رئيسى، أو أن هذه العلوم كانت تمثل جزءاً هاماً من برنامجها. أما السياسات البريطانية تجاه الجنوب، كما سنرى لاحقاً، فقد كانت مختلفة، لأن الجنوب ظلّ وثنياً بشكل عام، بجانب أقلية مسيحية متعلمة. المهم أن المشكلة الأساسية، التى واجهت السودانين بعد الاستقلال، تمثلت فى الدور الذى سيلعبه الدين فى دستور البلاد الجديد. وفى هذا الخصوص، يقول قاضى القضاة، رئيس قسم القضاء الشرعى فى النظام القانونى، فى مذكرة للجنة الدستور، مايلى: «فى بلد مسلم مثل السودان، بنيت تنظيماته الاجتماعية على التقاليد العربية والمبادئ الإسلامية وأغلبيته تعتنق الدين الإسلامى، من الضرورى أن تركز مبادئ دستور مثل هذا البلد على مبادئ الإسلام... و .. بالتالى فان القوانين، التى تحكم شعبه، يجب أن تستوحى من مبادئ دستور إسلامى وبما يتماشى مع المثل الإسلامية التى صاغت مثل هذا المجتمع»<sup>(٥٢)</sup>.

وبالطبع، لا يتفق كل الشماليين مع مثل هذا الدستور المقترح، ولكن العقبة الأساسية كانت تتمثل فى معارضة الاعضاء الجنوبيين ورفضهم لآى دستور دينى..، الواقع أنه، حتى صعود نفيرى للسلطة، ظلّ الدين يلعب دوره فى الأحزاب السياسية. وكان الصراع من أجل السلطة يتركز، بشكل رئيسى، حول قيادتين دينيتين مبجلتين وقويتين: السيد على الميرغنى الذى كان يقود طائفة

الختمية، والسيد عبدالرحمن المهدي زعيم الانصار.  
وهكذا ظلت عملية الاسلامة والتعريب، التي تمتد جذورها الى القرن السابع  
الميلادي، تجد الحماية والتشجيع، طوال مختلف مراحل تاريخ السودان  
الشمالي، وحتى الحكومة الكولونiale البريطانية، غير المسلمة، واصلت السير  
في هذا الاتجاه. وجاءت حكومات ما بعد الاستقلال لتخطو خطوات أكثر، وتمد  
عمليتي الاسلامة والتعريب الى جنوب القطر، بأمل تحقيق تماثل ثقافي ووحدة  
وطنية... ولكن هذا التطوير يمثل مرحلة معاصرة في المواجهة الطويلة بين  
الجنوب والشمال، سنتناقشه في الفصل القادم.

## الهوامش

- (١) Yusuf Fadl Hasan, op. cit. p.3.
- (٢) MacMichael, op. cit (1922) 13.
- (٣) Yusuf Fadl Hasan, op. cit, p. 10.
- (٤) Abdel Fatah Ibrahim Baddour, Sudanese Egyptian Relations, 17. (The Hague, M. Nisheff, 1960) يشير الى أن النوبيين (قاموا بعدة حملات عسكرية ضد مصر وخربوا اطراف مصر العليا..)
- (٥) عبدالله بن سعد «قام بقذف مدينة دنقلا، عاصمة النوبة السفلى، بالمنجنيق وفرض عليها حصاراً، نفس المصدر السابق.
- (٦) Yusuf Fadl Hasan, op. cit, p. 2.
- (٧) أهل الكتاب هم اليهود والمسيحيون الذين يعيشون تحت حماية المسلمين.
- (٨) حول نصوص الاتفاقية انظر، Abdel Fatah Ibrahim Baddour, pp.17-20.
- و يوسف فضل ٢٢-٢٤
- (٩) Abdel Fatah, p. 21, Yusuf Fadl Hasan, p. 31
- (١٠) خلال عهد الخليفة المهدي (٧٧٥-٧٨٥)، مثلاً، اشتكى النوبيون من ارسال البقط (الجزية) بشكل منتظم لان جمع الرقيق يتم عن طريق حملات دورية في مناطق الزنوج في الجنوب البعيد، وفي حالة فشلهم في ذلك فإنهم يضطرون الى ارسال ابنائهم- ولتخفيف هذا العبء وجههم المهدي بارسال البقط مرة كل ثلاث سنوات. وفي فترة لاحقة تباطأ النوبيون وترلخوا في الوفاء بالتزاماتهم، فأوقف العرب ارسال الهدايا والمنح لزعمائهم وهددوا بشن حملات على النوبيين اذا لم يقوموا بدفع متأخرات ١٤ عاماً. وقام النوبيون بمناقشة الأمر، وأرسل ملكهم، زكريا بن ياهنوس، ابنه وزعيم البجا الى بغداد لعرض قضيتهم أمام خليفة المسلمين، الذي قبلهم بكرم وترحاب وأمر بشطب متأخرات البقط وحملهم بالهدايا والمنح.
- وفي عام ٨٥٤م رفض البجا، في عهد الملك على بلجا، دفع الجزية، وقتلوا الموظفين المسلمين والعرب العاملين في منطقة المنلجم، كما قاموا بمهاجمة مصر العليا ونهب بعض مدنها وطرد سكانها منها، وفي الحال أمر الخليفة جعفر المتوكل على الله والى مصر بمعاقبة المتمردين... وارسل الوالي حملة بقيادة محمد بن عبدالله القيمي، استطاعت، بعد قتال عنيف، هزيمة البجا، واجبار ملكهم على الاستسلام واعلان التزامه بشروط الاتفاقية السابقة وبعدم العودة الى خرقها مرة أخرى، وقام قائد الحملة باستقباله باحترام وتقدير وقدم له هدايا ثمينة ودعاه لزيارة مصر ثم بغداد لمقابلة الخليفة.
- (١١) وبالفعل، كما أشار يوسف فضل حسن «ليس هناك مايشير الى أن حكام المسلمين في مصر قد أبدوا أى حماس لنشر الاسلام في السودان، باستثناء إشارة واحدة

نقط في عهد الفاطميين. فانتشار الاسلام في السودان كان، بشكل رئيسي، نتيجة للتفاعل والتعامل السلمي من قبل التجار العرب والمجموعات العربية التي استقرت في البلاد وتزاوجت مع السكان المحليين» The Arabs and the Sudan, p.18 انظر ايضاً The Penetration of Islam in the Eastern Sudan, S. N. R. No. XLIV, (1963) 1-8

حيث يقول يوسف فضل حسن، ايضاً، «ان الحكام المسلمين في مصر لم يعملوا على نشر الاسلام بحماس تيشيري في أرض النوبة والسودان الشرقي»، ٢.

(١٢) S.N. R., XXIV, (1941), 189 تحتوى على قصة صدام مع إحدى

الحمولات العربية لجلب الرقيق من الجنوب، ترجع الى عام ١٩٠٩م، كتبها الكابتن R.C. Greenwood ويقراءتها يمكن ان نرى أن نظرة العرب المسلمين للأسود "الوثني البدائي"

قد انحطت به الى مستوى أدنى من البشر. أما سلاطين بلشاه النمساوي الاصل، الذي أصبح مسلماً وخدم الحكم التركي المصري، ثم عاد اسيراً في دولة المهديّة، وبعد ذلك أصبح موظفاً كبيراً في إدارة الحكم الثنائي الانجليزي المصري، فقد كتب في خطاب شخصي، في بداية التدخل البريطاني، مايلي: «لقد إستغربت كثيراً من كما جاء في خطابكم للأمير فرنسيس تيك Francis Y. Teck الذي وصلني عن طريق الجنرال رونرال روندل Runeral Rundle، حول عدم تقدير صاحبة الجلالة ملكة انجلترا للموقف الذي اتخذته

من قضية الرقيق.. إننى لا أشك أن صاحبة الجلالة تجهل الطبائع الشريرة والفسادة للاعراق الزنجية، التي نحاول عبثاً أن نرفعها الى مستوانا... هؤلاء الخنازير، المنبوذون، لا يستحقون ان يعاملوا كرجال لحرار مستقلين»

Richard Hill, Slatin Pasha, (London, Oxford Univ. Press, 1965), 55.

(١٣) في مقالة حول الهندوة نشرت في، S. N. R., XX, 2, (1937),

147-208 لاحظ Owen محاولة الهندوة في بعض ممارساتهم في البحث عن اصول عربية. وفي مقال الرباطاب في، 162-167 كتب F. C. S. Lorimer يقول أن الرباطاب (يدعون أنهم عباسيون اصلاء ينحدرون مباشرة من العباس، عم الرسول، أى من فرع بنى العباس في قبيلة قريش، قبيلة الرسول..) وعلى أى حال، فإن ماكمايكل يرفض هذا الادعاء. حول الاسر والمجموعات المختلفة التي تدعى الانتماء الى سلالات من الجزيرة العربية، انظر يوسف فضل، مصدر سابق.

(١٤) هذه النقطة نشرت اليها، دون لختلاف، كل الدراسات الخاصة بالقبائل الشمالية.

نومنا إلى بعضها في الصفحات السابقة - للمزيد انظر G. E. R. Sandars, "The Amarar", S. N. R., XVIII, 2, (1935). 195-219..

كتب ساندريز يقول «لقد بذل الامرأر جهداً مقدراً، تماماً كما فعلت معظم قبائل البجا، لدفن تاريخهم السابق لاعتناقهم الاسلام، ولكن، رغم أنهم قدموا سلسلة نسب تربطهم بانقى الدماء العربية، إلا أنهم يعترفون بأصولهم المحلية البجاوية، وهم الآن يذكرون شيئاً من تاريخهم السابق للاسلام» ص ١٩٨ ويدعون أن جدهم الكبير «رجل من الكواهلة، جاء وتزوج من امرأة من السكان المحليين... الخ» نفس المصدر

(١٥) يصف أركل الاثار في دارفور ويشير الى أن رولبط المنطقة بممالك غرب

افريقيا لها جذور عميقة، وان أهل دارفور قبلوا الاسلام لاعتبارات تتعلق بالمصالح والنفوذ، وأن الاسلام دخل الى هناك عن طريق غرب أو شمال افريقيا أكثر من مصر والشرق  
A.J. Arkell, The History of Darfur 1200-1700, S. N. R., No. XXXII, Parts 1 and II, 1951, pp. 37-70.

G. D. Lampen, History of Darfur, S. N. R., XXXI, 2, 1950, أيضاً  
pp. 177-209

(١٦) يقول R. c. Stevenson «ان تغفل الاسلام في حياة النوبة اتبع عمليات التسرب التدريجي والتوفيقية العادية التي سبق رشحها مع قبائل أخرى- فالجوانب الثقافية تأسملت جزئياً، أو أعيد تشكيلها أو ظلت كما كانت، مع احتفاظها بطابع اسلامي» في السودان في مذكرات ومدونات العدد 9-20, (1963), XLIV, S.N.R., تحت عنوان "بعض جوانب الاسلام في مناطق جبال النوبة".

MacMichael, op. cit, 1,35. (١٧)

(١٨) يبدو ان نفس العملية قد تمت في كل انحاء افريقيا.. انظر

Heintzen, The Role of Islam in the Era of Nationalism, in :- The New Forces in Africa, 1962, p. 42.

Trimingham, J. S., Islam in East Africa, انظر في شرق افريقيا، انظر  
Afirca, (Oxford Clarendon Press, 1964), pp. 39, 61-63, 74, 163-164,

Anderson, J. N. D., Tropical Africa Infiltration and أيضاً  
Expanding Horizon, in:- Unity and Diversity in Muslim Civilization, Oxford, 1955, 263.

Heintzen, op. cit, 44. (١٩)

C. D. Farran, Matrimonial Laws of the Sudan, (London, (٢٠)  
Butterworth 1963), 228.

Ibid, J. S. Trimingham, The Christian Approach to Islam in (٢١)  
the Sudan, (London, Oxford Univ. Press, 1948), p. 34, Farran, op. cit., 277.

Farran, p. 227. (٢٢)

Anderson, op. cit., p. 265. Heintzen, op. cit., p. 42. (٢٣)

J. Mendelsohn, "God, Allah, and Juju, Religion in Africa (٢٤)  
Today", London, Nelson, 1962, 102.

J. S. Trimingham, "The Christian Church in Post-War Sudan (٢٥)

(World Dominion Press, 1949), 23. أيضاً، لاحظ ترمينجهام أن (... الاسلام

دين يجمع معتقدات دينية متعارضة ملتحة في نظام موحد، فالعنصر النبوي يمنح شرعية وتماسكاً للدين الشعبي الشرقي والافريقي عندما يتم استيعابه، والاسلام، كقوة روحية، يمثل غطاء سطحيًا، ومع ذلك فان الارتباط بالنظام لها قدرة عالية على أن تستدعي مقدماً



شعوراً بالتفوق الدينى، والاخلاص والطاعة العمياء، والتعصب الأعمى فى الانتصار الذين لا يعملون أى شىء عن معتقداته ولم يتقيدوا قط بتعاليمه ووصاياه..).

Christian Approach to Islam in the Sudan, London, 1948, p.44.

Thomas Hodgkin, Nationalism in Colonial Africa, (New York Univ. Press 1927) p. 95. (٢٦)

وكما يقول تيلر "لا تميز يمكن أن يحدد بين الدينى والدنيوى، بين الطبيعى وفوق الطبيعى، لان الطبيعة والانسان وماوراء الطبيعة كلها، متلازمة ومتراطة مع بعضها البعض فى مجتمع كلى". J. V. Taylor, Primal Vision, London, 1963, p. 72.

Trimingham, The Christian Approach op. cit, p. 25. (٢٧)

U.S. Dep. of State, op. cit., 12. (٢٨)

Ibid (٢٩)

Richard Hill, Egypt in the Sudan 1820-1881, (London, Oxford Univ. 1959), p. 13. (٣٠)

Ibid, p. 16. (٣١)

Robert Collins, The Southern Sudan 1883-1898, A Struggle for Control, (Yale Univ. Press, 1962), p. 14. (٣٢)

Ibid.p. 21 (٣٣)

Ibid.p. II (٣٤)

Ibid.p. 14. (٣٥)

(٣٦) نتيجة للطريقة الانتقائية لعملية الاسلامة التى ناقشناها قبل قليل، لاحظ فران Farran ان "معظم، ان لم يكن كل، القبائل ذات الصلة قد حولت إلى الاسلام منذ فترة طويلة، ونتيجة لذلك، وعن طريق عملية تغيير تدريجى، من الممكن افتراض ان عاداتها السابقة لاسلامها قد انتشرت وأن تعاليم الاسلامية قد حلت محلها... كعادات للقبائل ذات الصلة ... وملتطبة المحاكم المحلية فى شمال السودان، فى الواقع، ليس قانوناً محمدياً صافياً... لكنه قانون محمدي مطعم بعادات وتقاليد محلية". op. cit, p. 254.

وفى اشارة الى نفس عملية الدمج والاستيعاب فى اجزاء أخرى من أفريقيا، يقول بروفيسر اندرسون "ان القانون الاسلامى لم يتجاوز قط الاعراف والقوانين المحلية، ولكنه أما أن تعايش معها كنظام منفصل ومتميز، كل منهما يطبق فى الحالات المناسبة أو ان يندمج فيها فى مركب واحد قد يسمى "قانوناً اسلامياً" أو "عادات وقوانين محلية". حسب الذوق أو الممارسة المحلية". op.cit., 153.

Robert O. Collins, op. cit, p. 13. (٣٧)

R. Gray, in:- A History of the هذه النقطة اكدها رتشارد غرى فى Southern Sudan, 1838-1889, London, 1961 (٣٨)

Richard Hill op. cit., p. 102. (٣٩)

Francis R. Wingate, Mahdism and the Egyptian Sudan, راجع (٤٠)

Holt, P. M., The Mahdist State in the Sudan 1881-1898, 1891، ذلك،  
(London Oxford Univ. Press, 1958), A. B. Theobald, The Mahdiya,  
A History of the Anglo-Egyptian Sudan, 1881-1899.(London,  
Longmans, 1951)

P. M. Holt, op.cit. (٤١)

Muddathir Abdel-Rahim, Imperialism and Nationalism in the (٤٢)  
Sudan 1898-1956 (London, Clarendon Press, 1969) 89

G. N. Sanderson, England, Europe and the Upper Nile, (٤٣)  
1882-1899, (Edinburgh, Univ. Press, 1965) ; R. O. Collins, King  
Leopold, England and the Upper Nile (New Haven, Yale Univ. Press,  
1968); J. A. S. Greenville, Lord Salisbury and Foreign Policy,  
(London, Oxford Univ. Press) 1964,

Muddathir Abdel-Rahim, op. cit., p. 24.

A. B. Theobald, the Mahdiya, op. cit

Mekki Shibeika, The Independent Sudan, (London, Paterson,  
1960),Chapter XIII to XVI ; R. Robinson, J. Gallagher and A. Denny,  
Africa and the Victorian, (New York, St. Martins Press,1961)

Trimingham, (The Christian Approach..) op.. cit., 25. (٤٤)

Lord Cromer, Report on the Sudan,1904, p. 50. (٤٥)

Trimingham op.cit.,(1948) p. 16

Trimingham, op. cit., p. 26. (٤٦)

A. N. Allot, Essays in African Law, London, Butterworth (٤٧)  
1960, p.10.

Trimingham, The Christian Approach to Islam in the Sudan, (٤٨)  
(1948),p. 25.

(٤٩) مستر قوتمان بالغ كثيراً في وصف نجاح عملية التكييف، عندما أشار الى أن  
قانون عقوبات السودان لم يكن بريطانياً أو فرنسياً، ولا يشبه أى نظام مطبق فى أى بلد  
آخر- انه مشروع يمكن وصفه، بكل دقة، بأنه سودانى، بمعنى أنه وضع حقيقة بهدف  
E. Guttman, The Reception of Common Law in (مقابلة لاحتياجات السودان).  
the Sudan,61. C. L. Q. (1957), 401-417

W. Twining, Some Aspects of Reception, S.L.J.R., (1957), (٥٠)

والمرجع السابق. 229.

Trimingham, (1948) op. cit., 25. (٥١)

Hasan Muddathir, A Memorandum For the Enactment of a (٥٢)  
Sudan Constitution Derived from the Principles of Islam, (1956).

## الفصل الثالث

### المواجهة مع الجنوب

يمكننا متابعة العلاقة بين جنوب وشمال السودان خلال ثلاث فترات: فترة ما قبل الحكم البريطاني، فترة الاستعمار البريطاني وفترة ما بعد الاستقلال. وفي فترة ما قبل الحكم البريطاني، كان الجنوب والشمال منطقتين مستقلتين، إذا ما استثنينا حملات الاسترقاق، التي كان يقوم بها العرب داخل الجنوب، ومحاولات الحكم التركي المصري ودولة المهدي، غير الناجحة، لتوحيد جميع الأراضي السودانية تحت حكم إسلامي، ومع مجيء الحكم البريطاني فرض نوع من الوحدة في إطار التنوع، دون سياسات محددة وواضحة حول توجهات المستقبل. وفي وقت لاحق، قرر البريطانيون، بحماقة، دمج المنطقتين، مع المحافظة على قدر كبير من التنوع والاختلاف القائم بينهما - ووصل هذه التوجه مرحلته الأخيرة عشية الاستقلال بسودنة الإدارة البريطانية وفرض وحدة غير شرعية، تحت ظل سيطرة الايدولوجية العربية الاسلامية، جعلت الجنوب في موقع ثانوي ودرجة أدنى من الشمال. وكرد فعل على هذا التطور لجأ الجنوبيون الى أسلوب المقاومة المسلحة، طوال سنوات فترة ما بعد الاستقلال، حتى اتفاقية ١٩٧٢ التي قضت بانتهاء الحرب الاهلية ومنح الجنوب الحكم الذاتي الاقليمي.

#### (أ) فترة ما قبل الحكم البريطاني:

بالرغم من استمرار العرب، طوال هذه الفترة، في حملات جلب الرقيق من داخل الجنوب، فانهم لم يستغلوا بعيداً، ولم يحاولوا الاستقرار هناك. وذلك بسبب كثرة المستنقعات والذباب والرطوبة الاستوائية، والمقاومة الشرسة التي وجدوها من قبل القبائل الجنوبية. وأكثر من ذلك فقد كان العرب يرغبون في القيمة الفعلية أو الكامنة للزنج كرقيق، لذلك لم يهتموا بالتعامل معهم بنفس الطريقة التي اتبعوها مع الشماليين، فأسلمة الزنوج كانت تعني، من جهة أخرى، ايقاف حملات استرقاقهم، ومع ان « تجارة الرقيق في السودان ترجع الى عصور قديمة، وتمتد الى بدايات التاريخ المدون، لكنها لم تتخذ شكلاً واسعاً إلا بعد أن فتح الحكم التركي المصري مديريات بحر الغزال والاستوائية

وفرض نوعاً من الاستقرار واستتباب الأمن ودرجة من الوحدة بين الجنوب والشمال»<sup>(١)</sup> ومع ان الحكم التركي المصرى كان يدعى السيطرة على السودان بجميع أراضيه، فانه، حتى سبعينات القرن التاسع عشر، ماكان ليدعى أى درجة من السيطرة على الجنوب. فقد كانت نظرة القبائل الجنوبية للاتراك نظرة عدائية، تماماً كنظرتها للعرب تجار الرقيق، واعتبرتهم مثل هؤلاء لا شيء يميزهم عنهم. وحتى أناس مثل صمويل بيكر، الذى جاء لايقاف تجارة الرقيق، لم يجدوا أى تعاون، حيث يقول: «من المستحيل وصف التغيير الذى جرى منذ زيارتي الاخيرة لهذه المنطقة. فقد كانت وقتها، حديقة حقيقية، مليئة بالسكان وتنتج كل مايشتهي الانسان... كانت هناك قرى عديدة ويساتين تغطى ضفاف النهر، وكان الأهالى يلبسون لحاء أشجار المنطقة فى مظهر نظيف. أما الآن، فقد تغير المشهد: كل ذلك أصبح قفراً.. السكان هربوا والقرى اختفت... ذلك بالتأكيد، بسبب قدوم تجار الخرطوم واستقرارهم فى المنطقة... أنهم يخطفون النساء والأطفال لاسترقاقهم، ويسلبون ويخربون أى مكان تصله أقدامهم»<sup>(٢)</sup>.

وفى محاولة لتأكيد سلطتها فى الجنوب، قامت الحكومة التركية باكراه القبائل على الطاعة من خلال حملات تأديبية وحشية، شملت ضرب الزعماء، قتل الابرياء وخطف الماشية والمحاصيل عنوة. وفى ظل هذه الظروف، كان من الطبيعى أن يرحب الجنوبيون بالمهدى وثورته ضد طغيان الحكم التركي المصرى.. وتمثل هذا الترحيب مثلاً، فى ابتهاج قبيلة الدينكا، أكبر قبائل الجنوب، بشخصية المهدى الدينية لدرجة أنها نظرت إليه كمرشد وموجه واستوعبته فى دينها التقليدى الخاص - فالمهدى، كروح مقدس، أصبح ينظر اليه كابن دينق Deng، الروح العظيمة التى يقنسها جميع أفراد القبيلة. والترنيمة التالية نظمت فى مدحه وتبجيله:

أنه المهدى، بن دينق

نصلى له، نحن النمل، على الأرض، دينقنا

نتضرع لآلهة العشيرة وكذا دينق.....

قد ظل الرجال التعساء ثمانى سنوات

ماضرنا واساءنا هو فى الماضى

الذى تحدث عنه الاعظم، من أعلى

أنه المهدى، بن دينق، نصلى له على الأرض، دينقنا

نتضرع لآلهة القبيلة طويلاً طويلاً.....<sup>(٣)</sup>

ومع ذلك، لم يعتنق الدينكا الاسلام، بل دخلوا، بعد حين، فى صراع مع

المهدويين، الذين، بحكم تعصبهم الدينى وتمسكهم برسالتهم المقدسة لتطهير الدنيا من الكفرة، شنوا حرباً مقدسة فى الجنوب، ومعها عادت تجارة الرقيق بشكل كامل، ومع أن الجنوبيين كانوا تواقين للتخلص من الحكم التركى المصرى، إلا أنهم لم يجدوا الحاكم الاجنبى الجديد مقبولاً، خاصة أنه كان من تجار الرقيق. لذلك كان لابد أن يقاوموه، فحاربوا المهدويين وتجار الرقيق، واستخدموا نفس التريمة، التى نظموها فى مدح المهدى وتبجيله، فى صلواتهم وتضرعهم لروح المهدى، بن دينق، لمساعدتهم فى مقاومة الغزاة. وهنا يشير الدينكا الى فترات الحكم التركى المصرى والمهدية باعتبارها ... "الايام التى فسد فيها العالم"، كما تظهر كثيراً فى أدبهم الشفاهية، مثل الاغانى والحكايات الشعبية وغيرها، ككارثة كونية وانهايار فى المجتمع نفسه.

فى هذا الخصوص، شهد قييرديت Giirdit، البالغ من العمر حوالى التسعين عاماً، وهو أحد الزعماء القيايين، شهد فترتى الحكم التركى المصرى والمهدية، وأفاد المؤلف فى مقابلة معه، بالآتى:-

«الديناقلة (السودانيون الشماليون) والأتراك هم الذين أفسدوا المنطقة، كانوا يخطفون الناس ويبيعونهم... أنهم يذهبون، يهاجمون أى قرية، ويخطفون سكانها... أنهم لم يبسطوا الأمن والاستقرار، ولم يوحّدوا القطر.. كانوا يهاجمون المنطقة ويخربونها، وعند انتصارهم يخطفون الاهالى ويضيفونهم الى جيشهم كعبيد، يستخدمونهم لمهاجمة القبيلة المجاورة... قرى كثيرة إختفت، أعداد كبيرة من الدينكا دخلوا الأدغال ولم يظهروا... فى بعض القرى بقى فقط ثلاثون أو أربعون شخصاً... قرية فيها خمسون شخصاً كانت تعتبر قرية كبيرة... أنتم لم تشاهدوا أى تخريب.. التخريب والتدمير فى الفترات المبكرة دفع الناس للنوم فى الغابات.. واذا رأيت رجلاً تعتبر نفسك ميتاً.. أى رجل كان، حتى لو كان أسوداً، اذا رأيته، تعتبر نفسك ميتاً اذا لم يكن عندك قوة خاصة أكبر... أنه سيأخذ أشياءك... زعماء كبار نُهبت أشياءهم وتركوا دون أى شىء».

لقد كان الجنوبيون، حتى أربعينات القرن الحالى، يعتقدون، بشكل عام، أن العرب يخطفون الناس وخاصة الأطفال. وكانت كلمات «العرب هناك» تمثل طريقة لتخويف الطفل الناشز والعصى على السيطرة<sup>(٤)</sup>. وعلى أى حال، هناك موقف متشدد وسط الشماليين ضد مناقشة تجارة الرقيق. وعندما كانت تُدرّس فى المدارس، خلال عهد الحكم الثنائى، صوروا الأمر كأنه تشجيع لتغذية الكراهية بين الشمال والجنوب، تقف خلفه السياسة الغربية وعملاتها..

أى اعتبر جزءاً مما اسماء السيد اسماعيل الازهرى، رئيس الجمهورية السابق، «مخطط شرير، رسم بدقة، بهدف تشجيع وتغذية العداوة والتباعد بين أبناء الوطن الواحد».<sup>(٥)</sup> ومن ناحيتى فأنى اعتقد أنه يجب أن نميز بين مناقشة تجارة الرقيق بشكل يثير العداوة بين الشمال والجنوب، وتلك التى تستهدف الفهم الواقعى لتأثيرات الماضى فى واقعنا الراهن، حتى نتمكن من مواجهة سلبياتها فى خططنا المستقبلية.

#### (ب) الحكم الثنائى الانجليزى المصرى-

مع مجىء الحكم الانجليزى المصرى، وضعت الحكومة الجديدة حداً لعداوات الزوج والعرب، وبشنت بداية المرحلة الثانية فى علاقات الشمال والجنوب. وفى البداية أبدى الجنوبيون مقاومة بأسلة للسيطرة البريطانية، ولذلك واجهت الحكومة عدة انتفاضات قامت بها معظم القبائل، وظلت متواصلة حتى أواخر العشرينات، حيث أخذ آخر أشكال المقاومة القبلية فى الجنوب. ولكن البريطانيين أثبتوا أنهم أكثر ذكاءً عندما عملوا على إنهاء تجارة الرقيق. وحملات الاسترقاق الشمالية وتأسيس نظام يحفظ الأمن والنظام. فنتيجة لظروف الفوضى، التى كان يعيشها السودان خلال الفترة السابقة، تمثل الهدف الرئيسى للحكومة البريطانية فى استعادة القانون والنظام العام<sup>(٦)</sup>، وكانت تعتقد فى إمكانية تحقيقه عن طريق الشروع فى بناء يرتكز على الثقافات السائدة السابقة. وهكذا قامت الإدارة بالاعتراف بالاختلافات الثقافية القائمة بين الجنوب والشمال، وبدأت البناء فوق هذا الأساس، وقد عبر لورد كرومر، باللغة السائدة آنذاك قبل ظهور علم الانثربولوجيا، عن إمكانية حفظ الأمن والنظام وسط أولئك «المتوحشين الذين يسكنون هذه المنطقة» عن طريق القانون القبلى، مع اشراف عسكري قوى ومباشر، حيث يقول:

«أتصور أن أكثر المحامين دفاعاً وحماساً، سواء للأممىة أو المساواة أو الحرية لكل العقائد والاجناس، يمكنه أن يؤكد، بجدية، أنه من الممكن، فى الممارسة العملية، عمل نظام قادر على محاكمة أمثال كوات ود أو يلبونق (شلكاوى)، قام بقتل أجاك ود دينق، لأن الأخير سحر ابنه وتسبب فى أن يأكله التمساح) بأجراءات مماثلة أو حتى قريبة من تلك المتبعة فى باريس أو ليون»<sup>(٧)</sup>.

ومثل هذه النظرة تعنى أن إدارة الجنوب يجب أن لا تتخذ شكلاً "متحضرًا" لأن ذلك سيقود الى "مخاطر جدية"<sup>(٨)</sup> المهم، أن الحكومة قد



وجدت وسيلة مجانية للقيام بتحديث الجنوب، تمثلت فى ارساليات التبشير المسيحية. وكان من المؤمل أن يؤدى تأثيرها الى تحديث المنطقة وكسب ثقة سكانها، بعد التخريب الذى أحدثته تجارة الرقيق. ووجد هذا التوجه معارضة من المسلمين المصريين، لكن إدارة الحكم الثنائى أجابت بأن مجال التبشير مفتوح لكل من له الرغبة والوسائل الضرورية لذلك، وهو أمر لا يتوفر عند المسلمين، وعلى أى حال، فقد أدت ظروف الاستقرار واستتباب الأمن، التى صاحبت مجيء الحكم الثنائى، الى تزايد تأثير الاسلام، عن طريق التجار وموظفى الخدمة المدنية المسلمين، بطريقة تماثل طريقة لسلطة وتعريب الشمال فمع أن القبائل النيلية، مثلاً، لم تكن لها أى قابلية للتأثر بالثقافة العربية الاسلامية، إلا أن بعضها، خاصة فى المراكز الحضرية، بدأ يتبنى الاسماء العربية والملابس الشمالية ومظاهر الثقافة العربية الأخرى<sup>(٩)</sup>.

بعد اندلاع ثورة ١٩١٩ المصرية، قام البريطانيون بأضعاف الارتباطات القوية بين مصر والسودان واصبحوا أكثر تشدداً فى سياستهم بفصل تطور كل من الجنوب والشمال، وذلك لعرقلة انتشار التأثير العربى والوطنى فى وادى النيل. وهذا التطور إفتتح مرحلة جديدة فيما أصبح يعرف بـ (السياسة الجنوبية...) وهكذا بدأ تشجيع فرض اللغة الانجليزية كلفة رسمية فى الجنوب، والاهتمام بالعادات والتقاليد المحلية الجنوبية، بهدف استبعاد التأثير الشمالى<sup>(١٠)</sup>. وفى عام ١٩٢٢ صدر قانون الجوازات والاجازات، الذى حدد دخول الاجانب للسودان ودخول الشماليين للجنوب، بطريقة تربطه بمزاج السلطة المخولة<sup>(١١)</sup>. وفى عام ١٩٢٨ قررت الحكومة استشارة علماء الانثروبولوجيا فى كيفية تطبيق كل جوانب السياسة الجنوبية. واستناداً على هذه الاستشارات الفنية، توصلت الحكومة إلى طرق أكثر قوة لاعادة التنظيم. وفى مجال الادارة العدلية، صدر قانون محاكم زعماء القبائل لسنة ١٩٣١ لتأكيد وتنظيم سلطات المؤسسات القبلية. وفى مجال التعليم، فرض تعليم اللغات المحلية فى المدارس الأولية، بجانب اللغة الانجليزية، التى أصبحت لغة التعليم فى المراحل الأعلى. وبعد المرحلة الوسطى اتجهت السلطات إلى إرسال الطلاب الجنوبيين الى يوغندا لإكمال تعليمهم. وفى الوقت نفسه صار يوم الأحد هو يوم العطلة الرسمية، وليس يوم الجمعة، كما هو الحال فى الشمال، ومع أن كبح الحركة الوطنية، النامية فى الشمال، كان هو الهدف الرئيسى للسياسة الجنوبية، فأننا لا يمكن أن ننكر أن البريطانيين قد اعطوا هدف حماية الجنوب الاهتمام الكافى - وفى ذلك يقول السير ستيوارت سايمز: «ان

الذكريات المؤلة للسكان، الذين نجوا أو شوخوا، فى كل مكان، بسبب حركة الاسترقاق، خلقت جواً خانقاً من عدم الثقة فى أى تدخل خارجى، انتهى الان باتساع الاحتكاك مع موظفى حكومة جديدة أكدت أنها عادلة وقوية فى نفس الوقت. فبعد أكثر من ثلاثين عاماً من الصبر، بدأ تغلغل نفوذ الموظفين والآخرين، بما فى ذلك ارساليات التبشير المسيحى، فى جنى ثماره ممثلة فى إعادة توحيد وتكامل الحياة القبلية، والأمن العام والتعامل الودى من قبل الأهالى مع السلطات الحكومية... هذه المجتمعات الجنوبية تسير الآن فى اتجاه إعادة تشكيلها على أساس الانماط التقليدية بتوافق مع قدراتها واحتياجاتها المادية. وذلك هو، بكل بساطة، هدف ماسمى بالسياسة الجنوبية<sup>(١٢)</sup>.

لقد أدى هذا التخطيط الدقيق، والحساسية المفرطة تجاه ردود أفعال الجنوبيين، إلى زيادة ثقة الأهالى فى البريطانيين، الذى يؤكد نجاح استراتيجياتهم للتطوير فى الجنوب. فالبريطانى، من وجهة نظر الجنوبيين المتوحشين، لم يكن مستغلاً امبريالياً، بل "إنسان طيب" وفى ذلك يقول الزعمى قيرويت: (... البريطانيون هم الذين حرروا الناس من استعباد المهديّة .. الدينكا وجدوا فى البريطانيين أناساً طيبين. أنهم لا يعطونك أى شىء ولا يساعدونك لتمضى فى طريقك، لكنهم طيبون.. لا يغشونك ولا يحتالون على أشيائك. البريطانى قد يأكل أشيائك، لكنه يفعل ذلك بدهاء وذكاء وليس بشكل طائش ومكشوف، فالشخص الذى يأخذ ممتلكات الآخرين بطريقة ذكية ومخفية، فانه ليس رديئاً... البريطانى اذا وجد أشيائك وسط ممتلكاته، يخرجها ويرجعها لك. اما جيّرانتا فى الشمال فأنهم يغطّونها وسط ممتلكاتهم ويغشونك...).

وهكذا، بدأ الجنوبيون ينظرون للبريطانيين، ويقتربون منهم بشكل ايجابى ويتقنون فيهم، حتى أصبحوا يتقبلون افكارهم وخططهم. ووقتها بدأ نشاط الارساليات المسيحية، المرتبط بالسياسة الحكومية، يثمر نتائجها الطيبة. ووضح ان سياسة تحديث الجنوب عن طريق الارساليات، كانت أكثر ثورية مما كان متوقعاً. فالطريقة المسيحية فى التثقيف الدينى تختلف، بشكل بارز، عن الطريقة الاسلامية، اذ بينما تقوم الثانية على التكامل مع الثقافات القائمة، فان الأولى تستهدف الحلّول محل النظام القديم. وقد أوضح ولسون كاش Rev. Wilson Cash هذا الاسلوب الراديكالى فى الكلمات التالية:

«عندما نظرت الارساليات المسيحية للسودان كمجال للتبشير، كانت تستهدف نشر رسالة المسيح وسط أناس أدخلوا إلى العصر الحديث عن

طريق مجهودات غربيين. وهى مجهودات تؤكد أنه بدون المسيحية لا يمكن تحقيق تقدم حقيقى... لقد توافقت بداية العمل مع بداية فجر جديد. والتغييرات التى رآها معظم الذين جاءوا الى السودان لم تؤثر، بدرجة كبيرة، فى القبائل الوثنية، ولكن الذين نظروا بعمق فى المستقبل رأوا أن الأوضاع القديمة يجب أن تنتهى وتترك المجال لشروط حياة جديدة»<sup>(١٣)</sup>.

ومع ان اعتناق المسيحية كان يتضمن تغييراً شاملاً فى كل جوانب النظام الاجتماعى، إلا أن المسيحية لم تتابع الدور السياسى للاديان التقليدية، كما فعل الاسلام فى الشمال. ففي الجنوب أصبح الدين شأنًا خاصاً بحياة الفرد الروحية، لا علاقة له بالحياة السياسية.. ومع أن الحكومة كانت تحابى وتدعم المسيحية، إلا أن سياستها تجاه الجماعات التبشيرية، التى كانت تمثل كنائس متعددة، كانت تقوم على «عدم الانحياز الصارم»<sup>(١٤)</sup> ونتيجة لاستبعاد العلاقة بين الدين والسياسة فى المجتمعات التقليدية، وفصل العقيدة الدينية الجديدة عن السياسة الوطنية، تولد وسط الجنوبيين موقف مختلف عن الموقف السائد وسط المسلمين الشماليين. فالمسلم، كما سبق أن رأينا، «الاسلام يمثل بالنسبة له عقيدة ومعاملات فى نفس الوقت، أى دين ودولة لا يمكن فصلهما»<sup>(١٥)</sup>. أما الجنوبي فإنه يرى أن «الدين مسألة ترتبط بضمير الفرد»<sup>(١٦)</sup> المهم أن النتائج البعيدة المدى لاتباع سياسة منفصلة لكل من الجنوب والشمال لم تكن واضحة للبريطانيين، ولكن إمكانية ربط الجنوب، فى النهاية، ببلدان شرق أفريقيا، كان متوقعاً<sup>(١٧)</sup>. فحكام الجنوب، بشكل عام، لم يكونوا مطالبين بحضور إجتماعات الحكام السنوية فى الخرطوم، بل بتنسيق عملهم مع زملائهم فى مستعمرات شرق أفريقيا، وخريجو المدارس الوسطى فى الجنوب كانوا يبعثون لاستكمال تعليمهم فى كلية ماكيريرى ببوغندا، والمستقبل الاقتصادى للجنوب كان ينظر اليه فى التخطيط المشترك لبلدان شرق أفريقيا. ولكن حتى وسط الاداريين البريطانيين، كان هناك من يفكر بشكل مختلف فى مستقبل الجنوب، مشيراً الى صعوبة تعيين الحدود بشكل مرضٍ للجنوب والشمال اذا ما أريد فصلهما، وإن ترك الشمال وحده سيعرضه للاطماع العربية وخاصة المصرية، وأن الدم الافريقى لم يعد ينحصر فى الجنوب بل إمتزج فى عروق كل القبائل الشمالية، أن الجنوب يمتلك الإمكانات الاقتصادية الموجودة فى بوغندا... هؤلاء كانوا يعتقدون أن «الجنوب إذا ظل يحافظ على طابعه الخاص، ويمثل جزءاً من السودان مستقل، فإن ذلك سيساعد على ردم الفجوة المحتومة بين المسلمين وغير المسلمين، الاسيويين والافريقيين والبيض أو السمر والسود فى

أفريقيا المستقبل»<sup>(١٨)</sup> وفي غضون ذلك بقي الجنوب في حالة جمود سياسى واقتصادى، بينما كان الشمال يتطور بشكل مستمر- وفي عام ١٩٣٦، أدت ظروف سياسية، داخلية وخارجية، الى استعادة مصر لموقعها في السودان. وفي وقت وجيز تمكنت الضغوط المصرية وضغوط القوى الداخلية من إجراء تغيير كامل في السياسة الجنوبية. فقد بدأ مؤتمر الخريجين الخطوة الأولى في عام ١٩٤٢ عندما طالب الحكومة بإلغاء القيود المفروضة على التجارة، وعلى حركة السودانيين داخل بلادهم، وتوحيد النظام التعليمى في الجنوب والشمال. وفي عام ١٩٤٤ أقامت الحكومة مجلساً استشارياً في الشمال، كان له تأثير كبير، رغم أنه لم تكن له سلطات تشريعية. وبما أن الجنوب لم يشارك في هذا المجلس، فقد كان وارداً فصله عن الشمال وضمه الى احدى دول شرق أفريقيا أو تحويله الى دولة مستقلة. هذا الوضع يلخصه لنا تقرير مكتب المستعمرات التابع للجمعية الفابية البريطانية في الكلمات التالية:

«إن مشكلة جنوب السودان تمثل أكبر مشكلة انسانية في القطر. فالتعلمون السودانيون ينظرون للجنوب كما تنظر اليهم مصر ... ضياعه يستفز كرامتهم ويثير قلقهم إلى حدود كبيرة، بالإضافة الى آمالهم في اكتشاف ثروات ضخمة في الجنوب تدعم تطلعاتهم لسودان مستقل. والجنوب، تماماً كالشمال بالنسبة لمصر، يمثل أيضاً، مصدر عمل وخدمات رخيصة ... لكل ذلك يصرون على إبقاء الجنوب موحداً مع الشمال العربى، مع أنه ينتمي الى أفريقيا الجنوبية»<sup>(١٩)</sup>، في ضوء التغيرات السريعة الجارية في الشمال، بدأ الجميع يلمسون الظلم الذي أوقعته السياسات الحكومية بالجنوب. وهذا ما يوضحه لنا ترمنجهام، سكرتير جمعية التبشير المسيحى، حيث يقول:

«لقد أكدت سياسة عدم التدخل استحالتها في الواقع العملي، حيث شهدت سنوات الحرب بدايات بقطعة في الجنوب... ازداد احتكاك الجنوبيين في مجالات عديدة بالحضارة الغربية... والذين تلقوا تعليمهم في مدارس الارساليات أصبحوا أكثر وعياً بضعفهم الاقتصادى والثقافى والظروف الصعبة التى يعيشون في إطارها... هذه البقطة أعادت تذكير الحكومة بواجبها الاخلاقى تجاه رعاية وتعزيز رفاهيتهم المادية والروحية وتمكينهم من القيام بدورهم في أفريقيا الحديثة، التى تعد الآن (١٩٤٥) الخطط الخاصة بتطورها ومستقبلها»<sup>(٢٠)</sup>.

وفي عام ١٩٤٦ نظم الحاكم العام مؤتمراً إدارياً بهدف المساعدة في تحديد الخطوات الضرورية لنقل السلطة للسودانيين. ومرة أخرى لم يشارك

الجنوب، مع أن المؤتمر سيقدر في مصيره. وعندما طالب المندوبون الشماليون بتوحيد الشمال والجنوب، سافر مشاركون إلى الجنوب لأجراء استطلاع انطباعي حول الأوضاع هناك، وعادوا بتوصية بوحدة شقى الوطن، والبدء بمشاركة الجنوب فى الجمعية التشريعية، المزمع تكوينها -تحت ضغوط قوية من مصر والقوى الشمالية: قرر السير جيمس روبرتسون، السكرتير الإداري الذى أعقب السير دوقلاس نيوبولد (أحد مهندسي السياسة الجنوبية) فى منصب السكرتير الإداري، سياسة وحدة السودان<sup>(٢١)</sup> فى النهاية، وأشار إلى أن خطط شرق أفريقيا الخاصة بتطوير الاتصالات مع الجنوب غير محددة، وأن «نجاحنا يعتمد، فى اعتقادى، على تركيز نشاطنا فى هدف واحد يتمثل فى تطوير التجارة فى الجنوب وبين الشمال والجنوب». <sup>(٢٢)</sup> ومن هنا، فإن السياسة الجديدة الخاصة بالجنوب ستقوم على «العمل انطلاقاً من حقيقة أن شعب الجنوب شعب أفريقى وزنجى، ولكن عوامل الجغرافيا والاقتصاد، معاً، (على الأقل كما يرى فى الوقت الحالى) تفرض عليه فى مستقبله الارتباط بالسودان الشمالى، الشرق أوسطى والعربى». <sup>(٢٣)</sup> وطلب السكرتير الإداري من الإداريين البريطانيين العاملين فى الجنوب إبداء ملاحظاتهم حول هذه السياسة.. فاعترضوا عليها، بعد أن اكتشفوا أن أهداف الشمال، كما تعكسها وقائع المؤتمر الإداري، تتركز فى وحدة غير مؤهلة، وذلك استناداً إلى أنها من جانب واحد، واقترحوا مؤتمراً إدارياً للجنوب يعقد فى الجنوب نفسه... ووافق السكرتير الإداري على الاقتراح، وهكذا كان مؤتمر جوبا، الذى عقد فى ١٢ يونيو ١٩٤٧. وشمل حضوره حكام المديريات الجنوبية، مدير ديوان شئون الخدمة، ١٧ جنوبياً من زعماء القبائل وموظفى الخدمة المدنية وستة من الشماليين<sup>(٢٤)</sup>. وفى اليوم الأول للمؤتمر طالب الجنوبيون، مع تسليمهم بوحدة السودان، بمجلس استشاري منفصل الجنوب لفترة زمنية كافية لتمكينهم من تكوين جهاز تشريعى على قدم المساواة مع الشماليين. وفى الوقت الراهن أبدوا رغبتهم فى التعامل مع المجلس التشريعي القادم كمراقبين فقط<sup>(٢٥)</sup> وعلى الفور أسرع الاعضاء الشماليون لاقتناع الجنوبيين بالموافقة على الوحدة غير المشروطة والمشاركة فى الجمعية التشريعية، وإن عدم الموافقة على ذلك يعنى خدمة المصالح الاستعمارية. وفى اجتماع اليوم الثانى<sup>(٢٦)</sup> حدث تغيير وسط بعض الجنوبيين، حين ظنوا أن الأمر قد حسم، كما ذكروا، وقرروا الذهاب إلى الخرطوم، ليس فقط كمراقبين وإنما، أيضاً، للمشاركة الكاملة فى الجمعية التشريعية، ولكن الزعماء القبليين ظلوا متمسكين بموقفهم السابق<sup>(٢٧)</sup>.

واتفق كل الجنوبيين والاداريون البريطانيون العاملون في الجنوب علي ابدال فقرات حول حماية الجنوب. وفي النهاية، اوصي المؤتمر بابدال فقرة حول حماية مصالح الجنوب في قانون الجمعية التشريعية والمجلس التنفيذي<sup>(٢٨)</sup>. وبالرغم من عدم موافقة الجنوبيين الظاهرة، إلا أن الحكومة شرعت في العمل على أساس أن وجهة نظر الجنوبيين، المؤيدة لعلاقات وطيدة مع الشمال، كانت هي قرار مؤتمر جوبا. لكن في تأييدهم لعلاقة قوية مع الشمال، كان الجنوبيون، للمفارقة، معتمدين على الحكومة الاستعمارية لحمايتهم من الشماليين، حتى لا يهيمنوا على الجنوب. فعندما سئل رئيس المتدوين الجنوبيين، (ماذا سيكون ضمانكم، اذا اجازت الجمعية التشريعية قانوناً ضد مصالح الجنوب، بالرغم من معارضة الأعضاء الجنوبيين؟...) اجاب بأن... (علي الحكومة حماية الجنوب...) والمفارقة، أيضاً، أن نفس العناصر التي وقفت مع الشمال هم الذين أصبحوا، في وقت لاحق، المدافعين السياسيين عن الجنوب.

في ذلك الوقت كان السودان يقترب من إعلان إستقلاله. قفى نفس السنة، التي شهدت تغيير السياسة الجنوبية، نشرت الحكومة مذكرة، كانت لاتزال تدور حول إمكانية فصل الجنوب، في النهاية، عن الشمال، حيث جاء فيها: «هناك حجج كثيرة للدفاع عن هذا الخيار أو ذاك، انطلاقاً من مصلحة جنوب السودان أو بقية أفريقيا، والمسألة برمتها قد تشكل، في وقت ما، موضوعاً لاهتمام لجنة دولية. وفي الوقت الراهن، فإن الحكومة الحالية... تعتزم ربط الشماليين المتعاطفين مع تطبيق سياسة تهدف الى نح الجنوب نفس فرصة تقرير المصير، تماماً كما وعدنا الشمال»<sup>(٢٩)</sup>.

وفي الفترة الممتدة بين إعلان السياسة الجنوبية الجديدة وتوقيع الاتفاقية المصرية الانجليزية بمنح السودان حق تقرير المصير، شهد الجنوب تطوراً مذهماً. وفي ذلك الوقت كان البريطانيون يظنون أنه لا يزال هناك وقت للتفكير. وفي ذلك يقول مدثر عبدالرحيم: «كانت حكومة السودان، في عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٠، ترى أن أى مطالبة بالحكم الذاتي في المستقبل القريب تعتبر مطالبة، غير ناضجة، وحتى ٢٠ فبراير ١٩٥٢ ظل مكتب المستعمرات يؤكد للسكرتير الادارى: "أنه ليس من سياسة حكومة جلالة الملك أن السودان يجب أن يكون مستعداً لتقرير المصير في عام ١٩٥٣.." ووفقاً لذلك صرح السكرتير الادارى بأنه "يجب علينا العمل لكسب الوقت.." بينما أشار أحد زملائه الى أن "وظيفة البريطانيين في هذا القطر تتمثل في تأخير يوم الحكم الذاتي لأطول فترة ممكنة دون إبعاد أولئك السودانيين الذين لا يمكن أن نستغنى عن



إن السياسة الجنوبية الجديدة بكلمات الحاكم العام البريطاني السابق ... «أن هذه السياسة تمخضت في وقت كان الرجال يفكرون ببعد نظر لفترة تتعدي نصف قرن زمني... صممت لتطوير الجنوب حتي يتمكن من أن يحدد خياره الخاص في وقت كاف» (٣١)، ولكن الأحداث تطورات بأسرع مما كان متوقفاً. فقد افتتحت الجمعية التشريعية الوطنية في ١٥ ديسمبر ١٩٤٨، بمشاركة ممثلين للجنوب. وفي ديسمبر ١٩٥٠، كونت لجنة لتعديل الدستور لدراسة الوضع وتحديد الخطوات اللازمة للوصول للحكم الذاتي، وفي عام ١٩٥٢ أطاح الجيش المصري بالملك فاروق وتولى السلطة، بقيادة اللواء محمد نجيب، الذي عاش في السودان وله علاقات سوادنية قوية -وبعد فترة وجيزة من استلام السلطة، أجرى نجيب مشاورات مع الشماليين حول مبادئ الحكم الذاتي وتقرير المصير، وبدأ مفاوضات مع البريطانيين حول استقلال السودان.. وفي ١٢ فبراير ١٩٥٣ أعلنت الاتفاقية المصرية الانجليزية لتصفية الحكم الثنائي ومنح السودانيي الحكم الذاتي كخطوة في الطريق نحو تقرير المصير -ومع اعلان الاتفاقية ارتفع الوعي السياسي وسط الجنوبيين، وبدأت حركتهم، للدفاع عن حقوق الجنوب، تتخذ شكلاً منظماً، وتمثل أساس هذه الحركة في أن الجنوب لم يشارك في القرارات التي قادت الي تقرير المصير، وأن الوضع الدستوري الذي حدد للسودان المستقل لم يمنح الجنوب الاعتراف المطلوب بهويته، وأنه -في ظل النظام الموحد- سيجد الجنوب نفسه خاضعاً ومُسيطرًا عليه من قبل الشمال، وأن الوحدة مع الشمال ممكنة فقط تحت نظام حكم يحترم التنوع -ومع السير الصعب في اتجاه قيام سودان موحد ومستقل، ظل خوف الجنوبيين من هيمنة الشمال يزداد ويتعمق بتراكم الأحداث اليومية. فموقف الموظفين الشماليين تجاه الجنوبيين، ودعايات الأحزاب الشمالية ضد بعضها من أجل كسب الاصوات الجنوبية والاستراتيجيات الاقصائية التي حاولت الحكومة ان تُكره بها الجنوبيين على الاستسلام، وأهم من كل ذلك، اعلان نتائج سودنة الـ ٨٠٠ وظيفة، التي كان يشغلها البريطانيون، والتي لم يجد فيها الجنوبيون سوى أربع وظائف دنيا فقط. كل هذه التطورات أدت الي إثارة المعارضة الجنوبية وتطورها الي ثورة لتنتشر في كل أنحاء مديرية الاستوائية وتتحول الي انتفاضة عامة، أدت الي قتل عدة مئات من الشماليين. ومحاولات استخدام القوة في مثل هذه الحالة يمكن فقط أن يقود الي اشعال حرب أهلية واسعة. ولذلك اتجهت الحكومة الانتقالية، الحديثة التكوين،

لاستخدام نفوذ الحاكم العام البريطاني، الذي كان رئيساً رمزياً للدولة، ويمثل الحماية البريطانية في نظر الجنوبيين، وقد أدى تدخله الشخصي وتعهده بمعالجة عادلة لمظالم الجنوبيين، جنباً الى جنب مع مجهودات البرلمانين الجنوبيين، الى انتهاء الانتفاضة واستسلام عدد كبير من الجنود وتسليم اسلحتهم للسلطات الحكومية ولكن... (بعض المتمردين والمدنيين... دخلوا الغابة ولم يرجعوا.. ليشرعوا في حرب، كحرب الماو ماو، لكنها طويلة الامد...) (٣٢).

### (ج) فترة الاستقلال وما بعدها:

لقد أيد الجنوب، رغم مظالمه العديدة، استقلال السودان، بشكل مطلق علي أساس وعد من الشماليين باعطاء "الاعتبار الكافي" لمطلب الجنوب بنظام الحكم الفيدرالي. وفي يناير ١٩٥٦ احتفل السودان رسمياً باعلان إستقلاله كدولة موحدة يحكمها دستور مؤقت، وفي سبتمبر ١٩٥٦، تم تكوين لجنة وطنية لإعداد مسودة الدستور الدائم وتقديمها للبرلمان، كجمعية تأسيسية، لإجازتها. وبعد مناقشات استمرت أكثر من عام رفضت اللجنة فكرة النظام الفيدرالي، دون أى اعتبار لموقف الجنوبيين ومطالبهم. ولتأكيد الوحدة الوطنية، من خلال التكامل الثقافي، تم وضع سياسة جديدة للاسلمة والتعريب، هدفها تصفية السياسة البريطانية الانفصالية القديمة في الجنوب. وارتكزت هذه السياسة على أن الجنوب، وقيادته السياسية، هما نتاج النظام الثقافي، الذي فرضه الاستعمار البريطاني، وعملاؤه وسط الارساليات المسيحية، لتقسيم البلاد خدمة لمصالحه الاستعمارية. وبينما يظل تحليل الأسباب السابقة صحيحاً لدرجة كبيرة، إلا أن تقييم تجلياتها لم يحالفه التوفيق -فاللجنة، التي قُامت بالتحقيق في أسباب تمرد ١٩٥٥ في الجنوب، تقول في تقريرها:- (...لقد وجدنا أدلة كافية تؤكد أن المشكلة الحقيقية في الجنوب مشكلة سياسة وليست دينية.. فالمسيحيون والوثنيون والمسلمون الجنوبيون شاركوا جميعهم في الاحداث، وبعض الذين قادوا الدعاية المضادة للشمال كانوا من المسلمين الجنوبيين...) (٣٣).

وفي وقت لاحق تمحورت السياسة الجديدة، تحت ظل الحكم العسكري الأول، حول طرد المبشرين الأجانب من الجنوب، حيث جاء في مذكرة الحكومة في هذا الشأن:-

(لقد أصبح من المؤكد، دون أدنى شك، أن السياسة البريطانية في السودان كانت تتمحور حول فصل الجنوب عن الشمال. ولتحقيق ذلك تمت

تهيئة التركيبة الجنوبية بشكل ملائم. وكانت الارساليات التبشيرية هي الاكثر استعداداً وأفضل من أن يقوم بهذه المهمة. قأطلقت يدها لتمد نفوذها دون رقابة أو منازعة، ولتقوم باستغلال اختلافات اللغة والثقافة والعقائد، وسط القبائل الجنوبية، بشكل فعال لخدمة أغراضها. والواقع أن الحاكم العام قد وجه بتبنى هذه السياسة منذ عام ١٩٢٩، عندما أكد في تقريره السنوي .. "ان الارساليات تمثل خط دفاعنا الأول ضد الاسلام فى السودان..."<sup>(٣٤)</sup> (ولهذا السبب) واصلت المذكرة لتؤكد أن (الواجب الأول للحكومات الوطنية يتمثل فى اتخاذ الاجراءات اللازمة لتسريع التكامل الوطنى وإزالة الحواجز بين اجزاء القطر بهدف تحقيق وحدة وطنية كاملة..)<sup>(٣٥)</sup>، ونتيجة لذلك، أنشئت ادارة للشئون الدينية لتقوم بتنظيم المعاهد الاسلامية والاشراف عليها، بالإضافة الى الدراسات الأكاديمية الاسلامية الأخرى<sup>(٣٦)</sup>. ولأجل تسريع التكامل الوطنى بين أجزاء القطر، قامت الحكومة السودانية، فى عجلة من أمرها، بتوحيد النظام التعليمى فى البلاد على أساس (موجهات جديدة)<sup>(٣٧)</sup>، وكانت الخطوة الأولى قد اتخذت فى عام ١٩٥٧ بتأميم جميع مدارس الارساليات فى الجنوب، بينما سمح للمدارس الخاصة فى الشمال، بما فى ذلك المدارس التابعة للارساليات، بالاستمرار فى نشاطها. وفى فبراير ١٩٦٠ قرر مجلس الوزراء اعتبار يوم الجمعة، بدلاً من يوم الأحد، عطلة رسمية فى كل أنحاء الجنوب. وفى مواجهة هذا الاجراء دخلت كل مدارس الجنوب فى اضراب عن الدراسة، واجهته الادارة الحكومية برد فعل عنيف. ففى قضية (حكومة السودان ضد بولينو دوقالى وآخرين)<sup>(٣٨)</sup>، حكم على القس الجنوبى، بولينو دوقالى، بالسجن لمدة ١٢ عاماً، تحت قانون دفاع السودان لسنة ١٩٥٨، بسبب طباعة وتوزيع منشور ضد قرار حكومة السودان المشار اليه سابقاً، كما حكم على اثنين من طلاب المدارس الثانوية بنفس التهمة بالسجن عشر سنوات لكل منهما<sup>(٣٩)</sup>. وفى محكمة الاستئناف، أورد السيد أبو رنات، قاضى المحكمة، الآتى:

[...أريد أن أشير الى بعض الفقرات التى وردت فى المنشور، الذى قام المتهم الأول، حسب إقراره، بطبعه بماكينه وفى ورق يخص كنيسته. إحدى هذه الفقرات تقول:- (ولكن قرار حكومتنا الأخير يقضى بأن يصبح يوم الأحد، يوم العطلة الدينية، يوم عمل عادى، وأن يصبح يوم الجمعة، يوم عطلة المسلمين، يوم العطلة الاسبوعية الوحيد لكل الناس بمختلف عقائدهم. هذا الإجراء يعنى بوضوح أن نتخلى نحن، المسيحيون، عن عقيدتنا، وأن يفرض

الاسلام علينا بقرارات من النظام القائم...؟) وفقرة أخرى تقول: (منذ الاستقلال... لم نسمع بمثل هذا القرار.. ولأننا نحكم بقوة السلاح، وتكميم الأفواه، علينا أن نعطي ظهورنا للسيد المسيح، علينا أن نتخلى عن ديننا الحبيب، بالقوة..) وفقرة ثالثة تقول: (علينا ان نقاوم، اذن، جميعنا، بأرواحنا وقلوبنا وأجسامنا، بالطرق السلمية... ندعو كل المسيحيين في كل مجالات الحياة، من مساعدي الحكام حتي العامل الذي يقوم بتنظيف الشوارع، للامتناع عن العمل يوم الأحد...) وبقراءة المنشور ككل، لم يساورني أى شك في أن هدفه يتمثل في التحريض على معارضة الحكومة وإشاعة سمعتها. وأحد أهدافه يتمثل في إثارة نزعات الاختلاف والصراع بين المسلمين والمسيحيين.. إن السوادن دولة علمانية وهدف قرار مجلس الوزراء، الصادر في فبراير ١٩٦٠، هو توحيد أيام العمل في القطر ككل. والتفسير الذي وضعه المنشور يعني أن الحكومة تريد أن تفرض الدين الاسلامي ومحاربة الدين المسيحي...<sup>(٤٠)</sup>.

ان شعور الجنوب بأن الحكومة كانت تقوم بحرب دينية ضد المسيحية ولنشر الاسلام، قد تأكد بصدور قانون الجمعيات التبشيرية لسنة ١٩٦٢ لتنظيم نشاط ارساليات التبشير الدينى والخدمى -الفقرة ٣ من القانون تقول:-

(..ليس من حق أى جمعية تبشيرية، أو أى عضو من أعضائها، القيام بأى عمل تبشيري في السودان إلا وفق شروط رخصة يمنحها له مجلس الوزراء -وهذه الرخصة ستكون في شكل محدد يتضمن دين أو طائفة أو عقيدة الجمعية، المنطقة أو الأماكن التي يمكن أن تعمل فيها، بالإضافة الى فرض أى شروط أخرى يرى المجلس ضرورة تحديدها، بشكل عام أو في أى حالة محددة). والفقرة السادسة من القانون تخول مجلس الوزراء حق رفض منح الرخصة أو تجديدها أو سحبها بتوجيه منه -والفقرة السابقة تضع حدوداً مكانية لنشاط الجمعيات وتمنعها من القيام (بأى نشاط تبشيري مع أى شخص أو أشخاص منتمين لأى دين أو طائفة أو عقيدة غير المحددة في الترخيص) وهى، ايضاً، غير مسموح لها (بممارسة أى نشاطات اجتماعية خارج الحدود والطريقة التي تحدد من وقت لآخر باجراءات قانونية) والفقرة الثامنة تشير الى أنه..(ليس من حق أى جمعية تحويل أى شخص يقل عمره عن ثمانية عشر عاماً إلى أى دين، أو يفسح له مجال في نظام ديني، بدون موافقة ولى أمره القانوني.. ومثل هذه الموافقة يجب أن تتم كتابة أمام شخص تعينه سلطات المديرية لهذا الغرض) والفقرة التاسعة تقول أنه (ليس من حق

أى جمعية تبني أى طفل لقيط أو إعالته بدون موافقة سلطات المديرية) أما الفقرة العاشرة فأنها تحدد إجراءات وزارية معينة لتكوين الاندية، أنشاء الجمعيات، النشاطات الاجتماعية الاخرى، جمع المال، أعمال الاغاثة، تملك الاراضى، ونشر وتوزيع المطبوعات<sup>(٤١)</sup>.

وفي مارس ١٩٦٤ قامت حكومة السودان بطرد المبشرين الاجانب من الجنوب. وفى تقريرها لهذه الخطوة، أكدت الحكومة. ..(لقد إتضح الآن، دون أدنى شك، أن المنظمات التبشيرية الاجنبية قد تجاوزت حدود نشاطها التبشيرى المقدس. حيث قامت باستغلال الدين لزرع الكراهية والخوف والحد فى عقول الجنوبيين ضد اشقائهم فى الشمال، وذلك بهدف تشجيع قيام وضعية سياسية منفصلة للمديريات الجنوبية، وبالتالي تعريض وحدة البلاد وسلامتها للخطر)<sup>(٤٢)</sup>.

وفى الوقت الذى كانت تستهدف فيه هذه الاجراءات تحقيق التكامل الثقافى، كخطوة فى طريق تدعيم الوحدة الوطنية، كان تأثيرها العملى يسير فى اتجاه إثارة العداوة والكراهية ضد الشمال وتعميق وتوسيع الانقسام بين شقى البلاد فى الشمال والجنوب. وبذلك تصاعدت المعارضة الجنوبية، داخل القطر وفى البلدان المجاورة والاجنبية، لتؤدى الى تعميق حالة عدم الاستقرار السياسى فى البلاد، التى أدت، بدورها، الى انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ بقيادة الفريق ابراهيم عبود، ومع تزايد سياسات العنف والقمع، التى صاحبت مجيء الحكم العسكرى، أضطرت المعارضة الجنوبية الداخلية الى اللجوء للعمل السرى، واعادة تنظيم نفسها وسط مجموعات اللاجئين، المتزايدة فى البلدان المجاورة، وتكوين جناح عسكرى، عرف باسم الانيانيا، ومواصلة العمل لتحرير الجنوب من الهيمنة الشمالية.

إن حالة الانقسام واتساع الفجوة بين شقى البلاد، التى خلقتها سياسات الأسلمة والتعريب ومنهج العنف والعمل العسكرى لحل مشكلة الجنوب، يلخصها لنا حديث أقرى جادين، (كان وقتها رئيس الحكومة الجنوبية فى المنفى) فى مؤتمر المائدة المستديرة، الذى عقد فى الخرطوم عام ١٩٦٥. فبعد ان يبرز انقسام السودان بين مجموعة "عرقية عربية هجينة" فى الشمال ومجموعة "أفريقية" فى الجنوب، يؤكد أقرى جادين أنه (مع هذا الانقسام الحقيقى، هناك، فى الواقع، سودانان. والأمر الأهم أنه ليس هناك أى أساس لتوحيدهما ليس هناك شيء مشترك يجمع مجموعات المجتمع المختلفة ليس هناك عقيدة مشتركة، ولا مصالح مشتركة أو سمات موحدة، ..وفوق كل ذلك

فقد فشل السودان فى أن يشكل مجتمعاً موحداً. ومطالبة الشماليين بالوحدة مبنية فقط على حدث تاريخى تم بالصدفة وفرض هيمنة سياسة على جنوب السودان والمجتمعان لا يستطيعان النظر الى بعضهما حتى اذا أُجبرا على حالة استيعاب مفروضة بالقوة "كذا" (٤٣).

والواقع أن شعور جادين هذا يشاركه فيه قطاع كبير من الجنوبيين فى الوقت الحالى. فعندما كان مؤتمر المائدة المستديرة يواصل اجتماعاته فى الخرطوم نشرت جريدة The Vigilant، جريدة يومية كانت تصدرها جبهة الجنوب، فى الخرطوم، فى افتتاحيتها مايلى:-

(ان ما يجمع بين الشمال والجنوب لا يكاد يذكر، اذا ما استثنينا النيل العظيم .. والصدفة التي جمعتهم تحت سيطرة قوى استعمارية واحدة .. والجنوبيون يعتقدون ان السودان يمثل دولة متعددة الاعراق ومتعددة القوميات ويجب أن يقوم تطورها على هذا الاساس. ولكن الواقع يؤكد، لسوء الحظ، ان تجربة التعايش المشترك بين العرب والافارقة قد فشلت) (٤٤).

المهم، أن القيادات الجنوبية فى الخارج لم تكن موحدة، يابى شكل من الأشكال. ولذلك ظهرت عدة محاولات لتكوين حكومة فى المنفى، لكنها لم تنجح، بسبب المطامع السياسية والتحالفات المتغيرة وسط هذه القيادات. وفى النهاية تمكن جوزيف لاقو، ضابط تخرج من الكلية العسكرية بالخرطوم، وخدم فى الجيش السودانى، من توحيد الحركة المسلحة الجنوبية. وبعد أن تسلمت القيادة مجموعة من الضباط المقتدرين والمدربين تدريباً جيداً، قاموا بتوحيد المجموعات المقاتلة، ومنع المناورات والخلافات السياسية، وتسليح قواتهم المقاتلة بأحدث الأسلحة وإعادة تنظيمها بشكل أكثر فعالية وملاءمة لأغراض حرب الدغال، وذلك بتمويل من مصادر أجنبية حكومية وغير حكومية. واصبح من الواضح أن المقاومة الجنوبية قد دخلت منعطفاً قوياً وحاسماً، قد لا يمكنها من هزيمة قوات الحكومة ولكنه حولها الى قوة لا يمكن القضاء عليها بسهولة.

وهكذا، كان هذا واقع الحال، الذى ورثته حكومة نميرى، وانتهى بها الى مواجهته بكل واقعية ومسؤولية. فدخلت فى مفاوضات مع حركة تحرير جنوب السودان ووافقت على منح الجنوب حكماً ذاتياً اقليمياً، ونتيجة لكل ذلك، كانت فترة مابعد الاستقلال، بشكل كبير، فترة عنف وصراع مسلح بين الشمال والجنوب. وطوال هذه الفترة تحولت الثقافة العربية الاسلامية، التى كان يأمل الشماليون فى استخدامها كعامل توحيد وتكامل وطنى، الى رمز عنف وقمع فى مواجهة الجنوبيين، الذين قاوموها كجزء من مقاومتهم ونضالهم من أجل

حقوقهم. ومع ذلك، كان الجنوبيون راغبون في تبني الاسلام والعناصر  
الآخري للثقافة الشمالية، في السنوات الأولى للحكم الاستعماري البريطاني،  
عندما ساد علاقات الشمال والجنوب مناخ تفاعل سلمي وطوعي. وفي بعض  
فترات المشاعر الودية الظاهرة، مثل مؤتمر جوبا وعند اعلان الاستقلال، شارك  
الجنوبيون الشماليين في الهوية والانتماء - وهذه الحقائق تشير الى أن التمثل  
الثقافي المتبادل والوحدة الوطنية لم ترفض من حيث المبدأ، وإنما في إطار  
مقاومة الحرمان والتهميش. وهذه النظرة تأكدت، بوضوح، في تجربة علاقة  
الدينكا نقوك Ngok Dinka وعرب المسيرية الحمر في جنوب كردفان، كما  
سنشرح في الفصل القادم.



Robert O. Collins, The Southern Sudan, 1883-1898:-A(١)  
Struggle for Control, op.cit., 14

Sir Samuel Baker, Quoted in W. W. Cash, The Changing(٢)  
Sudan, (London Church Missionary, Society 1930), 12.

(٣) اخبار المهدي، الذي ظهر في شمال السودان وصلت الى أرض الدينكا، وفي بعض  
الاماكن المجهولة المعروفة باسمائها فقط، قام الدينكا بتمثل المهدي (باللغة الدينكاوية مادي)  
روحياً وفكرياً في انبياء القوة.

G. Lienhart, Divinity and Experience, Religion of the Dinka, انظر  
(New York, OUP, 1961), 164.

وبعد ان أورد الترنيمة الخاصة بذلك، لاحظ لينهارت (أن الرجل العجوز الذي انشد  
هذه الترنيمة ذكر في اجابة عن لحدى الاسئلة بأن المادي كان نبياً عظيماً، سمعوا بظهوره  
في الشمال سمعنا أن روح الاله قد ظهرت في الشمال ) ص ١٦٥، للمزيد من المناقشة  
حول هذه النقطة انظر Deng, Tradition and Modernization, 48-49.

(٤) هذه التجارب جعلت الجنوبيين يشكون في أى شخص غريب. فالارسلالات  
التبشيرية الاولى، التي وصلت الجنوب قبل استعادة السودان، وجدت صعوبات كبيرة في  
تقديم نفسها واقتناع السكان بقبول وجودها. وفي ذلك يشير الاسقف قوين Gwynne إلى  
أنه (.. بينما كانت بعض الارسلالات تقوم بتنظيف الأرض ونصب الخيام لتجهيز المعسكر،  
جاءت مجموعة من الاهالي المتطفلين والمتشككين تستطلع مايجري حولها -وبادر رئيس  
المجموعة بالسؤال: لماذا جاءوا الى هنا؟ هل هم رجال الحكومة؟ لا جاءوا يطلبون صداقتكم،  
يعلمونكم لغتهم، ويعطونكم دروساً حول الاله.. ليطورونكم درجة أعلى في سلم الحضارة،  
العرب اعتادوا على اطلاق وعود مماثلة بهدف كسب ثقتكم، وفجأة يخرجون بنادقهم، ذات  
ليلة، ويحاصرون القرى ويقتلون كباركم ويخطفون لبناءكم لاسترقاقهم..)، Cash, op.cit.,  
74.

كما قام الرائد تثيرنفتون Titherington بتلخيص تجربة الدينكا في الكلمات الآتية:  
( ليس هناك أدنى شك في أن النظام الاجتماعي والنظرة الشخصية كانت، كما  
وجدناها مؤخراً، في حالة تدهور نتجت، بشكل مباشر، من الغزوات المتواصلة التي كانوا  
يتعرضون لها من تجار الرقيق الشماليين، ومن تأثيرات نصف قرن من الجرائم التي كان  
يقترفها الاجانب قبل مجيء الحكومة البريطانية الحالية -ويبدو أن عدم استسلامهم  
وانتهائهم، كما فعلت قبائل جنوبية عديدة، كان بفضل عزمهم القوية، التي منعهم، ايضاً،  
من الانحطاط وممارسة بيع أبنائهم وزملائهم لتجار الرقيق..فقدوا مئات الآلاف من الابقار،  
آلاف الرجال والنساء والأطفال نبخوا أو استرقوا أو ماتوا من المجاعة ولكن الذين بقوا  
على قيد الحياة في المستنقعات العميقة، كانوا يهاجمون الغزاة بشجاعة عندما يستطيعون

ذلك، ومعالجة الجروح المتعفنة، واحتقار الغريباء، وكل أساليبهم التي استرلحوا منها الآن فقط..). The Raik Dinka, S. N. R., 10, (1927), 159-160.

(٥) اسماعيل الازهرى، في مخاطبته مؤتمر المائدة المستديرة حول مشكلة جنوب السودان، في مارس ١٩٦٥. وفي نفس الوقت قدم رئيس المندوبين الجنوبيين نظرتة لقضية تجارة الرقيق بطريقة مختلفة، حيث ذكر:

(ماهى الجوانب التاريخية المناسبة، التى يجب على اعضاء هذا المؤتمر أن يضعوها نصب أعينهم في مناقشاتهم؟ إن تاريخ تجارة الرقيق يفرض علينا نفسه مباشرة. وسوف يتهرب بعضنا هنا، بالطبع، كما فعلنا دائماً، من مناقشتها وقتها سنبتعد عن الشجاعة والصرامة فى مناقشة قضايانا، تجارة الرقيق حدثت بالفعل. فى التاريخ، ولاتزال ذكرها حية، وبالتالي لا يمكن نسيانها، خاصة اذا لم يجرى أى تغيير واضح فى موقف أحفاد المسؤولين عن ممارسة تلك التجارة إننا نعيد تذكير المؤتمر بهذا الحدث التاريخي، لأننا نعتقد أن هناك دروساً يجب استخلاصها من استعادة تفاصيله فذلك قد يلهمنا الحكمة لتحاشي المزيد من الخطوات الخاطئة فى الحاضر والمستقبل..ويمكن ان يمثل أساساً للتفاهم، أياً كانت العلاقة المستقبلية التى قد نتفق عليها).

(٦) كتب السير هارولد ماكمايكل يقول:

ان البلاءات التي مارستها الحكومة في مناطق المستقبلات في أعالي النيل، سواء في الحدود الاثيوبية أو قليلاً جهة الغرب، يمكن تسجيلها باختصار فحدوثها في كل الحالات يرجع الى مزيج من عدم الثقة الطبيعي، المرتكز على تجارب الفترات السابقة المريعة، التي كان يشعر بها هؤلاء المتوحشون من لحتكاكهم بأى حكومة في الشمال . ومن حوادث العرّافين والسحرة وحماسة المحاربين الشباب لا دماء انفسهم. The Anglo- Egyptian Sudan p. 101.

(٧) قام لورد كرومر، القنصل البريطاني العام في القاهرة، الذي كان يمثل الحاكم الفعلى لمصر والسودان، بصياغة هذه السياسة على النحو الآتى: (لقد فكرت باهتمام شديد فيما اذا لم يكن من الممكن السماح للمسائل السير على غير هدى، تسوية كل نقطة من المشكلة بوقائعها الموضوعية، كما نتجه نحو الحل-فانما كان علينا التعامل مع الأهالى في جنوب السودان فقط (كذا) فالكثير يمكن أن يقال لمصلحة تبني هذا الاتجاه- اذ أن احتياجات الأهالى تتميز، في الواقع بالبساطة. وكل ماتحتاجه في الوقت الراهن يتمثل في نظام بسيط للضرائب، اشكال بسيطة جداً لادارة المحاكم الجنائية والمدنية، وتعين عدد قليل من الموظفين، المختارين بدقة، مع سلطة تقديرية واسعة نوعاً ما للتعامل مع التفاصيل المحلية). مذكرة لماركينز سالسجورى، في مكى عباس، مرجع سابق، ١٠١. Annual Report. ١٠١ for 1904 (Egypt, No 1, 1905, Ed. 240 g) p.11

Muddathir: The Development of British Policy in the Southern Sudan, Middle East Studies, 2, (3) April 1966, 227-249.

Ibid., (٩)

(١٠) كتب ولسون كاش، الذي أزعجه ذلك «ان الحكومة تمثل مرفقاً عادلاً ومناسباً

للمسلمين والوثنيين، وفي الجوانب الدينية تتبنى موقفاً غير منحاز بشكل صارم، والنشاط التبشيري لا يشكل جزءاً من عمل الحكومة، وإنما يقع عبثه على الارشاليات وحدها، وهي التي تحدد اذا ما كان أولئك الجنوبيون الوثنيون سيتركون للوقوع في قبضة الدين الاسلامي أم يمكن كسبهم للمسيحية. Cash, op. cit., 54.

(١١) في يناير ١٩٣٠، قام السكرتير الاداري بتوجيه من الحاكم العام، بتوضيح السياسة الجديدة في الآتي:-

ان سياسة الحكومة في جنوب السودان تهدف الي بناء مجموعة وحدات قبلية أو عرقية مستقلة بتركيب وتنظيم قائم على المعتقدات والعادات والتقاليد المحلية الى المدى الذي تتطلبه احتياجات العدالة والمساواة وقيام حكومة محترمة .. ان حكومة السودان ستشجع، بقدر الامكان، التجار اليونانيين والسوريين، أكثر من الجلابة (التجار الشماليين .. والساح للمجموعة الاخيرة يجب أن يقرر دون مجاملة، ولكن بشكل تدرجي، وقط لأفضل الجلابة الذين ترتبط مصالحهم، بشكل واضح، بالعمل التجاري ويلتزمون بالطرق التجارية المشروعة، ومن المهم جداً تحديد تجارتهم في المدن أو الطرق المعبدة .. (هـ) يجب بذل الجهد المطلوب لجعل اللغة الانجليزية وسيلة الاتصال الاساسية وسط الناس واستبعاد اللغة العربية كلية No... CS/I C.I. Central Archives Office, Ministry of Interior, Khartoum, Said, op.cit., 30-37. في

تقوم السلطات المفوضة بمنح اذن السماح بالعمل التجاري في الجنوب، بحكم القانون. ولها مطلق الحق في رفض أو تجديد الاذن بعد انتهاء مدته، دون تحديد الاسباب، وفي الحالات المماثلة لها الحق في الغاء أى إذن، دون لخطار، وعلى المستفيد إنهاء اعماله في المنطقة المحددة في الاذن خلال وقت تحدده السلطات المختصة. op. cit., 5.

(١٢) اشار هندرسون إلى بعض اسباب منع الشماليين من وجهة نظر الاداريين البريطانيين حيث يقول:

« الشمالي بالنسبة للاداري البريطاني أما تاجر أو تاجر رقيق. فعشى منتصف العشرينات كان البقارة مستمرين في جمع الرقيق من مناطق جنوب النهر لبييعهم في أسواق الشمال البعيدة، بالإضافة الى صيد الأفيال والزراف ونهب الماشية. وعندما يعلمون في التجارة البسيطة، كانوا، في الغالب، يخدعون أبناء القبائل النيلية البدائية ويفشونهم ويتعاملون معهم بطريقة مزيفة. أما التاجر الجلابي، فقد كان في رأى البريطانيين، شخصاً غير مرغوب فيه في الجنوب، لأنه يشرى على حساب القرويين، ويبيع سلعاً تافهة بأرباح عالية، وينشر الامراض الجنسية. وكان، دائماً، يقوم بالاحتيال على الجنوبيين، والآن يهدد بالمضاربة، تماماً كما كان يفعل الهنود في شرق افريقيا، عن طريق احتكار تجارة القطاعي والزراعة التجارية.»

في تقرير حول ادارة السودان.. App. IV., Para. 1937, pp. 136-37, K. D. D. Henderson.

Cash, op.cit., 45. (١٣)

Trimingham, (1948) op.cit., 47. (١٤)

Mudathir, Grand Kadi (Chief Muslim Justice) of the Sudan, (١٥)

**A Memorandum for the Enactment of a Sudan Constitution Devrised  
from the Principles of Islam, 19, 1956.**

**SANU, Petition to the U. N., op. cit., 10. (١٦)**

(١٧) في عام ١٩٤٤، اشار السير دوقلاس نيوبولد، السكرتير الاداري آنذاك، إلى (التخوف من وجود سياسة سرية لتقسيم السودان إلى دولتين)، أكد أنه (لم يتخذ قرار بهذا الخصوص، وان حكومة السودان ليست مفوضة لاتخاذ مثل هذا القرار، وليس لنا رأي مسبق حول مستقبل جنوب السودان) Henderson, The Sudan, op.cit, p. 165 p. 164.

**Ibid, p. 164 (١٨)**

**Fabian Society, the Sudan: The Road Ahead, London, 1945, (١٩)**  
25.

**Trimingham, op. cit., p. 73. (٢٠)**

**Memorandum on Southern Policy, CS/SCR/ I.C.I., (٢١)**

**Ibid, (٢٢)**

**Ibid, (٢٣)**

(٢٤) يشير الشماليون كثيراً إلى هذا المؤتمر باعتباره المناسبة التي قرر فيها الجنوبيون الوقوف مع وحدة السودان الكاملة، ولكن ذلك أمر مختلف عليه.

**Basic Facts About the Southern Provinces, op. cit, p. 18: انظر ايضاً:**

ونفس النقطة أكدها متحدثون جنوبيون في مؤتمر المائدة المستديرة عام ١٩٦٥ -حول وجهة نظر الجنوبيين انظر، Deng and Oduho, The Problem of the Southern Sudan, Oliver Albino, The Sudan: A Southern Viewpoint, London, Oxford Univ. Press, 1970, pp. 25-28.

(٢٥) وجهة النظر هذه أكدها كل زعماء القبائل تقريباً، وظلوا متمسكين بها حتى عندما

تراجع عدد كبير من موظفي الحكومة عن موقفهم الاول. فالزعيم كبير رihan Cier Rihan أكد أن (الناس في مجالس التونج وقوقريال لا اعتراض لديهم للعيش كأخوان مع الشماليين، ولكنهم قبل ذلك يريدون تدريب وتأهيل أنفسهم..) والزعيم لابانيا Lappanya أشار إلى أن.. (مبدأ الوحدة يمكن تقريره فقط بعد فترة يتمكن الجنوبيون خلالها من تأهيل انفسهم بشكل يساعدهم على اتخاذ قرار الارتباط بالشمال أو الكتفو البلجيكي، أو يوغندا..) واتخذ الموظفون الجنوبيون والبريطانيون موقفاً مماثلاً لموقف زعماء القبائل، وأكد جيمس طمبرة، في حديثه، ان التعليم لم يتطور في الجنوب بدرجة تسمح له بتمثيل كامل كالشمال.

(٢٦) في افتتاح المؤتمر، في اليوم التالي (استنكر) الرئيس (الشكوك المتبادلة بين الجنوبيين والشماليين) فالشماليون يهتمون الجنوبيين بالعمل على فصل الجنوب، والجنوبيون يهتمون الشماليين بالرغبة في الهيمنة على الجنوب. ولذلك حث رئيس المؤتمر الاعضاء على طرح هذه الشكوك والاتهامات المتبادلة بعيداً لتسهيل المناقشة الموضوعية وتبادل الآراء.

(٢٧) ذكر الزعيم تيت Tete أنه يريد أن يدرس في الجنوب حتى يؤهل نفسه قبل الذهاب للشمال، لأن الشخص لا يمكن أن يبدأ عملاً دون معرفة ودارية كافية، وأكد كبير ربهان ولوليك أنهما تحدثا مع أهلها في اليوم السابق وأنهم لم يغيروا موقفهم.

(٢٨) المسودة الأولى للقانون منحت الحاكم العام سلطة تعليق تطبيق أى قانون في الجنوب أو تحديد شروط معينة لتطبيقه. ولكن هذه الفقرة ألغيت لأن الحاكم العام منح سلطة الاعتراض على قرارات الجمعية، وكان يعتقد أن ذلك يلبي حاجة الجنوبيين للحماية ضد نزعة الهيمنة الشمالية.

The Sudan: A Record of Progress (1987). (٢٩)

Muddathir Abdel-Rahim, Imperialism and Nationalism in the (٣٠)

Sudan, p.181.

(٣١) في رسالة خاصة للمؤلف، لجنة التحقيق في حوادث ١٩٥٥ أشارت في تقريرها إلى أنه (في عام ١٩٤٧ لم يكن هناك من يتصور التطورات السياسية التي ستحدث في السودان عام ١٩٥٥).

K. D. D. Henderson, The Sudan, op.cit,p. 177. (٣٢)

Report of the Commission of Enquiry, op. cit., 6. (٣٣)

The Republic of Sudan, Expulsion of Foreign Missionaries (٣٤)

and Priests from the Southern Sudan, 1964,p. 3.

Ibid.,p. 5. (٣٥)

(٣٦) وفي محاولة لدفع السودانيين لدعم الحكومة في جهودها لنشر الاسلام في الجنوب، كتبت الرأي العام، الصحيفة اليومية في ٨ أبريل ١٩٦٠، تقول: (لاشك أن كثيرين في هذا القطر يعلمون كم يحتاج الاسلام في الجنوب الى جهود شعبية لدعم الحكومة. فالسلطات الادارية ورجال التربية ومصلحة الشئون الدينية لاتزال تبذل جهوداً جبارة في هذا المجال، ولكن ذلك وحده لا يكفي).

أما جريدة أنباء السودان الاسبوعية، فقد كتبت، في ٩ مارس من نفس العام، تقول: (لقد ظلت المسيحية تنتشر في جنوب السودان علي الرغم من الاجراءات التي اتخذتها الحكومة في هذا الشأن...ومن حق الحكومة ان تدعو منظمات الدعوة الاسلامية من الهند وباكستان والبلدان الاسلامية الأخرى للعمل في نشر الاسلام في الجنوب).

(٣٧) جاء في The Sudan Almanac، لسنة ١٩٦٣، في صفحة ١٤٩، مايلي: (ان

الحكومة تعمل على توحيد النظام التعليمي في عموم القطر، وأى تمييز بين المديرية الشمالية والجنوبية، قد يظهر ادناه، هو للشرح وسهولة الرجوع اليه فقط).

S. L. J. R. (1962)p. 83. (٣٨)

(٣٩) هذه العقوبات خفضت عند الاستئناف الى خمس وثلاث سنوات علي التوالي.

P. NO (٤٠)

(٤١) اشارت الحكومة الى الاسباب التي دفعتها الى اصدار القانون ولخصتها في

الآتي:

من الواضح أن منظمات التبشير قد وجهت معظم جهودها، الداخلية والخارجية، ضد الحكومات الوطنية، كان هدفها الرئيسى يتمثل فى اضعاف الحكومة وتمزيق الوحدة الوطنية. لذلك اصبح من الضروري اصدار قانون لتنظيم نشاط الجمعيات التبشيرية. Expulsion of the Missionaries, p. 17

(٤٢) فى مقالها الافتتاحى كتبت America فى مايو ١٩٦٤، تحت عنوان (حقوق الانسان فى السودان)، تقول:- (افادتنا وزارة الخارجية... ان السودان قطر كبير يعانى من مشكلة وحدة وطنية، فسكان المديرية الشمالية الست "مسلمون يتكلمون اللغة العربية، بشكل رئيسى ومتميزون ثقافياً عن سكان المديرية الجنوبية الثلاث" ومنذ استقلاله، فى مطلع عام ١٩٥٦، ظلت الحكومة العربية فى الخرطوم تبذل جهوداً كبيرة لتعزيز الوحدة "والتكامل الثقافى والاقتصادى بين سكان الجنوب والشمال". وترى وزارة الخارجية أن التكامل الثقافى والاقتصادى بين الجنوب والشمال فى السودان يمثل قضية سياسية فى المقام الأول. وبالنسبة لسودانيين كثيرين، يمثل الحل، الذى تحاول أن تفرضه الحكومة، عامل تمزيق داخل شخصية الفرد السودانى... اكثر عامل من تكامل اقتصادى. فاذا تدخلت المسيحية فى الجنوب فى مسألة التكامل الاقتصادى والثقافى...فان ذلك يعنى، فى الواقع العملى، افساد الانسان ودينه.

(٤٣) حديث اقري جادين فى مؤتمر المائدة المستديرة، ٤.

(٤٤) الافتتاحية، عدد ٢٣ مارس ١٩٦٥.

## الفصل الرابع

### علاقات الدينكانقوك والمسيرية الحمر،

#### تجربة في التوافق وصراع المصالح

مع تحول مشكلة علاقات الشمال/الجنوب الى حرب أهلية، وتفاقمها خلال سنوات مابعد الاستقلال، تطورت، بشكل معاكس، أوضاع الدينكانقوك، الذين يمثلون صورة مصغرة لمشكلة الشمال/الجنوب، مع بعض الاختلافات الهامة. وأوضاع دينكانقوك تكشف لنا جوانب الشبه والاختلاف مع العمليات والاتجاهات التاريخية التي وصفناها في الفصلين الأول والثاني من هذا الكتاب. فالتعريب في الشمال تم من خلال عملية منسجمة، ولكن في الجنوب ظهرت المقاومة، كجزء من الصراع حول السلطة. أما وسط نقوك، فقد حدثت العمليتان معاً، حيث خضعوا لقدر من التعريب وعاشوا في وحدة وانسجام مع العرب، نتيجة للتفاعل والتآخي العربي الافريقي. ومع تطور الصراع حول السلطة بين الشمال والجنوب، وامتداده الى داخل المنطقة، بدأ نقوك في ربط هويتهم وانتمائهم مع الجنوب، بينما ربط جيرانهم المسيرية الحمر أنفسهم ببقية الشمال.

ان دينكانقوك يعيشون في مديرية كردفان، «الآن جنوب كردفان» احدى المديريات الشمالية الست، بينما يعيش الدينكانقوك، بشكل رئيسي، في المديريات الجنوبية. وجيرانهم المباشرون في الشمال هم عرب المسيرية (البقارة) الحمر، الذين عاشوا وتفاعلوا معهم لمئات السنين، قبل الحكم الاستعماري البريطاني. والعلاقة بين نقوك والحمر يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل مقارنة بمراحل العلاقات الشمالية-الجنوبية. ففي المرحلة الأولى، وهي فترة ما قبل الحكم الاستعماري البريطاني، تميزت العلاقة باستقلال الطرفين والعلاقات الدبلوماسية الودية، بالرغم من استمرار تجارة الرقيق. وفي المرحلة الثانية، وهي فترة الحكم البريطاني، توقفت تجارة الرقيق واتسعت العلاقات السلمية، وخضع الطرفان لسلطة مجلس واحد، تحت إشراف البريطانيين، الذين خففوا من تخوف نقوك من هيمنة الأغلبية العربية. أما المرحلة الثالثة، وهي مرحلة

مابعد الاستقلال، فقد تميزت بجلول السودانيين الشماليين محل الموظفين البريطانيين، وضعف دور الحكومة فى التوسط والتسويات، وتزايد التوجهات المركزية واتساع دائرة الصراع حول السلطة. لمرحل كانت العلاقات بين مراكز القوى فى الجانبين هي التي تحدد نوعية علاقات دينكا نقوك والحر.

(أ) مرحلة ما قبل الحكم البريطانى:-

منذ عام ١٧٤٥م ظل الانقوك والحر يعيشون فى المناطق التي يحتلونها اليوم<sup>(١)</sup>، وخلال فترة الحكم التركى المصرى كان الطرفان تحت ادارة واحدة هي مديرية كردفان. وبما أن الادارة التركية المصرية لم تكن مسيطرة سيطرة كاملة على المجموعات القبلية، فقد ظلت القبيلتان تحتفظان باستقلالهما السياسى الذاتى فى اطار المديرية المشتركة، وكانت علاقاتهما تتميز بالصدقة الودية، وبشكل ثابت، طوال تلك الفترة. وفى هذا الخصوص، نتحدث السجلات التاريخية عن زعماء نقوك كمستعربين، وتطلق عليها ألقاباً عربية مثل مك وسلطان وناظر، كإعكاس لعملية تمازج ثقافى معقد كان لها تأثيرها على الطرفين. فالبقارة رغم انهم يعتبرون من القبائل الشمالية الأوضح عروبة، فهم، أيضاً، أكثر سواداً وأكثر أفريقية فى تعبيراتهم الثقافية مثل الموسيقى والرقص، وأكثر ليبرالية فى نظرتهم للمرأة، ومرتبون بالابقار أكثر من الابل، ويلبسون ملابس خفيفة (المرأة غير المتزوجة تلبس ملابس تستر خاصرتها فقط)، ومع انهم متعصبون قان اسلامهم تشوبه مظاهر وثنية عديدة. وكل ذلك لابد من ربطه بتأثير الدينكا، نتيجة للعلاقات القوية بين الطرفين. وهذا التأثير الثقافى المتبادل، يصفه د. مدثر عبد الرحيم بشكل بليغ، رغم أنه يركز على العرب المهاجرين وأجدادهم المحليين، بعيداً عن جيرانهم، حيث يقول:-

«ان مدى تأقلم المهاجرين مع بيئتهم، وتعريب السكان المحليين، أو اذا نظرنا الى الموضوع من الزاوية الأخرى، تأفرق المهاجرين، يمكن توضيحه، كأفضل ما يكون، بالنظر الى عرب البقارة، بلونهم الاسود الابنوس، الذين تركوا الابل وارتبطوا بالابقار، يركبون على ظهورها ويعاملونها كأنها أبل، وذلك تأقلاً مع الظروف المادية فى كردفان ودار فور، الطينية التربة والكثيرة الامطار»<sup>(٢)</sup>.

ويشير د. د. هندرسون، أيضاً، الى ملاحظات مشابهة، حول تأثير الدينكا فى عرب البقارة:

«اكتسبوا الابقار الزنجبية والدما الزنجبية، ولغة محلية متميزة، وحرية طويلة متميزة بمدة تشبه ورقة النبات، وجبة دراوش بكم طويل تميزهم عن



الجلابة والأبالة (رعاة الابل). نساؤهم الأكثر حرية في العالم الاسلامى. وفى مناطق الرعى، البنات غير المتزوجات ويرحن أرجلهن وينطلقن دون أى ملابس سوى قطعة قماش حول الرجلين فوق رحط من السيور الجلدية ليقتفن فى الارض على ظهورهن أو بطونهن... وهم راقصون ممتازون، يضررون الطبول طوال الليل، وفى بعض الأحيان طوال النهار، لأكثر من ثمان وأربعين ساعة أو أكثر من ذلك» (٣).

علينا، بالطبع، ان لا ننسى درجة التأثير الثقافى المتبادل بين البقارة والدينكا، لأن تبنى الدينكا للتأثيرات الثقافية، كما سبق أن أوضحنا، له شروطه وينتج عنه، فى الغالب، تمثّل بعض العناصر الثقافية الاجنبية، بطريقة تصعب معها متابعة جذورها. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن البقارة أو جذورهم الافريقية المحلية. وبقاء الدينكا نقوك مرتبطون بثقافتهم، تماماً كمجموعة الدينكا الرئيسية فى الجنوب، رغم علاقاتهم القوية مع الشماليين، هو، فى الأساس، مؤشر للقيود والشروط التى تحكم تبنيهم لتأثيرات الثقافة المتبادلة. وعلينا، أيضاً عدم تضخيم الاحترام المتبادل بين البقارة والعرب. فالبقارة، للمفارقة، من المجموعات الأكثر اعتزازاً بهويتها العربية، والاسرع إشارة الى اصهارهم، الأكثر زنجية فى الجنوب البعيد كـ "عبيد". وهذا قد يكون نتيجة لعدم الثقة فى الشماليين الأقل غروية أو للحقيقة الاجتماعية التى تقول أنه "كلما قويت العلاقة كلما عظم خطر الخصومة والسيطرة على الانتقام المدمر" (٤). فرغم ان الدينكا نقوك ينظرون للبقارة باعتبارهم أقرب اليهم من الشماليين الآخرين، إلا أنهم يزدرون ثقافتهم بشكل أكثر من ازدرائهم للثقافات العربية الشمالية الأخرى. وبالرغم من كل ذلك، فإن التأثير الثقافى المتبادل لا يزال مستمراً حتى اليوم بين البقارة ونقوك، وفى بعض الاحيان قد ينتج ظاهرة ثقافية متميزة، لا يمكن ربطها بالعرب أو الدينكا، رغم أنها تحمل عناصر من ثقافة الطرفين. فمن العادة، مثلاً، ان يستخدم نقوك والبقارة، فى اتصالاتهم اليومية، كلمات يعتبرها كل طرف من لغة الطرف الآخر، ولكنها غريبة علي اللغتين، مثل كلمة شرشور Churchur، التى تعنى المطر، وكلمة رونقو Rongo، التى تعنى الشمس. وأى فرد من نقوك لا يتحدث العربية يمكنه أن يفهم جملة مثل "شرشور بيجى" أى أن المطر قد جاء... وكلمة "بيجى" مشتقة من الكلمة العربية "يجى".

يتحدث كثيرون من نقوك عربية البقارة بطلاقة، تماماً كما يتحدث الكثيرون من البقارة لغة الدينكا. ولكن أى فرد من نقوك لا يتحدث العربية وأى بقارى لا

يتحدث لغة الدينكا، يمكنهما ادارة محادثة كرويل Creole عربية-دينكاوية، لها تركيبها ومنطقها الخاص.

ولكن الملح، الأكثر وضوحاً، فى التبادل الثقافى السلمى، بين نقوك والحمير، يتمثل فى توافقهم وتعايشهم السياسى خلال العداوات العربية الافريقية المدمرة فى فترة ما قبل الحكم البريطانى. فالبرغم من أن مجموعات من الحمير كانت تتحالف مع الجلاية، التجار الشماليين، وتقوم بحملات استرقاق وسط الانقوك، إلا أن روابط التوافق والانسجام كانت تسيطر على معظم تاريخ علاقات الطرفين. وكان زعيم الانقوك يقوم بتحرير مجموعات الرقيق، من الدينكا والقبائل الجنوبية الأخرى، عن طريق علاقاته الودية مع عرب البقارة الحمير. أما زعيم الحمير، فقد كان يعكس روابط الود والصدقة فى منع أبناء قبيلته من القيام بحملات استرقاق وسط الانقوك، وفى اعادة المسترقين من الانقوك أو غيرهم. ففى أبينى، المركز الادارى للأنقوك، هناك منطقة تعرف بـ(متروك)، تعنى زريبة الحبس، كان يحفظ فيها الرقيق لحين تحريرهم. فالذين يعرفون أهلهم ويودون العودة، كانوا يجدون المساعدة اللازمة، والذين يريدون البقاء تحت حماية زعيم الانقوك، كانوا يجدون الحماية المطلوبة. وفى بعض الاحيان، كانت هناك تحالفات عسكرية بين الانقوك والحمير فى مواجهة القبائل الشمالية الأخرى، وبما أن أرض الحمير تعاني من نقص المياه، خلال مايقارب نصف السنة، فقد سمح لهم نقوك بالرعى فى مراعى منطقة "براليل".

وفى بدايات حركة الثورة المهدية، سافر أروب، زعيم الانقوك، ليعلن تأييده أمام قائدها. وكان معجباً بشخصية المهدي، ولكن عندما طلب منه المساهمة برجاله فى الحرب المقدسة اعتذربأن موسم الجفاف لايساعد على سفرهم للشمال ووعد بإرسالهم فى موسم الخريف، إلا أنه لم يكن جاداً فى وعده، ومع ذلك سمح له المهدي بالعودة إلى أهله. وعندما سمع الخليفة عبدالله بذلك أرسل جنوده لملاحقته. وحسب رواية الاسطورة الدينكاوية، أن أروب نفسه كان رجلاً صالحاً تحرسه ارواح أسلافه، الذين أطلقوا رياحاً عاتية حجبت عن جنود الخليفة ومنعتهم من السير الى الأمام، ووفرت له الحماية والأمان حتى وصوله. وهكذا بدأ نقوك بتأييد الثورة المهدية، وعبروا عن ذلك بالترنيمة التى أوردناها فى صفحات سابقة، ولكنهم تراجعوا عندما لمسوا توجه النظام المهدوى لفرض هيمنة خارجية عليهم. والتعاون المبكر بين الدينكا والمهدي، ودور زعيم نقوك كوسيط بين الشماليين والدينكا، ثم تراجعهم وخيبة أملهم

فى المهديّة، كل ذلك وضعه الزعيم قيروديث فى المقابلة، التى أشرنا إليها سابقاً،  
فى الكلمات الآتية:-

... كثيرون من الدينكا لم يكن يعلمون ما كان يجرى ... لم نكن نعلم أى  
شئ... الانقوك فقط هم الذين عرفوا العرب. ومن جانبنا، هنا، لم نكن نعرف  
العرب. الاتراك، أيضاً، فاجأونا ... لم يكونوا مستعدين للتوقف والسؤال عن  
الزعماء ... لم يكونوا مهتمين بهم. أين كان سيجد الزعماء قوتهم؟ لم تكن  
عندهم قوة ... وحتى حقيقة أنه لا يزال هناك دينكا موجودون حتى اليوم... الناس  
موجودون هنا بسبب جهود اسرتكم جدك الأكبر وجدك، هم الذين انقذوا الناس،  
المهدى جاء لتحرير الناس من سيطرة الاتراك ... هذا ما سمعناه من الشمال  
... الكلمات أعلمتنا أن المهدى حرر الناس. لذلك، أعددتنا مساهمتنا من الماشية  
والاغنام وأرسلناها للمهدى عن طريق جدك الأكبر. وأرسلها للمهدى. والذي كان  
هنا يجمع الماشية من القبيلة ويرسلها إلى جدك الأكبر... يور مايسر Yor  
Mayar، من جانبه، وأقوك Aguok أرسلوا مساهمتهم لجدك ... ماوين اريك  
Mawin Ariik جاء من منطقة لوك Lauc ... أكول اروب Akol Arob  
من كونغور Konggor، كل هؤلاء تجمعوا والتقوا بجدك الأكبر ... المهدى بدأ  
مُحرراً، لكن حكمه كان حكم تمع واضطهاد ... هدفه استعباد الناس...

والمهم، أن مقاومة الدينكا لحكم المهديّة لم يتضمن أى مشاعر معادية  
للشمال والعرب ... بالعكس، فعندما امتنع الزعيم اروب عن مساعدة الثورة  
المهديّة بجنود من نقوك، وجد تشجيعاً ودعماً لموقفه من الكلابنة، زعماء عموم  
الحمير فى ذلك الوقت، وكان قد منحهم مأوى فى دار نقوك بعيداً عن قوات  
المهديّة<sup>(٥)</sup> وفى الجانب الآخر، كان على الجُلّة، أحد كبار رجال الحمير، قد انضم  
للمهديّة واصبح فى درجة ملازم للخليفة عبدالله. وهكذا، تمكن نقوك من  
الاصطفاف مع بعض القبائل الشماليّة فى مواجهة القبائل الأخرى، وبذلك لم  
يكن موضوع المواجهة بينهم وبين الشماليين، عموماً، موضوعاً رئيسياً فى  
علاقاتهم.

(ب) فترة الحكم الثنائى:-

بعد وفاة الزعيم اروب، فى عام ١٩٠٥، خلفه ابنه كول Kwol، الذى  
ارتبط عهده بالمرحلة الثانية فى علاقات الحمير-نقوك. ومنذ البداية، تحرك كول  
إلى الأبيض، مركز مديرية كردفان، وأكد هناك ولائه للإدارة الثنائية  
الانجليزية المصرية. وفى تحركه هذا، اتخذ الطريق الأطول، عن طريق ارض  
النوير، لأنه كانت لديه معلومات مؤكدة بأن بقايا قوات المهديّة قد تعترضه.

وعند وصوله الى الأبيض أشار الى محاولات على الجلة ورجاله واستمرارهم في ارهاب ابناء قبيلته. وحسب الرواية الدينكاوية، أن على الجلة قد أستدعى من قبل السلطات الحكومية وزجر بقسوة. ونتيجة لذلك تمت المصالحة بين الرجلين. واعترف البريطانيون بالمهدويين كقيادات يمكن عن طريقها فرض نفوذهم على القبائل المحلية، خاصة في مناطق الغرب، أدى الى تعيين على الجلة ناظرًا للمسيرية الحمر، وبالتالي إنتزاع السلطة من أولاد كامل، الكلابنة، الذين قدموا زعماء بارزين في الفترة السابقة. ومع أن أروب ظل مستمرًا في علاقته القوية مع أولاد كامل، إلا أنه قام ببناء علاقات جيدة مع نمر بن على الجلة. أنقوك يعتقدون أن أروب كان زعيمًا للدينكا والحمر معًا، استنادًا الى أن أحد فروع الحمر، الذين قدم لهم الأمان والمأوى في وقت سابق، ظلوا يؤكدون ولاءهم له نتيجة لنزاعهم مع زعيمهم حول الزعامة. وجاء حفيد أروب، الزعيم دينق ماجوك Deng Majok، ليلعب، في الفترة اللاحقة، دوراً رئيسياً في المصالحة مع بابو نمر، الزعيم البارز الآن وسط قبيلته. وهكذا، استمر كول بن أروب، وابنه، دينق ماجوك، في تقدير وتأكيد علاقات الود والصداقة التي جمعت بين زعماء القبيلتين، حيث إستمر الحمر في رعى ماشيتهم في أراضي نقوك، بل أن مناطق رعيهم قد وسعت إلى درجة مكنتهم من التحرك بحرية في أرض نقوك، ومنح زعيم الحمر اراضى في منطقة لو Leu الجيدة، لتأسيس مركز أدارى يقود منه نشاطه في موسم الجفاف. ومن جانب آخر، تزوج بابو نمر ابنة أخت السيد عبدالرحمن<sup>(٦)</sup>، بهدف تقوية علاقاته مع أسرة المهدي. وأدى هذا الزواج، بدوره، إلى ربط زعيم نقوك بأسرة المهدي، ودفعه للارتباط بحزب الامة في وقت لاحق<sup>(٧)</sup>. والواقع ان الانقوك ظلوا، في حالات كثيرة، يربطون انفسهم وانتماءهم بالشمال. فعندما حاول البريطانيون تنظيمهم تحت ادارة مديرية بحر الغزال واستعانتهم لبقية الدينكا في الجنوب. رفض كول أروب ذلك بشدة. وفي ذلك يقول الزعيم قيرونيث، الذي عاش تلك الفترة، مايلي:-

قد تحدثنا ...أحضرت الحكومة جدك ...جدك، كول العظيم، ابن أروب، وقالت له:- كول، انت تشبه العرب، ولكنك من الدينكا. أريدك ان تتوحد مع بقية الدينكا، ويصبح مركز قوتريال.. " وجدك رفض بشدة."

وأروب، بالطبع، لم يكن غير دبلوماسي في علاقاته مع أشقائه زعماء الدينكا الآخرين. فبعد أن رفض ضم قبيلته للجنوب، أنفرد كول مع قيرونيث، حسب رواية الأخير، ودار بينهما مايلي:-

...ذهبنا وجلسنا بعيداً، ثم قال لى:- "يا ابن أبى، ماذا تقول لى، ليس هناك ما لا اعرفه ... اذا قدر لى أن ابتعد عن العرب، فأنهم سيحطمون كل أشيائنا ... اذا اعطيتهم ظهري سيفسدون أشيائنا. لذلك أرجوكم أن تتركنى ... واذا ازداد اهلى فى يوم ما، ويعلمون الطريقة التى تجرى بها الأمور، ويعلمون أنهم منكم، شعب واحد معكم، سيأتون اليكم ... لا أحد ينسى مكان انتمائه واهله ... سأتى اليكم، لكن، اذا قدر لى أن آتيكم واربط بواو، عاصمة بحر الغزال، سيدمر العرب أشيائنا ... حتى هذه الارض قد يقولون انها "أرضهم"

ان هذه النظرة والتقييم لها جذورها فى التاريخ الذي نشرنا الى بعض جوانبه فى صفحات سابقة، ولكن يجب فهم حديث "كول" كتفهم عميق لأهمية المصالحة وتوافق المصالح فى مواجهة صراعات المصالح، منذ ان قام البريطانيون باستعادة الأمن والنظام العام وتأكيد حماية كل الناس. فالصداقة بين نقوك والحمير أصبحت حقيقة ماثلة للإدارة الحكومية وللجنوبيين والشماليين، على السواء. وبالفعل، فرغم أن معظم الإداريين البريطانيين كانوا يفضلون ربط المنطقة بالجنوب، فقد كان بعضهم يري أهمية إستراتيجية لنقوك فى العلاقات العربية الافريقية الأوسع. وفي ذلك يقول هينريسون، الذى عمل مفتشاً لمركز المنطقة، وفى وقت لاحق صار حاكماً لمديرية دارفور، مشيراً الى الدور الذى يمكن أن يلعبه السودان كجسر بين العرب والافارقة، يقول...

...ان نقوك، فى بحر العرب، قد ارتبطوا بمديرية كردفان فى بداية الحكم الثنائي، ولعبوا، على الوجه الأكمل، دور الوسيط بين البقارة والحمير ودينكا بحر الغزال....(٨).

ومن المهم أن نشير هنا الى أن نقوك والحمير كانوا يقفون ككتلة موحدة، فى كل الاجتماعات القبلية التى كانت تعقد سنوياً بين المديريات المتجاورة، فى مواجهة القبائل الجنوبية الأخرى، بما فى ذلك أبناء جلدتهم... قبيلة الدينكا. وفي عام ١٩٥١ عاودت الحكومة محاولة ربط المنطقة بالجنوب، وخيرت نقوك بين الانضمام لبحر الغزال أو أعالي النيل، واستند البريطانيون، فى ذلك، إلى اختلاف نقوك العرقى والثقافى عن غالبية المجموعات التى كانوا يشاركونها فى التبعية لمركز واحد ومديرية واحدة. لذلك اعتبر أن من الأفضل الارتباط بأبناء جلدتهم فى الجنوب. وبعد تجربتهم الطويلة تحت إدارة مديرية كردفان، فإن القرار لم يكن بالبساطة التى توقعها الإداريون البريطانيون. فالقبيلة لم تشعر بهيمنة تحت ظل النظام الذى كان سائداً طوال الفترة السابقة. وفك

الارتباط، فى الكثير من جوانبه، قد يؤدى الى مخاطر عديدة محسوبة وغير محسوبة. وهى مخاطر شخصية وجماعية، من وجهة نظر الزعيم دينق ماجوك. فمن الناحية الشخصية، كان يعلم أن زعيم نقوك يتمتع بامتيازات كبيرة مقارنة بزعماء الدينكا الآخرين، لأنه كان يعامل، من عدة جوانب، كزعيم شمالي. فمرتبته كان يفوق كثيراً مرتب زملائه الجنوبيين، وكان يجد احتراماً وتقديراً أكثر من السلطات الحكومية، وكانت له سلطات أوسع وأكثر استقلالاً فى إدارة قبيلته. وبكلمات بسيطة، كان يحتل موقعاً أعلى من مواقع زملائه، الأمر الذي كان يعتبره امتيازاً للقبيلة بشكل عام. ومع ذلك، فانتنا لا يمكن أن نتجاهل نظرة نقوك الدونية لأقربائهم الجنوبيين. وبالإضافة الى كل ذلك، كان هناك رأى عام واسع يعتقد أن البريطانيين يخططون لفصل الجنوب عن الشمال بهدف الأبقاء على الإدارة الاستعمارية فى الجنوب بعد استقلال الشمال. ومع وصول تأثيرات ذلك الى أوساط المتعلمين من أبناء القبيلة، قام بعضهم بدفع الزعيم دينق ماجوك فى اتجاه ابقاء نقوك فى الشمال، بهدف إفشال مناورات البريطانيين وضمان إستقلال الجنوب، فى نفس الوقت. وكانوا يرون ان موقف بعض الاداريين البريطانيين، الذين كانوا يتعاطفون مع الدينكا ويستاءون من هيمنة الحمر على نقوك، يؤكد فقط وجود مؤامرة سياسية كبرى تتستر خلف محاولة إعادة ربط نقوك بالجنوب. وهكذا، تجمعت كل هذه العوامل والاسباب لتجعل الزعيم دينق ماجوك يقرر البقاء فى الشمال ويرفض الانضمام للجنوب، وذلك رغم الضغوط العديدة التى تعرض لها. فحاكم بحر الغزال، الذى كان مفتشاً لمركز غرب كردفان، وكان يجد إعجاب نقوك، بشكل عام، وزعيمهم، بشكل خاص، بذل جهداً كبيراً لاثناءهم عن البقاء فى الشمال. وفى تلك الفترة، قام بتعبئة معظم زعماء بحر الغزال ودفعهم للضغط على زعيم نقوك للارتباط بالجنوب. وفى هذا الاتجاه، قامت مجموعة من زعماء مركز قوقريال ببحر الغزال بزيارة المنطقة، واستخدمت كل أساليب الضغط والاغراء الممكنة، بما فى ذلك قبولهم بزعامة زعيم الانقوك<sup>(٩)</sup>. وفى ذلك يقول قيروديت:-

.. منذ عهد قريب، بعد ميلادك بسنوات قليلة، تحدثنا مع دينق ماجوك. ذهبنا وتحدثنا معه ...البريطانيون قالوا له (أهلك فى الجنوب بريدونك). تجمعننا كلنا أجونق Ajuong الذى أسس بور، بولديت Boldit، أسرة المطر، وآخرون... تحدثنا كثيراً قلت لوالدك دينق ماجوك... لقد ناقشنا الأمر مع والدك قبل وقت طويل... والدك حدثنى بالحقيقة. ولكن ماحدثنى به عمى لم

بعد قائماً... علينا الآن أن نتركه ونتوحد خلفك أنت... نجعلك درعنا، ولن تأخذ درعنا وتحولها للعرب... ذلك لا يمكن أن يحدث، عليك أن تأتي وتصيح درعنا... ناقشنا الأمر كثيراً.

أحد الشيوخ، يدعى دينق نبال، قال:

«دينق ماجوك... يجب أن تقبل ما قال به ابن ثيك Thiik حديثه طيب، انه يقول لك، يأتي يوم يرجع فيه الانسان الى بلده وأهله. وعندما يرجع من تلقاء نفسه، يسأله الناس عن كذا وكذا ومتى وصل؟ ولكن عندما يطلبه أهله، هؤلاء يعرفون وصوله، لا يسألونه بنفس الطريقة. دعنا نستمع الى هذه الحكمة، يا ابن كول».

تحدثنا كثيراً وبعدها تركت الامر علي امل ان نلتقي مرة اخري لمناقشة الامر. لم يجتمعوا مرة أخرى، ولكن، عندما جاء القرار النهائي، قرر زعيم الانقوك البقاء مع الشمال، وغالبية أبناء الدينكا انقوك تبعوا قرار زعيمهم. وعلق أحد الشيوخ على ذلك بقوله (ان محاولة استبدال الرجل العرجاء تكسرها، وحتى اذا كان الانقوك قد ضلوا الطريق واختاروا كردفان، فان محاولة اصلاح هذا الخطأ ستكون مدمرة...) ولكن الرأي العام وسط القبيلة لم يكن غير منقسم، فأحد المقربين للزعيم دينق ماجوك، من المحاربين المعروفين، نظم أغنية ضد اختيار البقاء في الشمال جاء فيها:

في المستقبل... اذا دخلنا في الحرب مع التويك

سأحمل درعى وسنكون في المقدمة

وإذا دخلنا في حرب الرك

سأحمل درعى وسنكون في المقدمة

وإذا دخلنا في حرب مع النوير

سأحمل درعى وسنكون في المقدمة

ولكن... إذا دخلنا في حرب مع العرب

سأحمل قرعى وأنادى زوجتى:

"تعالى، دعينا نذهب"

تلك الحرب هي حرب أشويل ودينق وكان دي داو

الرجال الذين شهدوا بهذا الطريق<sup>(١٠)</sup>

بعد اختيارهم البقاء في مديرية كردفان، مباشرة، ربط نقوك بمركز دار المسيرية الذي كون حديثاً، ولاحقاً بمجلس ريفي المسيرية، ادارة الحكم المحلي في المنطقة. ويمكننا أن نلاحظ هنا، بعض أوجه الشبه بين قراز الجنوبيين في

مؤتمر جوبا إستعجال يوم الاستقلال من خلال التعاون مع الشمال، وموقف نقوك باختيار البقاء فى الشمال بدلاً من الانضمام للجنوب. فكما إعتد نقوك علي عدم تحيز الحكومة البريطانية أولاً. ثم الحكومة السودانية، ولو بدرجة أقل، كذلك إعتد الجنوبيون على إشراف البريطانيين فى علاقاتهم الشمالية-الجنوبية، حتى يتمكنوا من تطوير أنفسهم ومنطقتهم. ولكن قرار نقوك لم يكن نهائياً. والحكومة المركزية كانت تعلم أن نقوك لم يكونوا متفهمين لحقيقة نتائج قراراتهم، إذا ما أخذنا فى الاعتبار أوضاعهم التقليدية وفقدانهم لأولويات التعامل مع السياسة فى دولة حديثة. لذلك منحوا فترة خمس سنوات يمكنهم بعدها إعادة النظر فى قراراتهم إذا رغبوا فى ذلك. ولكن عندما حاول البعض الاستفادة من هذا الشرط، فى وقت لاحق، أبدى الشماليون انزعاجاً وقلقاً واسعاً.

لقد أدى انضمام نقوك لمجلس ريفى المسيرية، وكانوا يمثلون ١٠٪ فقط من عضويته، الى إثارة التوتر والاحتكاك بينهم وبين الحمر. وجاءت المواجهة أولاً عندما اختير أحد الزعماء ليكون الزعيم الأعلى لكل قبائل المنطقة. وبجانب نقوك، والحمر، كانت هناك قبائل أخرى، تشمل قبائل النوبة، وهى مجموعة زنجية تختلف عرقياً وثقافياً عن القبائل الشمالية. هكذا، تم اختيار بابو نمر زعيماً أعلى ورئيساً إدارياً وقضائياً لكل زعماء قبائل المنطقة، ولكن زعيم نقوك إعترض بقوة، إستناداً إلى تميز قبيلته عرقياً وثقافياً، وأنها بالتالى يجب أخضاعها لسلطات الحكومة المركزية، وأعلن بوضوح أن ذلك يمثل شرط بقائه فى مجلس واحد مع البقارة الحمر، ووجد دعم وتأييد الإداريين البريطانيين. وهكذا أصبح نقوك فى وضع إستقلال ذاتى فى إطار وحدة إدارية مع الحمر. والمفارقة ان أسرة نمر لم تفهم تمتع الدينكا بحقوق أكثر من النوبة، حتى يظلوا خارج إدارة سلطتهم المحلية، وأن دينق ماجوك وأهله لم يفهموا كيف تفكر أسرة نمر فى ضمهم تحت سلطتها. وبذلك بدأت التوترات تنمو وتتزايد وتظهر فى أشكال مختلفة، رغم اختلافاتها تحت مظاهر الاحترام المتبادل والعلاقات الودية. المهم مع إستمرار السلطة فى أيدي البريطانيين، وكان نقوك على ثقة بوجود حكم نزيه غير متحيز، قادر على الإشراف على هذه العلاقة المتنوعة، عرقياً وثقافياً، وقد برهنت الإدارة على أنها تستحق هذه الثقة بجدارة.

(ج) فترة مابعد الاستقلال

بانتهاى سودنة الوظائف وإعلان الاستقلال بدأت المرحلة الأخيرة من تاريخ علاقات نقوك-الحمر. وكما كانوا فى السابق، إستمر نقوك فى الاعتماد على



عدم تحيز الحكومة ونزاهتها. وهذا ماساعدهم علي المحافظة علي التوازن بشكل عام، ولكن الحكومة في هذه المرحلة كانت شمالية، سواء كان ذلك من وجهة نظر الحكومة نفسها، أو كما يراها نقوك حقيقة، وبالتالي فمن الصعب عليها الالتزام بعدم التحيز والنزاهة. والتدهور المتسارع في علاقات نقوك-الحرر، تحت ظل ادارة موضوعية، لكنها مهمة اهتماماً كبيراً باوضاع المنطقة، ظل يميز عمليات الصراع حول السلطة في المنطقة بشكل دائم منذ سودنة الادارة. ففي عام ١٩٥٤ انفجرت الأوضاع خلال انتخابات أول برلمان سوداني. وكان الحرر ونقوك مشتركين في دائرة انتخابية واحدة. ولذلك دعى بابو نمر والد زوجته من الخرطوم، السيد الفاضل، للترشيح في الدائرة باسم حزب الأمة، وهو الذي لم يشهد هذه المنطقة من قبل. ومثل ذلك استفزازاً كبيراً لنقوك، ففسروا ماجرى بأنه عبارة عن بيع لوطنهم مقابل مبلغ من المال. ومع ذلك كسب السيد الفاضل الانتخابات دون صعوبات. المهم، المشاركة مع الحرر في دائرة واحدة، من وجهة نظر نقوك، ودعوة السيد الفاضل وانتخابه ممثلاً للدائرة، كل ذلك كان يمثل مؤشراً علي تغير السياسات لمصلحة البقارة الحرر -والمشكلة لم تنته عند ذلك الحد، ففي المجلس الريفي، كائنت الأمور تسير، بشكل عام، باتجاه شمالي تماماً... اللغة العربية كانت هي اللغة الرسمية، مع أن معظم الاعضاء الدينكا لايفهمونها تماماً، ودينق ماجوك هو الوحيد الذي كان يتحدث بها. والمسائل الأخرى، الخاصة بتوزيع سيارات الحكومة، وموظفي المجلس وغيرها، أكدت لنقوك حقيقة خضوعهم لهيمنة الحرر. ولذلك قام أروب كول، أصغر أخوان دينق ماجوك، بالتأسي على هذا التحول في اغنية، جاء فيها:

كول الانقوكي العظيم نُهب وسلب  
اصبحنا ضحية، نبحنا مثل ثور  
دينق الزعيم... غزوه في أرضه  
أه... ان أبي كان هنا، أبي ابن أروب الكبير  
وانت... على نمر  
تخلق الفوضى والاضطراب!  
ماذا عن كسوة الشرف التي منحت لكول؟  
دينق دي كول يلبس كسوة الشرف  
إنه مثل الاله... الاله الاعظم  
في زمان على، على الايام السابقة

عندما نصبت انت، أروب، زعيماً لكل الديار  
تلك كانت الديار  
خلاص... ذهبت أيامنا بعيداً  
خلاص... أصبحت أيامنا معدودة  
عندما حدثت الفوضى  
الرجل العظيم لبس كسوة الشرف الحمراء  
وأرض النوير كانت أرض والده  
كم كانت عظمة قبيلة الأنقوك....  
أنقوك أبى، كول أروب  
على، وقتها، كان يملك زريبة أبقار  
منها تخرى عن حصان  
حتى يسترضى أروب  
يتصالح مع والد والدى  
وكما سأل ماديبوك  
يقال... سلطته تنتهى فى المجلد  
الرجل الذي فقدناه كان حارسنا الذي حمانا من الموت  
الحارس الذي حمانا من الموت  
هل يكون العرب الاباعد، عرب النهود، الحارس  
الذى يحمينا من الموت.  
هل يكون عرب المجلد الحارس الذى يحمينا من الموت  
يا للمصائب التى وصلت ديارنا الآن...؟  
على حارس القبيلة السمراء  
مد نفوذه فى ديار أروب  
والمصائب انتشرت الآن فى انحاءها<sup>(١١)</sup>.

لقد كان لتطورات مشكلة الشمال-الجنوب دور كبير فى توسيع وتعميق تدهور علاقات القبائل مع بعضها البعض. ففي عام ١٩٥٥ ظهر أول تعبير عن دخول العنف المسلح فى السياسة السودانية. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت "الفيدرالية" كلمة فضفاضة فى سياسات العلاقة بين الشمال والجنوب. وبعد التمرد، والانتفاضة العامة، التى صاحبتها، أصبح الشباب الجنوبي المتعلم، بشكل خاص، قوة سياسية نشطة لها وزنها وتأثيرها. وفى هذا الإطار تكونت

جمعية شباب الدينكا في كل انحاء السودان، وكان من بين أهدافها توعية جماهير الدينكا بمشاكل السودان الحديث التي تواجههم. ورغم ان السياسة لم تكن مجال اهتمامها الوحيد، لكنها ظلت تحتل جزءاً هاماً من البرنامج الثقافي الذي وضعته الجمعية لنفسها. وتركز الاهتمام المباشر لعضائها من ابناء نقوك، وكانوا كلهم من المتعلمين، على تقرير مصير المنطقة. ولتحديد أهداف الجمعية ونشاطاتها، عقد مؤتمر في اكينهال Akecnhial في ديسمبر ١٩٥٥، تحت إشراف أحمد دينق، ابن الزعيم دينق ماجوك، الذي عين مساعد ضابط تنفيذي في منطقة نقوك - وكان واضحاً أن الحمر قد أصيبوا بخيبة أمل من تعيينه، واعتبروا ذلك محاباة من البريطانيين للدينكا على حسابهم. وعند انعقاد المؤتمر كان أحمد، الذي تلقى تعليمه في الشمال، وكان عضواً نشطاً في تنظيم الأخوان المسلمين، قد غير موقفه تجاه الشماليين عموماً. وشارك هو وأبناء الدينكا المسلمين، الذين تقلوا تعليمهم في الشمال، في اتخاذ القرار الجماعي، الداعي الى دفع نقوك لاعادة النظر في قراراتهم السابق الخاصة ببقائهم تحت ادارة مديرية كردفان، والارتباط بالجنوب، مع تأكيد أهمية ذلك في ضوء احتمالات منح الجنوب حكماً فيدرالياً. وقام المؤتمر بإرسال مندوبين منه لكل الزعماء والوجهاء لحثهم على الموافقة على هذا التوجه. وبالفعل وجد قرار المؤتمر موافقة زعيم الانقوك الأكبر وزعماء فروع القبيلة وزعماء الاقسام والعشائر وكل الوجهاء الكبار، وطلبوا التشاور مع مجموعاتهم. وبذلك وضح أن نقوك قد غيروا موقفهم السابق لمصلحة الارتباط بالجنوب. وكان لابد من التفكير في كيفية ابلاغ الحكومة ردود الفعل المتوقعة، ولم يستبعد احتمال محاولة الحكومة الالتفاف حول القرار بالترغيب والترهيب. لذلك تقرر اختيار وفد من الشباب المتعلم لابلاغ القرار لحاكم المديرية عن طريق مفتش مركز دار المسيرية، وكان شمالياً في ذلك الحين. وفي هذا الوقت كانت أخبار القرار قد وصلت رئاسة المديرية واستقبلها الشماليون كتطور خطير. فقد نشرت جريدة "كردفان" مقالاً افتتاحياً هاجمت فيه حركة نقوك واعتبرتها خطوة انفصالية تهدد وحدة البلاد بشكل عام، ودعت إلى اتخاذ خطوات جادة ضد دعاة هذا الاتجاه الخطير والمضر بمصلحة البلاد. وعندما وصل الوفد الى رئاسة المركز والتقى بمفتش المركز، قامت السلطات باعتقال اعضاءه جميعاً. ولم يُطلق سراحهم إلا بعد تدخل الزعيم دينق ماجوك، الذي واصل علاقاته الودية مع الحكومة المركزية وكبت مراراته ومشاعره تجاه الحمر. وفي نفس الوقت، تقريباً، تم حل جمعية شباب الدينكا. التي كان لها تأثير كبير في أوساط

الدينكا، وبذلك توقفت نشاطات الشباب المتعلم في المنطقة. ونفس المصير وجده موضوع الارتباط بالجنوب. ولكن الصراع بين زعيم نقوك والحرمر ظل مستمراً. وفي وقت لاحق طُلب من الحكومة تكوين مجلس محلي منفصل لنقوك، لكن الطلب رُفض بإدعاء أن حجم السكان نقوك ليس كافياً لتكوين مجلس محلي، مع أن تعدادهم كان يفوق المئة ألف نسمة. وتضاعفت مرارات نقوك نتيجة وجود حزب الامة في السلطة، وهو حزب أصهار بابو نمر، ولأن رئيس الوزراء والوزراء الآخرين، وموظفي الخدمة المدنية في الحكومة المركزية كانوا قد أبدوا تعاطفاً، جميعاً، مع مطالب زعيم نقوك بإدارة ذاتية في اطار مجلس محلي مشترك مع العرب. ومع ذلك، استمرت تبعية الزعيم لإشراف الحكومة المركزية، أكثر من بابو نمر، في المسائل الادارية والقضائية وفي بعض الحالات، عندما تتهدد مصالح نقوك، بشكل واضح، كان كبار الموظفين يتدخلون في قرارات الاغلبية الشمالية في المجلس<sup>(١٢)</sup>. ورغم كل ذلك، كان يبدو أن حكومة حزب الامة تحابي مصالح الحرمر بطرق مختلفة، إذا كان ذلك في مصلحة الحزب<sup>(١٣)</sup>.

في عام ١٩٥٨ إستولى الجيش على السلطة في الخرطوم، بقيادة الفريق ابراهيم عبود. وجاء الانقلاب برداً وسلاماً على زعامة نقوك، لأنه جعل نقوك والحرمر في وضع متساوٍ امام النظام الجديد. ولهذا السبب، بشكل عام، أعلن الزعيم دينق ماجوك تأييده للحكومة العسكرية، وظل ثابتاً على موقفه هذا طوال سنوات عمرها الست. ووجد في المقابل سند الحكومة ودعمها في مشاكله المحلية<sup>(١٤)</sup>. والواقع أن التعاون بين الطرفين لم يكن حدثاً فردياً طارئاً، بل تعاوناً جوهرياً ومنطقياً من وجهة نظر كل منهما. فالحكومة كانت في حاجة لتأييد ودعم الزعيم، ووجدته بالفعل، وفي المقابل وجد الزعيم تأييد ودعم الحكومة في صراعه حول السلطة في المنطقة. ويتضح إخلاصه في موقفه هذا في البرقية التي أرسلها للفريق عبود، رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة ورئيس الوزراء حيث يقول فيها:

(أنا، دينق، زعيم الدينكا نقوك، أنا راضى ومسرور من قابتنا، الرئيس عبود وكل الوزراء... لقد حملتم أنتم اسم بلادنا عالياً حتى أصبحت بلادنا كبيرة بين بلدان العالم. وعندما يأتى وقت انتخاب رئيس الجمهورية، يجب أن لا تكون هناك شكوى من الوضع الحالي ... ليس لنا أى سبب يدفعنا للاختلاف مع رئيس الوزراء، الذى يطلق عليه الآن رئيس القوات المسلحة... انه رجل يتبع طريقاً مستقيماً، ليس معوجاً، لا يفرق الناس بين جيد وريء، كل

أبناء السودان سواسية فى نظره. أتمنى لكم أيها القادة العافية والسلام فى جهودكم لدفع اسمنا بين أمم العالم.. لكم تحياتى).

ان هذه البرقية، التي أرسلت قبل عامين من سقوط الحكم العسكري بانتفاضة شعبية قادها طلاب واساتذة الجامعة، وشملت كل مواقع القطاع الاقتصادي الحديث فى البلاد، تكشف لنا كيف يمكن أن تؤثر المصالح المتضمنة فى هذه الوضعية فى تحالفات زعمائها مع الحكومة المركزية... وتناقض السياسات المتضمنة فى هذه الوضعية يوضحه لنا تعايش تناقضات الدينكا نقوك وعرب المسيرية الحمر مع تأييد ودعم الدينكا نقوك لحكومة تقود حرباً أهلية، عربية-دينكاوية فى ملامحها العامة<sup>(١٥)</sup>. وفيما يتعلق بصراعات الأنقوك والحمر، أبدى الفريق عبود ملاحظات هامة فى مصلحة دينق ماجوك، ولكن حتى الحكومة العسكرية كانت، فى بعض الأحيان، تتحالف مع بابو نمر على أسس لا تعنى سوى التمييز والمحاباة<sup>(١٦)</sup>.

وبشكل عام يمكن القول، رغم تأييد الحكومات المختلفة والموظفين كان يختلف فى الدرجة، إنها ظلت، بشكل ثابت، تحافظ على السلطة الشخصية لزعيم نقوك وعلى ذاتية قبيلته فى مواجهة الحمر. ونتيجة لذلك، ظلت مسألة الصراع العربى الإفريقى، فى إطار نقوك، مسألة صراع بين الحمر ونقوك، بشكل أساسى، تدخل فى الحكومة كعنصر هام، مع أن عدم تحيزها لا يمكن افتراضه دائماً- ومن وجهة نظر نقوك، بشكل عام، كان لهذا الصراع ارتباط وثيق ومتزايد مع المشكلة الأكبر، مشكلة علاقات الشمال والجنوب<sup>(١٧)</sup> وهكذا عندما تفاقمت الأوضاع فى الجنوب، تدهورت أوضاع المنطقة حتى عام ١٩٦٥، حيث تفجرت صراعات دامية واسعة، كانت من بين الأحداث الأسواء فى تاريخ العلاقات الشمالية الجنوبية. ودخلت المنطقة فى الصراع بانضمام عدد كبير من شباب نقوك، بما فى ذلك أبناء الأسر الكبيرة والقائدة، لحركة الأنيانيا، وأصبح بعضهم من القيادات العسكرية البارزة وسط المقاومة المسلحة فى أذغال الجنوب، وبذلك لم تعد المشكلة مشكلة صراع محلى بين نقوك والحمر، وإنما بين الجنوبيين والشماليين<sup>(١٨)</sup>. وحدد نقوك موقفهم فى الارتباط بالجنوب والهوية الجنوبية، ولكن الزعيم دينق ماجوك، الملتزم بالقانون والنظام وربما الحكومة، ظل مستمراً فى تعاونه مع السلطات الحكومية لاستعادة الأمن وتهدة الأحوال.. ولضمان ذلك دعى قوات الأمن، لكنه اشترط عدم تدخلها فى السلطات القبلية وتحويل وجودها الطارئ الى احتلال عسكري وهيمنة على زعماء القبيلة، كما هو الحال فى الجنوب فى

بداية التمرد والانتفاضة.

ومجمل هذه الصعوبات أدت، سياسياً، الى تزايد قلقه وانزعاجه، ولكنه ظل صامداً وثابتاً، بل انها قد أدت عملياً الى تقوية مركزه البارز وحولته الى قائد بطولى وسط نقوك والقبائل الاخرى فى الجنوب البعيد. وكما أشار أحد القيادات السياسية الجنوبية، قائلاً: فقد حقق دينق ماجوك المساواة المطلقة مع زعماء القبائل العربية، واصبح مقبولاً من جانب الحكومة المركزية على هذا الأساس... هذا الوضع بالنسبة لجنوبى يعتبر معجزة، وكزعيم جنوبى، له هذه الوضعية، كان فى الواقع قائداً أكثر بروزاً من زملائه الشماليين المجاورين لمنطقته.

فى عام ١٩٦٩ توفى دينق ماجوك، ومعه إنتهى التوازن عندما ابتعدت أرض نقوك عن دور جسر التفاعل الأمن بين الجنوب والشمال- وبالفعل، تصادفت وفاة دينق ماجوك مع اتساع وتزايد نشاطات حركة الانانيا، بشكل عام، وامتدادها الى المنطقة بقيادة بعض أبناء نقوك. ومع أن جناح الانانيا فى المنطقة لم يكن قوياً بدرجة تمكنه من الاستيلاء على المنطقة، لكن تنظيمه المتحرك مكنه من فرض ضرائب على السكان، ومعاقبة أى شخص يشتبه فى تعاونه مع السلطات الحكومية، وتهديد قوات الأمن وتحويلها هي نفسها الى مصدر للعنف والارهاب. وباستثناء مجموعة صغيرة من الانتهازيين المعروفين، الذين استفادوا من التعاون الوثيق مع قوات الحكومة، فقد أصبحت غالبية أبناء الدينكا مشكوكاً فى ولائها ومتهمة بالتعاون مع الثوار والتورط فى اعمال الشغب. ومشاعر أبناء نقوك، العاجزين عن فعل أى شىء تجاه هذه السيطرة العسكرية على قبيلتهم والهيمنة على زعمائهم، تعبر عنها هذه الأغنية:-

كيف جاء إفساد العالم وتخريبه...؟

ديارنا مقفولة ومحمية

العرب أفسدوا ديارنا وخربوها

خربوا ديارنا ببنادق لها لحي

بنادق تهدر وترعد، ثم تخرج صوتاً جميلاً

مثل الطبول القديمة، التى يروض بها الجاموس

حتى تمسك قرونة

هل اللون الاسود بهذا القبح؟

الذى يدفع الحكومة لأن توجه بنادقها نحوه؟

الشرطة تتحرك فى كل مكان

وحملة البنادق يثيرون الغبار  
والجبناء يستسلمون خوفاً من السلاح...؟  
ويتخلون عن ديار استعدادها من الا جانب  
ديار حاربنا من أجلها سويًا  
حتى أجبرنا الانجليز على الرحيل منها  
هل، لكل هذا، نهاجم بالبنادق؟  
هل نستحق ذلك؟

ما هكذا المعاملة Cieng<sup>(١٩)</sup>

أه... ما هكذا نعامل

ياجنوب دينق، ابن كول

ما تفعله هذه الحكومة

ليس شيئاً جميلاً

إنها تطلق النيران من بنادقها في كل مكان

مثلما تنثر حبوب السمسم في الحقول

ثم تقوم بحساب الفوارغ

وتقول، بكل بجاجة... "مليون طلقة".

ومع ذلك، لم تخضع نقوك

قضيتنا مع هؤلاء الناس أمام المحكمة

المحكمة تعقد جلساتها بين الحشود

أكاي باجوك

ولحوم أجسادنا

لها قضية

أعقدوا المحكمة

ودعوا الله

ثم قالوا: ياالله... لماذا تفعل هذا؟

ألم ترى ملحدث للبشرة السوداء؟

المحكمة أدت القسم

وجاء أخواننا،

مع بركات الآلهة في السماء

ولحوم أجسادنا

جلسوا على أرض أبناء بيونق

وانطلق أعصار من الغبار فى أبهى  
حتى وصل السماء

أسرة أروب دى بيونق لا تستطيع فعل شىء  
ولا أحد يعلم ماذا تحمل الحكومة فى جعبتها...؟  
حتى اذا اسقطتنا بنيران بنادقها الملتحية  
فبمن نستجد...؟

هذا مانفكر ونتأمل فيه دائماً (٢٠)

وهكذا كان توصل الرئيس نميرى الى حل لمشكلة العلاقة بين الشمال والجنوب، واستعادة السلام للسودان، حدثاً تاريخياً هاماً، استقبله نقوك، تماماً كبقية الجنوبيين، بتنفسهم الصعداء. وفى مفاوضات أديس أبابا، حيث تم التوصل إلى اتفاقية السلام عام ١٩٧٢، وجدت قضيتهم اهتماماً واضحاً، وتضمنت الاتفاقية فقرة خاصة بتعيين حدود الجنوب كانت تستهدف معالجة الوضع الشاذ لمنطقة الانقوك- فالفقرة ٢ (iii) تعرّف الجنوب بأنه ...مديريات بحر الغزال، الاستوائية وأعالى النيل، وفقاً لحدودها المعتمدة فى الأول من يناير ١٩٥٦، والمناطق الأخرى، التى ستقرر، من خلال استفتاء عام، اعتبارها ثقافياً وجغرافياً جزءاً من كيان الجنوب... المهم أن الاستفتاء لم يتم حتى الآن والوضع الشاذ لمنطقة نقوك لا يزال مستمراً. وتاريخ هذه المنطقة يظل يمثل تجربة غنية فى امكانية بناء علاقات متطورة بين الجنوبيين والشماليين، ولكنها كشفت، أيضاً، الظروف التى مكنت الصراع حول السلطة من عرقلة الوحدة والتعايش والتفاعل الثقافى... فهل يستمر نقوك ليصبحوا نمونجاً لما يجب أن ينجز؟؟ هذا هو السؤال.



## الهوامش

- (١) K.D. D. Henderson, The Migration of the Missiria into South-west Kordofan, S. N. R. XXII. Part 1, (1939), pp. 49-77.
- (٢) Muddathir Abdelrahim "Arabism, Africamism and Self-Identification in the Sudan" in Yusuf Fadl Hasan (ed). (Sudan in Africa) Kh. University Press, 1971. p. 320.
- (٣) Henderson, The Sudan, (London, Ernest Benn, 1965), pp. 26-27.
- (٤) Kuper and Kuper, Africa Law: Adaptation and Development. (Berkeley, Univ. of California Press, 1965), p. 11.
- (٥) سمع اروب لهذه المجموعة المعادية للمهدية بالاستقرار في مستنقعات باراليل، لآى فترة تقتضيها ظروف مقاومتهم للمهدية. وحتى هذا اليوم، لا يزال عشيرة أولاد كامل، الذين قاد أجدادهم عشيرة الكلابنة، يربطون انفسهم ويعرفون كاقرباء لاسرة باجوك Pajok الحاكمة.
- (٦) المقصود السيد الفاضل محمود عبدالكريم تزوج عائشة عبدالرحمن المهدي وأنجب أمنة زوجة بابو نمر أخت سارة زوجة الصادق المهدي (الهامش تصحيح المركز عن عون الشريف: موسوعة القبائل والانساب ص ١٧٤٥).
- (٧) اهدى السيد عبدالرحمن سيفاً للزعيم دينق ماجوك، فأعتبر السيف كرمز مقدس ولفترة طويلة كانت دائرة المهدي في الخرطوم توفر للزعيم الانقوك السكن والراحة في زيارته للعاصمة.
- (٨) Henderson, op.cit., p. 164.
- (٩) زعيم الانقوك ومروؤسيه نُظمت لهم رحلة لبحر الغزال لتنويرهم بحقيقة الاوضاع هناك قبل اتخاذ قرارهم.
- (١٠) Francis M. Deng, The Dinka and their Songs, (Oxford, the Clarendon Press, 1973), p. 144.
- (١١) Ibid, pp. 180-182.
- (١٢) عندما قرر المجلس، مثلاً، بناء سوق ومنطقة حي ليو، حيث سمح الانقوك للزعيم الحمر بإنشاء مركز يقود منه نشاطه في فصل الجفاف، إعتبر زعيم الانقوك ذلك غزواً واضحاً لأراضيه. وبالإضافة الى ذلك فقد كان المشروع يهدد مدينة أببي، المركز الإداري والتجاري للأنقوك. لذلك طلب الزعيم من حاكم كردفان عدم تأييد قرار المجلس، بعد التحريات الضرورية، قام الحاكم بإلغاء القرار.

(١٣) لحد الامثلة حدث في عام ١٩٥٨، أثناء إنتخابات البرلمان الثاني، حيث قامت حكومة حزب الأمة باعادة تقسيم الدوائر الانتخابية بطريقة وزعت الانقوك على دائرتين، اغلبهما من الحمر، في البداية قرر زعماء الانقوك مقاطعة الانتخابات، ولكن الزعيم الاكبر أقنعهم بالمشاركة، استجابة لضغوط الحكومة المركزية، وكما كان متوقعا، خسر المعركة مرشحا الدينكا الاثنان، ابن الزعيم وابن أخيه. والاسواء أن علي نمر، لحد زعماء الحمر، قد فاز ممثلاً للدائرة، وان أخيه انتخب في مجلس الشيوخ، وان ابنه، طالب ثانوي، عين زعيماً في مكان والده.

(١٤) حدث ولحد له مقرى في هذا المجال، في عام ١٩٦٤، نقل علي بلدو لمديرية كردفان، وهو الذى لعب دوراً كبير فى تاريخ العلاقة بين الشمال والجنوب. وفي كردفان وجد أن هناك متأخرات من ضريبة الدقنية على الانقوك، وذلك نتيجة لطلب خاص من زعيمهم بتجميد تحصيلها لمدة عامين بسبب عدم نجاح الموسم الزراعى والنقص فى الحبوب، لذلك تراكمت المتأخرات واصبحت فوق طاقة الانقوك. ولذلك طلب الزعيم بالغاءها كلية. ومع أن القرار قد أجّل لسنوات عديدة إلا أن كبار موظفى المجلس أكدوا للزعيم أن المتأخرات ستبقى. وأخيراً قرر المجلس عدم الالغاء، فطلب الزعيم من الحاكم الجديد، على بلدو، تغيير القرار. وبدلاً من ذلك طلب الحاكم دفع المتأخرات فوراً، وهدد بتجميد مرتبات كل زعماء الانقوك إذا لم يحدث ذلك. وفى حالة غضب أبلغ على بلدو الزعيم دينق ماجوك بأنه إذا أراد أن يلتحق بإخوانه فى الجنوب عليه أن يقول ذلك صراحة، وأضاف أنه لا يهتم إذا إرتبط الانقوك بالجنوب أم لا. وهذه لسوء الحظ ذلة لسان من جانب الحاكم تؤكد العوامل العرقية فى مشكلة الجنوب والشمال. وهو موقف لا يتماشى مع سياسة الحكومة، التى شارك الحاكم بنفسه، فى فرضها فى الجنوب. وذهب دينق ماجوك الى الخرطوم لعرض قضيته على الحكومة المركزية. وقررت الحكومة المركزية إلغاء المتأخرات وتوبيخ الحاكم، وفى نفس العام منح الزعيم كسوة الشرف من الدرجة الاولى. وليس واضحاً هل جاء ذلك بسبب دعم الحكومة للزعيم أم بسبب ذلة لسان الحاكم.

(١٥) وسط احداث العنف العرقى، اشار الفريق عبود الى الزعيم دينق ماجوك فى عام ١٩٦٤، بعبارات (أخى العزيز والمواطن السودانى المخلص) فى حديث خاص مع المؤلف.

(١٦) عندما أصبح بلبو نمر مكروهاً وسط زعماء العرب والنوبة، أثناء توليه زعامة المنطقة، انتخبوا دينق ماجوك رئيساً للمجلس الريفى وهو أمر استغرب له أهل الشمال. وبحكم موقعه هذا، أصبح ماجوك عضواً فى مجلس المديرية، وتلقى نمر تليفافاً بحضور اجتماع مجلس المديرية، بينما لم توجه الدعوة لدينق ماجوك. وعندما لشتكى ماجوك لاحقاً للوكيل المداثم، وعد الاخير باصلاح الخطأ عن طريق تعيين نمر، كعضو معين، وماجوك، كعضو منتخب.

(١٧) فى فبراير ١٩٦٥ أرسل الانقوك رسالة الى لجنة الانتخابات فى الخرطوم تقول أنهم سيقاطعون الانتخابات القادمة، اذا لم تُجرى الانتخابات فى الجنوب، وطلبوا، مرة أخرى، فكاً ارتباطهم بمديرية كردفان والحاكم بادارة بحر الغزال فى الجنوب. "مُسك فى تلك الرسالة ووزعت بشكل واسع".

(١٨) فى رسالة خاصة برز التقرير التالى:-

ذهبت الى لبيى فى أواخر يونيو ١٩٦٥ وشاهدت الحالة هناك. كل الانقوك أحرقوا بواسطة البقارة وجنودهم، المنازل الوحيدة، التى تراها عند السفر بالمجلد هى أبيى نفسها. ليس هناك مايدل على الحياة فى قوكهام، حتى الطيور تركتها -النباب فقط هو الموجود فى المنطقة. الحبوب أحرقت كلها والحكومة أرسلت أربعة آلاف جوال- ولكنها بيعت كلها. معظم الناس ذهبوا الى تويل، معظمهم من أسرة الزعيم وأخريين من أبيور، هؤلاء هم الاشارة الوحيدة على وجود الانقوك.

(١٩) فى هذا الاطار Cieng تعني، بشكل عام، المعاملة، لكن المفهوم معقد ويتضمن عدة معانى- للمزيد من المناقشة الاوسع، انظر Infra, p. 86 وكذلك منشورات المؤلف Tradition and Modernization, pp. 24-30, The Dinka of the Sudan, pp. 13-14. The Dinka and their Songs, pp. 14-15. Francis M. Deng, The Dinka of the Sudan, op. cit., 150-151 (٢٠)

## الفصل الخامس

### إعادة بناء الهوية

#### خطوة نحو سلام دائم

(١) أزمات الهوية الوطنية في السودان:

إن مشهد علاقات الجنوب والشمال ليس مجرد مظهر فقط لصراع ثابت ومستمر- وذلك لأن إعادة تركيب الهوية والبحث عن بدائل قد ظلت تجري، بصبر وأناة، حتى في ظروف تفاقم الحرب الأهلية. وبدأت الآن تعطى ثمار نجاحها الملوس.. صحيح أن العملية معقدة ودقيقة لا يمكن تحديدها بالملاحظات الخارجية، وإن التماسك والمنطق الداخلي، الذي افترضه في هذه العملية، قد يبدو تأملياً ومحفوفاً بمخاطر الحسابات الخاطئة. ولكن كل ذلك يقوم على ملاحظات لصيقة بفعاليات علاقات الشمال والجنوب خلال فترة تشمل مراحل تاريخية متعددة ومتداخلة، المرحلة الأولى تبدأ مع الاستقلال، الذي أكسب السودانيون الشماليين حماسة وطلاقة تبشيرية كانت تستهدف أسلمة وتعريب الجنوب. وفي المرحلة الثانية، وفي وقت واحد تقريباً، بدأ الشماليون يناقشون، تكتيكياً، بأنه ليس هناك فروقات عرقية أساسية بين الجنوبيين والشماليين، وأن الفروقات الموجودة هي فروقات واختلافات ثقافية فقط. وفي المرحلة الثالثة، بدأ الشماليون ينظرون إلى أنفسهم ويلاحظون خصائص انتمائهم العرقية. وكما بدأ الشماليون في ملاحظة اختلافاتهم فيما بينهم، فقد أصبح الجنوبيون أكثر وعياً باختلافات الشماليين الداخلية، وأصبح من الممكن بناء تحالفات بين الجنوبيين والشماليين حول أهداف محددة مشتركة. لقد ظلت مشاعر وتطلعات الشماليين، منذ بداية نهوض حركتهم الوطنية ضد الاستعمار البريطاني، تتطلع نحو وحدة السودان. وبما أنهم عاشوا تجربة تعريب مرنة، فقد رأوا أن تعريب الجنوب يمكن أن يتم بسهولة، واعتبروا إصرار البريطانيين على تطويره بشكل مستقل عن الشمال جريمة لا تغتفر. ومع شروق شمس الاستقلال، ورثت الحكومات الشمالية جنوباً، ليس فقط مختلفاً عن الشمال في النظم التقليدية، ولكنه، أيضاً، تطور في خطوط مسيحية غربية، نتيجة لسياسات التفرقة

البريطانية. وبما أن نتائج السياسات البريطانية قد أصبحت عقبات حقيقية في طريق الوحدة الوطنية والتكامل الوطني، فإن تغيير هذه السياسات في الاتجاه المعاكس سيكون في مصلحة الاسلام والعروبة. ولذلك جاء التركيز على إلغاء السياسات والاستراتيجيات الانفصالية، التي وضعها البريطانيون، وعلى الوسائل الضرورية لصياغة سياسات معاكسة للسياسات القديمة ومتوافقة مع الأهداف الجديدة. وظل الشماليون يركزون على الجانب الانفصالي في السياسات البريطانية السابقة، والتركيز المبالغ فيه على تجارة الرقيق ومساعدات القوى الأجنبية الخارجية، وذلك حتى عندما كان الجنوب يخوض نضالاً شرساً في حرب وطنية<sup>(١)</sup>.

لقد كانوا يعتقدون أن التعريب والأسلمة سينتصران في المدى البعيد لتحقيق التكامل الوطني في البلاد- فكما يقول هندرسون:-

«إن الحل يجب أن ينجم إلى نزع ورقة من كتاب الحكومة السابقة، ووضع سياسة جنوبية معكوسة، كما كانت... تأثير الانتلجسيا الموجودة الآن سيضعف عن طريق قطع صلتها بنظام تغذيتها، مدارس الارساليات التبشيرية التي تقوم باعادة انتاجها. والبديل نظام تعليم اسلامي موحد مع النظام القائم في الشمال، وخلال عقد واحد من الزمان سيتربى جيل جديد من الطلاب المستعربين والمتعاطفين مع الشمال، ليحل مكان الجيل الحالي غير الموثوق فيه، قادة الحسينات»<sup>(٢)</sup>.

إن الافتراض المتضمن في سياسات الأسلمة والتعريب يتمثل في خاصية مفهوم العروبة. ففي البداية لم ير الشماليون أى صعوبة في ذلك، ولا حاجة للقول بأن الاسلام والثقافة العربية ظلاً، باستمرار، في حالة ترابط قوى، وهما، في الواقع، لا ينفصلان في عقول السودانيين ومؤسساتهم الاجتماعية، تماماً كما هو حال العرب الحديثين عموماً مسلمين أو مسيحين، في أفريقيا أو في آسيا<sup>(٣)</sup> ووفق ما يرى أحد الشماليين، "فإن التوجه التقسيمي لاعداء الوحدة هو الذى نظر الى هذه المسألة كمشكلة.... ان الفكرة المبتذلة التي تقول ان السودانيين الشماليين مسلمون وعرب، وان الجنوبيين أفارقة ووثنيون أو مسيحيون، مع انها قد تكون مفيدة في إعطاء فكرة سريعة وعامة عن السودان، لكنها مضللة بافتراضها وجود حدود عرقية وثقافية واضحة بين الجنوب والشمال، ولأنها تعرف الافريقية والعروبة بتعبيرات مطلقة، وبالتالي فأنها تنطوي، بجانب أشياء أخرى، على إفتراض خاطيء يقول أن السودانيين ليسوا أفارقة حقيقيين،<sup>(٤)</sup> وقد يشير الشماليون الى أجزاء مختلفة في الشمال

ليؤكدوا مدى التنوع فى أوساطهم، ومدى إرتباط مجموعات عديدة منهم بجذور زنجية، ومدى التخلف، وفى بعض الأحيان أكثر من تخلف الجنوب، الذى تعيشه بعض مناطق الشمال. ومن هنا، فإن الجنوب لا يتميز بخصائص متفردة تبرر مطالبته بالانفصال أو حتى الفيدرالية. وتبرير مثل هذا الاتجاه سيؤدى، منطقياً، إلى تمزيق السودان لأن المناطق الشمالية المختلفة ستطالب، أيضاً، بالانفصال، وذلك لا يكون. وبغض النظر عن الدوافع، سواء كانت لخلط الأوراق واضعاف مبررات الجنوب للتمايز أم لا، فإن مثل هذه المناقشة تعكس السيولة التى تمت بها عملية تشكيل الانتماءات العرقية فى السودان، وحقيقة انها لم تكن، بدرجة كبيرة، مسألة بيولوجية، بقدر ما انها موقف مرتبط بادعاءات سلالية وتمثل ثقافى... وفى كل الأحوال، فانها لم تمنع الجنوبيين من استخدام العرقية، كموضوع فى الصراع، اذا كان فقط كموضوع موقف.

وهكذا، سرعان ما وجد الشماليون انفسهم فى أزمة. فقد بدأوا التحقق من أن عوامل التعريب والاسلمة لم تكن تعمل، وأن العوامل الأخرى، على أى حال، كانت تتحرك. فيقظة أفريقيا، وصعود العزة الوطنية فى الشخصية الافريقية "والزوجة" خلال الستينات، ساهمت، أيضاً، فى ذلك، وربما، وليس أخيراً، تصميم الجنوبيين على القتال من أجل ما يعتقدون أنه كرامتهم وعزتهم. وبدأ الشعراء يكتبون عن الوطنية الافريقية، وبدأ الشماليون يدعون انفسهم "أفارقة" و"سود"<sup>(٥)</sup>. وكان سفر الشباب الشمالى الى الخارج من العوامل الهامة التى ساعدت على ذلك، فقد جربوا، لأول مرة، الاحتكاك مع الوطنيين الافارقة، الذين لا يختلفون كثيراً عن السودانيين الشماليين، وفى القارة الافريقية وفى انجلترا والولايات المتحدة، بدأ السودانيون يحتكون بالامريكان السود والهنود الغربيين، وبدأوا يشعرون، كمجموعة مختلطة عرقياً، بأوجه الشبه بينهم وبين السودانيين الشماليين. وفى البلدان العربية حدث العكس، حيث بدأ الشماليون يلاحظون الاختلاف بينهم وبين بقية العرب. وفى الحاليتين، فى البلدان العربية والبلدان الأخرى، أصبحوا يعرفون كزنج وكسود، وفى البلدان العربية كعبيد، إلا اذا أبعدتهم هويتهم الأجنبية عن دوائر معينة. وبدأ الشماليون كذلك، يكتشفون، رغم اللغة والروابط الثقافية الأخرى المشتركة مع العرب، ان هناك اختلافات جوهرية فى الشخصية والنظرة العامة. وفى العادة كان الشماليون، فى المدارس والمؤسسات الأخرى، فى الخارج، يجدون انفسهم فى انسجام مع زملائهم الجنوبيين السودانيين أكثر من العرب، لأسباب أكثر من مجرد الانتماء لبلد واحد. ونتيجة اكتشاف الاختلاف بين العرب

والسودانيين كانت، فى الغالب، تتمثل فى رد فعل متطرف. فبعد انتهاء الصدمة يبدأ الشماليون فى رؤية هذه الحقائق كدليل على خصائصهم الثقافية والعرقية الحقيقية، وبالتالي التعرف على تعقيدات الشمال والسودان ككل. ويبدأ الشعور بالاختلافات الحقيقية فى الشمال، حتى التخلف لا يبقى مرتبطاً بالجنوب فقط، بل يتخذ، فى بعض الأحيان، أشكالاً أكثر بؤساً فى بعض مناطق الشمال. وبالفعل، بدأت مناطق معينة، تطالب بذاتيتها، أولاً كسخرية من مطالبة الجنوب، ثم بشكل جدوى وعملى. ونتيجة لهذه التطورات بدأت تحالفات عديدة بين الجنوبيين وبعض المجموعات الشمالية. وكشفت الحكومة محاولة تمرد ضد الوحدة الوطنية فى غرب البلاد واعتقلت بعض قياداتها، بينما هرب آخرون الى الخارج بهدف الانضمام للحركة الجنوبية المسلحة. ومع أن الحركة لم ترحب بهم، إلا أنهم ظلوا فى الخارج متمسكين بالدفاع عن زنجية السودان. ومن النتائج المنطقية لهذه التطورات أنها منحت الحكومة والقوى المسيطرة تبريرات إضافية لفرض نظام الدولة الموحدة على الجنوب، وأنها جعلت الجنوبى أكثر إحتراماً فى الأوساط الشمالية وأضعفت النظرة اليه "كعبد" و"زنجى". ومع تزايد هذا الاحترام، فى الأوساط الشمالية، تولد اعتراف، مصاحب لذلك، بقضيته ومطالبته بهوية منفصلة، يجب أن تكون فى إطار السودان الموحد بتوفير الشروط اللازمة لذلك. ومنح الجنوب الحكم الذاتى الاقليمى فى الفترة الأخيرة يمثل قمة هذا التوجه المتغير. ولكن السؤال الأكثر أهمية لمستقبل السودان، هو إلى أى مدى ساعدت هذه التطورات على ادراك حقائق واقع بلادهم وتفرد هويتها، اذا أريد لها أن تبقى موحدة؟

لكن السودانين الشماليين لا يزالون فى وضع متأرجح ومتناقض، وبعضهم لا يزال يركز على التعريب، على حساب العناصر غير العربية فى شخصيته، فقد سمعت أحد السودانين يحذر من مخاطر خضوع الشمال وتنازلاته الكبيرة لمطالب الجنوبيين ضد المصالح العربية فى الشمال. وحذرني آخر من الاستخفاف بعمق جذور التعريب فى الشمال والتقليل من شأنها، ومن أن كل ما يقال فى ذلك هو للتضليل فقط. وعلى كل حال، ليس من الممكن التأكد من الاتجاه الذى ستتجه اليه الرياح، ولكن من الواضح أن هناك تراجع متزايد من نهج التركيز على الاعتزاز بالطابع العربى، الاحادى الجانب، للهوية السودانية، وتزايد مواز فى التركيز على الطابع الافريقى، بالرغم من ارتفاع الاصوات المنادية بالوحدة والقومية العربية فى بعض المناسبات والظروف. وذلك لا يستهدف مجرد تأمين وضع الجنوب وتسوية مشكلته، بل يمثل تعبيراً

عن اعتزاز السودانين بهويتهم السودانية، التي تقبع فى أعماق عروبتهم وتشمل الأساس الذى قامت عليه.

لقد قام الشاعر السودانى صلاح أحمد ابراهيم بوضع كل هذه التطورات فى إطار تاريخى، وقدمها فى قصيدة موجهة لجنوبى، اسماء ملوال، نقتطف منها المقاطع التالية:-

وقبل أن تنكرنى اسمع قصة الجنوب والشمال  
حكاية العدا والاخاء من قديم

.....

العربى حامل السوط المشل للجمال  
شكّال كل قارج، ملاعب السيوف والحرب  
حل على بادية السودان كالخريف بالسنة والكتاب  
خرّب "سوبا" وأقام فى أنقاضها "سنار"، والاخرى التى سوارها  
"تيراب"

يحمل فى رحاله طموحه ولوحه وتمرتين فى جراب  
وشجر الأنساب  
لاقيته فى ثقلى، فى التربة الخضراء، فى كاكا وتيجان الأقار  
والعلياب

.....

تفتحت حقيقة سمراء فى أحشاء كل أم ولدٍ منهن، من بنات جدك  
الأكبر،

مما بذرت نطف الأعراب  
فكان منها الفسور والغونج، وكل سحنة فاحمة، وشفة غليظة، وشعر  
مفلّفل دُرّ على إهاب

حقيقة كبيرة عارية كالفيل، كالتمساح، كالمنيف فوق كسلا، سليطة  
الجواب:-

كذاب الذى يقول فى السودان أننى الصريح، أننى النقى العرق، أننى  
المحض... أجل كذاب

.....

ملوال صوت " رابح " يقول بلسانى، رابح زينة جانقيك، وفهد جورك  
الاباة، شبل نممك

"عبدالفضيل"، تمساح جزائر النيل، وقلب وطنى الجامد- ياملوال-  
ابن عمك

و" ثابت " الثابت حينما تحسس الردى ضلوعه فى طرف الخرطوم،



ريما كانت له قرابة بأمك  
وابن كبرياء هذا الشعب، عينه، لسانه، ضميره ويده،  
"على" العظيم  
قلدة من قومك

تحطم البيان غير أن نغمات منه لاتزال تفعم الاثير، لاتزال تفعم الاثير  
أسمعها باذن "وولت ويتمن" تقول: عيشوا إخوة، برغم كل شيء إخوة،  
وعمروا بالحب هذا البيت، هذا الوطن الكبير.  
أصداؤها تضج في دمي: يا روضة ازهارها شتى، أشم فيك عبق  
المستقبل الجميل، حينما الجميع يلتقون في التقاء الابيض الحليم  
بأخيه الازرق المثير، انظر يوم يقبلون عرباً، وبجئةً، ونوبةً، وفجلاً،  
وبارياً، وبرتةً، وبنقو، وزغاوة، وامبررو، وانقسنا، ودينكا، وتبوسا،  
وأشولى، ونوير، ومساليت، وانواك، ولاتوكا، وغيرهم وغيرهم،  
للبوش كل منهم يهدى، ولكن باعتزاز، شيئة الصغير  
ويوم أن يسود في السودان صوت العقل، صوت العدل، صوت  
العلم، ولحترام الآخرين

.....

فكر معي ملوال أى مجد سوف ننشيه معاً، على ضفاف النيل،  
أى مجد، لو صفت نياتنا الاثنين  
يتيه في مروجنا الخضراء مثل "أبيس" الاله يملأ العين، يسر القلب،  
يهمز السماء بالقرنين  
فكر معي ملوال قبل أن تنتابنا قطيعة رعناء،  
باسم عزة جوفاء او باسم سداد دين  
يوغرها الاعداء بالذى مر به الآباء فنقل براء- نحن منها، ننفض  
اليدين

تفتحي يا امنيات الشعب عن مستقبل نحن معانيه معاً،  
وعن هناة الشمال والجنوب  
عن نضارة الاخاء في هذين  
يوم لاتقوم بيننا السدود والحدود، يوم لايعذب الجدود في قبورهم  
حاضرنا، لا الدين، لا الأصل ولاسعاية الغريب، لا جناية الغبي، لا  
وشاية الواشى تدب  
كالصلال في القلبين  
فكر معي ملوال!

ولقد اقتطعنا هذا الجزء الطويل من القصيدة لانها تمسك بجوهر تاريخ العلاقة بين الشمال والجنوب، وتكشف تعقيدات الهوية فى السودان، وتحدد التحديات التى تواجه السودانيين الان فى عملية البناء الوطنى.

### (ب) ديناميات صراع الاجيال وبدايات إعادة الاصطفاف

عبر الخط الفاصل بين الشمال والجنوب:-

لقد ارتبطت عملية البحث عن أسس جديدة للهوية الوطنية، كما أشرنا من قبل، بتقدير أكثر واقعية للتعقيد الثقافى الوطنى والاعتراف بالهوية الجنوبية. وذلك كنتاج لمواجهة سياسية بين كبار السن، قادة الشمال الأكثر محافظة، الذين يعتقدون فى العروبة والاسلام كأسس للهوية الوطنية، من جهة، والشباب، القوى الأكثر حداثة، نوى الاتجاه الأكثر علمانية وتقدمية، من جهة أخرى، وبانتصار القوى الثانية على الأولى، سقط حاجز العمر بالنسبة للقيادات السياسية وتقدمت قوى التغيير وبدأ تجسير الفجوة بين الشمال والجنوب. ولأجل إدراك طبيعة تنافس الاجيال المختلفة حول السلطة، من الضرورى اعطاء صورة عامة عن القيم الاساسية التى يقوم عليها النظام السياسى والاجتماعى السودانى- لقد تركت الطبيعة التقليدية للسودان، والطريقة التى تطورت بها، البلاد فى وضع يقوم على الاعتزاز بالنسب والسلالة. وذلك ليس فقط لتكثيف اوضاع المشاركين فى كل المستويات على هذا الأساس، وانما، ايضاً، لنشر وتوسيع نفوذ المبادئ، التى تحكم العلاقات الأسرية وفوق الأسرية، الى دوائر أوسع. وهذه المبادئ تعمل على تقسيم الناس وترتيبهم على أساس خطوط النسب والعمر، مع قدرة ذاتية على الاستمرارية الثقافية. وقيم الاعتزاز بالنسب والسلالة هي قيم جماعية وفردية فى نفس الوقت، تجعل كل فرد يتجه الى إستدامة هويته ونفوذه، وبالتالي تقسيم المجتمع الى سلاسل نسب صاعدة أو هابطة، ومجموعات مرتبطة بمصالح محددة، تعيش فى حالة إنسجام ثابتة. ولضمان حالة الهدوء والاستقرار، لايركز المجتمع التقليدى على قيم الوحدة والانسجام، فقط، لكنه، يوفر، أيضاً، طرقاً وأساليب لتعويض المتضررين من عمل النظام بشكل عام. ومن بين هذه الأساليب، استغلال طاقات الشباب من خلال نظام مليشيات عسكرية. ومشاركة الشباب فى العملية السياسية، وبهذه الطريقة، تصل مداها الأقصى، فى العادة، فى مواجهة من يعتبرون أجنبياً، انطلاقاً من أن كل قبيلة لها سمعتها العسكرية المحسوبة لها. وفى الاطار الحديث تطبق مبادئ

التقسيم والترتيب الاجتماعى هذه فى وضع يتطلع فيه الشباب الى الامام، وتبرز فيه الى الوجود أجيال ممزقة ثقافياً. والواقع أن حقيقة تشكيل السلطة الحديثة على خطوط تقليدية، تركز على الروابط الاسرية والعمر، وتعرقل عملية التحديث، قد تركت هذه الأجيال فى حالة حرمان شديدة الوطأة لا وجود لآليات تساعد على تخفيفها مثل الآليات الموجودة فى المجتمعات التقليدية، التى أشرنا اليها قبل قليل. وقد يكون الدور الذى يقوم به العمل السياسى الحديث شبيهاً بالدور الذى يقوم به العمل العسكرى وسط الشباب فى المجتمعات التقليدية، لذلك يلاحظ انغماس الشباب السودانى، بنشاط وحيوية، فى العمل السياسى ابتداء من مرحلة التعليم الثانوى. هذا النشاط هو الذى بذر البذور الأولى للحركة الوطنية ضد الاستعمار البريطانى فى ثورة ١٩٢٤، تحت شعار وحدة وادي النيل، كرمز للهوية وبهدف كسب التأييد والدعم المصرى. ونمو هذه القوى "الحديثة"، بشكل متسارع، لم يكن محسوباً فى خطة السياسة الاستعمارية، التى ارادت تطوير مجتمع حديث، بخطوات بطيئة، فى اطار البنيان التقليدى للمجتمع. ولذلك....

حذر حاكم مديرية بربر زملاء الآخرين، قبل أربع سنوات من تفجر تمرد عام ١٩٢٤، فى مؤتمرهم السنوى عام ١٩٢٠، من النتائج التى سيواجهها الحكم البريطانى فى السودان من تكرار الأخطاء التى حدثت فى الهند ومصر، وذلك من خلال خلق طبقة متعلمة من السودانين ساخطة ورافضة للأوضاع القائمة بالضرورة. وفى تقريره الختامى للتطورات السياسية، التى أدت الى ثورة ١٩٢٤، أشار مدير المخابرات الى ملاحظات مشابهة، حيث كتب يقول "يجب أن نعتز ان هناك الآن فى السودان طبقة صغيرة، لكنها معبرة بصوت واضح ولها تأثير كبير لا يتناسب مع حجمها الحقيقى، وتحمل أفكاراً وتطلعات أخذت تشق طريقها بقوة، الى حد انها الآن فى مرحلة قد تكتمل خلال جيل من النمو فوق العادى... نمو قسرى من جذور سطحية... لا ينتج نباتاً جيداً... لكن الادارة البريطانية هى التى بذرت البذرة بتعمد، وهى التى تتحمل مسؤولية خاصة فى ذلك<sup>(٦)</sup>.

لقد قامت الادارة البريطانية، بذلك واضح، بتسليم قيادة الحركة الوطنية للقوى التقليدية، واصبح (موقفها تجاه المتعلمين موقفاً عدائياً)<sup>(٧)</sup> ولكنها تراجعت لتعترف بدور المتعلمين وتخصيص دوائر "للخريجين" فى الهيئات التشريعية المنتخبة. وقد إستمر هذا التقليد لفترة طويلة بعد الاستقلال حتى أدى الصراع مع القوى التقليدية الى إلغائه بشكل نهائى. والواقع أن الشباب

الشماليين، كانوا على وعى كبير بتناقض المصالح بينهم وبين القوى التقليدية. وكانوا، باستمرار، فى موقف المعارض لكل الحكومات تقريباً، لمصلحة الأفكار والوسائل الثورية<sup>(٨)</sup>. فالحزب الشيوعى والأخوان المسلمون فى الشمال ظلوا يعارضون القوى التقليدية، وظلوا ينتزعون إعجاب وولاء غالبية الشباب، ورغم أنهم كانوا يتراجعون عن هذا الموقف عند الارتباط بالمؤسسة الحاكمة. أما موقف الشباب المتعلمين الجنوبيين، فقد كان معقداً بسبب الصراع العرقى الثقافى بين الشمال والجنوب. لذلك كانت معارضتهم مختلفة ومستقلة عن أحزاب الشباب الشماليين. فمع أن الحزب الشيوعى كان يطرح شعار الحكم الذاتى، إلا أن الجنوبيين فضلوا التحالف حول قضايا محددة وابتعدوا عن الأيديولوجيات. وكان طبيعياً أن يفشل الأخوان المسلمون فى خلق أى تحالف مع الجنوب، خاصة نخبة المسيحية. وعندما ظهر الشباب الجنوبيون كقيادة معترف بها للجنوب على المستوى الوطنى، بدأ الشباب الشماليون يختبرون امكانياتهم للقيادة الحقيقية. وبما أن مشكلة الجنوب كانت تمثل المشكلة الأكثر خطورة من بين مشاكل البلاد، فقد أصبحت المنبر المشترك لكل قوى المعارضة السياسية. وفى الوقت الذى كان فيه الجناح العسكرى فى الخارج يركز جهوده فى تصعيد العمليات العسكرية ضد الحكومة، كان الجنوبيون المتعلمون يركزون على العمل السياسى فى إطار النظام السياسى فى البلاد. وخلال فترة حكم الفريق ابراهيم عبود بدأ السودانيون يحسون بأهمية مشكلة الجنوب وعظمة تأثيرها على أوضاع البلاد- وهكذا، بدأ الأعضاء الشباب فى المجلس المركزى، من الجنوبيين والشماليين على السواء، فى مارس ١٩٦٤ مناقشات جادة حول المشكلة، تعرضت بالنقد العنيف لكل جوانب السياسات الحكومية فى الجنوب<sup>(٩)</sup>. وفى سبتمبر من نفس العام، كونت الحكومة العسكرية لجنة لدراسة "أسباب مشكلة الجنوب" وتقديم توصيات لحل المشكلة، فى إطار وحدة البلاد ونظامها السياسى، ودعت الحكومة كافة المواطنين لتقديم آرائهم للجنة المذكورة، ووعدت بتوفير الحرية الكاملة للجميع للتعبير عن وجهات نظرهم، وانتهز طلاب جامعة الخرطوم واساتنتها الفرصة وأقاموا ندوات مفتوحة ربطت بين مشكلة الجنوب ومشكلة الحريات والديمقراطية فى البلاد وأكدت أن مشكلة الجنوب لا يمكن حلها إلا بزوال النظام العسكرى الديكتاتورى وإقامة نظام ديمقراطى مكانه... ومن جامعة الخرطوم انطلقت الشرارة، وبدأ الشماليون يعلنون معارضتهم للسياسات الحكومية، بشكل عام، وفى الجنوب بشكل خاص. ومع اتساع المعارضة لم تكن الحكومة العسكرية قادرة على

مواجهتها. وخلال اسبوع واحد فقط تمكنت الانتفاضة الشعبية من إجبار الطغمة العسكرية على تقديم استقالتها في أكتوبر ١٩٦٤، وفتح الطريق للعودة للحياة السياسية المدنية في ظل نظام ديمقراطي برلماني يحكمه دستور انتقالي، هو دستور ١٩٦٥ المعدل.

كانت الحكومة الانتقالية، التي أعقبت الحكم العسكري، تتكون بشكل رئيسي، من المثقفين الشماليين والجنوبيين، ويقودها سرالختم الخليفة، وهو معلم له خبرة واسعة بجنوب السودان. وتم اختيار شخصيات جنوبية لتولي وزارة الداخلية، بأهميتها المعروفة، ووزارتين أخريتين. ولأول مرة منذ الاستقلال وجد المثقفون السودانيون، الشماليون والجنوبيون، انفسهم يقفون موقفاً سياسياً موحداً، أساسه الثقة والاحترام المتبادل<sup>(١٠)</sup>. وبدأت إشارات المصالحة تظهر الى العيان، رغم الاصطدامات التي حدثت في الخرطوم بين الشماليين والجنوبيين، وبين دينكا نقوك والمسيرية الحمر في كردفان، والتي راح ضحيتها عدة مئات من المواطنين. فقد اعترفت الحكومة الانتقالية بمشكلة الجنوب وتعهدت بالعمل على حلها عن طريق الوسائل السلمية، وذلك بعكس التوجهات السابقة عندما كان الاعتقاد بأنه ليست هناك مشكلة في الجنوب، أو عندما اعتبرت المشكلة نتاجاً للسياسات الامبريالية يمكن حلها بكل سهولة عن طريق تغيير تلك السياسات. ورغم ان رئيس الوزراء لم يسحب القوات المسلحة من الجنوب ولم يرفع حالة الطوارئ، إلا أنه أعلن خطوة هامة في اتجاه حل المشكلة بالدعوة لعقد مؤتمر، تشارك فيه كل القوى السياسية، الشمالية والجنوبية، ومشاركة الحكومة بصفة غير رسمية، في مارس ١٩٦٥، وذلك....

.. لمناقشة مشكلة الجنوب بهدف الوصول الى حل يلبي المصالح الاقليمية لجنوب السودان والمصالح الوطنية للسودان في نفس الوقت.. وعند مخاطبته للمؤتمر، حمل رئيس الوزراء مسؤولية المشكلة للسياسات البريطانية السابقة والحكومات الوطنية المتعاقبة. منذ الاستقلال، وخاصة حكومة عبود العسكرية، وأضاف:-

.. أن حلاً مناسباً يجب أن يقوم على أسس ثابتة من النوايا الحسنة، والايمان الصادق بالطرق الديمقراطية، والمعرفة الصريحة بالاختلاف، السابقة، والاعتراف الكامل بالاختلافات العرقية والثقافية الموجودة بين الشمال والجنوب، نتيجة للعوامل التاريخية والجغرافية التي أشرنا اليها (١١)

وجاء في كلمة البروفسير النذير دفع الله، مدير جامعة الخرطوم، ورئيس المؤتمر...

..أننى لا أتجاوز الحقيقة عندما أقول أن التجربة التى عشناها منذ الاستقلال، وخاصة خلال الست سنوات الأخيرة، قد خلقت موقفاً جديداً، وأن هذا الموقف هو الذى يجمعنا معاً اليوم. وأننى على ثقة، أيضاً، أن المندوبين الذين يجلسون فى هذه المائدة المستديرة يعلمون أن الجلوس بهذه الطريقة يعنى أنه ليس هناك أفضلية فى الترتيب، علاوة على ذلك، وهو أمر له مغزاه، أننا نجلس كإفريقيين، لكننا فى مساواة ولهدف واحد... هو... مصلحة السودان... (١٢)

لقد لخص الناطق باسم الجنوبيين وجهة نظرهم فى أربع نقاط:-  
الأولى: أنهم يرون أن العلاقة القائمة الآن بين الشمال والجنوب فرضتها إرادة خارجية، وأن رغبات وتطلعات سكان الجنوب لم تؤخذ فى الاعتبار...  
الثانية: أن هذه العلاقة قد تعرضت لتوترات حادة بسبب أفعال الحكومات الوطنية والأفراد الشماليين والمجموعات المؤثرة، خلال السنوات العشر الأخيرة، لدرجة أنها تتطلب إعادة نظر من قبل السودانيين الجنوبيين أنفسهم...  
الثالثة: أن الجنوب ظل متخلفاً فى مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ليس فقط بالمقارنة مع بقية أجزاء السودان، بل وبالمقارنة مع أى منطقة فى إفريقيا... وشعب الجنوب لا يمكنهم أن ينتظروا أكثر ليقوم الآخرون بالتخطيط لتنميتهم وتطويرهم... وهى مسألة ضرورية.... لتكسبهم مكانة لائقة فى أفريقيا المعاصرة، حيث تمثل مشاركتهم الكاملة فى تشكيلها، بشكل عام، ومساهماتهم فى إعلاء القيم الانسانية، واجباً أساسياً وحاجة ملحة....  
الرابعة:- أن مشكلة الجنوب لا يمكن حلها بعد اليوم عن طريق خليط من الأفكار، بل يمكن حلها، فقط، بوحدة القلوب... الشماليون يريدون وحدة (حسب شروطهم الخاصة)، ومن واجب المؤتمر (التأكد من مايريد الجنوبيون) (١٣).

وفى ضوء التأثير الذى حاولته العناصر الأكثر تقليدية، من خلال ممثلى أحزابها، من السهل تحديد الفجوة التى ظهرت، بالرغم من النوايا الطيبة للحكومة، فموقف العناصر التقليدية وتمحورها حول الاستمرارية السلالية، كمظهر للشعور العرقى، عبر عنه، بشكل واضح، السيد اسماعيل الأزهرى فى الكلمات التالية:-

(...أشعر فى هذا المنعطف بأننى مضطر لأعلن أننا نعتز بأصلنا العربى، بعروبتنا، وبكوننا مسلمون... العرب جاؤا الى هذه القارة، كرواد، لنشر ثقافة أصلية، واعزاز مبادئ سامية، أشاعت العلم والحضارة فى كل بقاع إفريقيا، فى وقت كانت فيه أوروبا غارقة فى دهاجير الظلام والجهل والكهنوت والتخلف

المربع... أن أجدادنا هم الذين حملوا المشعل عالياً وقادوا قافلة التحرر والتقدم... وهم الذين وفروا لثقافات اليونانيين والفرس والهنود بوتقة سامية، منحتها فرصة التفاعل مع كل ماهو سام ونبيل فى الثقافة العربية، وقدموها مرة أخرى لبغية العالم كدليل لكل الذين يرغبون فى توسيع آفاق العلم والمعرفة... (١٤).

المهم، أن الأحزاب الشمالية اقترحت نظام "حكم اقليمى" (١٥)، ورفضه الجنوبيون، واعتبروه معادلاً موضوعياً لـ "وحدة غير مشروطة" (١٦). وقدموا إقتراحاتهم الخاصة، التى تقوم على فيدرالية واسعة السلطات أو كونفدرالية. ورغم كل هذه الاختلافات، توصل المؤتمر الى عدة قرارات لتحسين الاوضاع فى الجنوب (١٧) وتوصل، أيضاً، الى... أن المؤتمر ناقش بعض أشكال الحكم المناسبة للسودان، لكنه لم يتوصل الى قرار جماعى، كما تنص أحكامه، لذلك عين المؤتمر لجنة من اثنى عشر عضواً للتداول حول موضوع البناء الدستورى والادارى، الذى يحمى مصالح الجنوب، ومصالح البلاد بشكل عام... (١٨).

وبعد شهرين من نهاية المؤتمر، تدهورت أوضاع البلاد وتراجعت علاقات الشمال والجنوب الى ماضيها الأسود- فقد أدت مثالية الانتلجنسيا، التى كانت تمسك بمقاليد الحكم، الى إعادة الديمقراطية البرلمانية واجراء إنتخابات عامة، كسبتها القوى التقليدية وجاءت حكومة جديدة، ترأسها محمد أحمد محجوب، الشخصية البارزة فى الحكومات التقليدية السابقة. وعلن المحجوب سياسة حكومته تجاه الجنوب فى ٢٥ يونيو ١٩٦٥، حددها فى الآتى:-

... ان حكومتى ستواجه مشكلة الجنوب، الموروثة من فترة الحكم الاستعمارى، بتبنى سياسة واضحة وصارمة، لتأكيد وحدة البلاد ورفاهية شعبها، دون تمبير بين المواطنين، ولن نسمح لأى تدخل اجنبى وسنعمل على تصفية المنظمات الارهابية والتكتلات غير المشروعة عن طريق منع حمل السلاح غير المشروع وجميعه... وقوات الأمن مخولة تخوياً كاملاً للتعامل مع كل من يحاول تهديد أمن المواطنين وعرقلة تقدمهم... (١٩)

وفى وقت لاحق أكد، مرة أخرى، أن حكومته (ستقوم بالسيطرة الكاملة على السلاح قبل الوصول الى حل للمشكلة السياسية فى جنوب البلاد....) وكان رد فعل الجنوبيين قوياً وسريعاً، حيث نشرت صحيفة The Vigilant مقالاً افتتاحياً جاء فيه ...

...هناك عدد كبير من الجنوبيين لا يعتقدون أنه قد حدث تغيير فى النوايا من جانب الشماليين، وأن الحديث الكثير والمتكرر عن الحل السلمى ليس أكثر

من كلام. قاموا بتوضيح وجهة نظرهم هذه بشكل واضح. ونأسف جداً لنبلغ رئيس الوزراء أن فرص الحل الدائم لمشكلة الجنوب عن طريق القوة العسكرية لاتزال بعيدة جداً... تحدث رئيس الوزراء عن الحل السلمى بعد سحق المقاومة!! لكن الحل السلمى يعنى، كما نفهمه، حلاً يجنبنا سفك المزيد من الدماء...<sup>(٢٠)</sup>.

### (ج) الحكم الذاتى الاقليمى للجنوب وظهور مشاعر الوحدة الوطنية:-

لقد جاء انتصار قوى التغيير والأمل في المصالحة بين الشمال والجنوب فى مايو ١٩٦٩، عندما قام صغار الضباط، بقيادة العقيد جعفر نميرى، بالاستيلاء على السلطة وعلان برنامج اشتراكى لكل السودان وحكم ذاتى اقليمى للجنوب. وبدأ صغار الضباط تحالفاً مع القوى الثورية، وخاصة الحزب الشيوعى. وعندما تحركت دوائر المعارضة من مواقع طائفة الانصار، واجهتها الحكومة الجديدة بقوة وشراسة، أدت الى سحقها. وفى التشكيل الوزارى الجديد استحدثت وزارة لشئون الجنوب، تحت اشراف جوزيف قرنق، الشيوعى الجنوبي البارز، الذى أعلن... أن أسباب مشكلة الجنوب تتمثل فى عدم المساواة القائمة بين الشمال والجنوب، الناتجة من التطور غير المتكافئ فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. وكل توترات العلاقة بين الشمال والجنوب تنبع من هذه الوضعية...<sup>(٢١)</sup> ونتيجة لذلك يرى جوزيف قرنق أن الحل يتركز فى التنمية وردم الفجوة القائمة بين المنطقتين<sup>(٢٢)</sup>، ولتقوية مركز وزارته قام بتعيين مجموعة من العناصر الراديكالية فى المناصب الرئيسية ونقل بعضها الى الجنوب نفسه. وأعاد أعداداً من اللاجئين الذين جذبهم شعار الحكم الذاتى الاقليمى. ولكن التطبيق الكامل للبرنامج المطروح لم يتم، بسبب عدم الاتفاق على تفاصيله، ولأن قرنق كان يفضل إجراء خطوات عملية فى اتجاه التسوية الدستورية. ومن جانب آخر، كان الجنوبيون يعتقدون فى خطأ موقفه الأساسى من قضية الجنوب، فاتهمه بعضهم بأنه يجرى وراء السلطة بدوافع شخصية، معادية لمصلحة الجنوب ومعارضة لتطبيق برنامج الحكم الذاتى الاقليمى. ومع أن الجنوبيين قد رحبوا باعلان البرنامج الجديد بحماس شديد، واصلوا تأييدهم للحكومة الانقلابية، إلا أن مرور الوقت دون حدوث أى تغيير جدى فى أرض الواقع أعادهم الى موقف التشكيك فى نوايا الحكومة.

وفى هذا الوقت كانت أوضاع التحالف بين الحكومة والشيوعيين تتدهور فى اتجاه الصدام بينهما. ومع أن بعض الشيوعيين، بما فى ذلك قرنق



نفسه، ظلوا فى مواقعهم بمجلس الوزراء، فقد انفجر صراع مفتوح بين الحزب الشيوعى والسلطة الانقلابية، قاد الى ابعاد معظم المرتبطين به من مواقع الحكم. ووصل هذا الصراع نهايته بمحاولة انقلاب ١٩ يوليو ١٩٧١، التى انتهت بعودة نميرى الى السلطة، بعد ثلاثة ايام، واعدام الذين قاموا بالمحاولة، بما فى ذلك جوزيف قرنق نفسه. وفى اول تشكيل وزارى بعد القضاء على المحاولة، عين ابييل الير فى وزارة شئون الجنوب، وهو من الشباب الجنوبيين، الذين لعبوا دوراً بارزاً فى السياسة الجنوبية، وكسب ثقة الجنوبيين المتواجدين فى الداخل، وثقة قسم كبير من المتواجدين فى الخارج. وتخوف الجنوبيون وعدم ثقتهم فى الحزب الشيوعى، من خلال عدم ثقتهم فى جوزيف قرنق، عكست نفسها أولاً فى وقوفهم خلف نميرى، وبشكل خاص لان انقلاب ١٩ يوليو ١٩٧١ اتهم نميرى باحتضان العناصر الجنوبية الانفصالية. وبعد القضاء على الانقلاب الشيوعى، قدم نميرى نفسه للشعب السودانى فى استفتاء شعبى، تم فيه إختياره رئيساً للجمهورية باغلبية ساحقة، وعين ابييل الير نائباً للرئيس بجانب مسؤوليته عن وزارة شئون الجنوب. وفى هذا الوقت عمل ابييل الير على دفع الرئيس للتفاوض مع الحركة الجنوبية المسلحة كطريق وحيد لايقاف الحرب واستعادة السلام، وهى الاستراتيجية التى كان يرفضها جوزيف قرنق. وبمجرد أن بدأت المفاوضات، ظهرت أمام الطرفين المتحاربين فرص واسعة للوصول الى تسوية عادلة، وبذلت الوفود المشاركة فى المفاوضات جهوداً مضنية، كانت نتيجتها التوصل الى وثيقة مُنح بموجبها الحكم الذاتى الاقليمى للجنوب. وبعد التوقيع على الاتفاقية من قبل الطرفين، حولها نميرى الى قانون، هو قانون الحكم الذاتى الاقليمى للمديريات الجنوبية لسنة ١٩٧٢. وفى الثالث من مارس من نفس العام بدأ تطبيقه فى الواقع العملى. وفى ذلك اليوم وجه نميرى خطاباً هاماً للشعب، جاء فيه:-

(.. لقد صدر إعلان التاسع من يونيو بعد شهر واحد فقط من قيام الثورة، وطرح الحكم الذاتى الاقليمى للجنوب فى اطار السودان الموحد.. ولكن خيانة وغدر الذين وثقنا فيهم لتنفيذ هذه السياسة فى الجنوب، تماماً كرفاقهم فى الشمال، ظلوا يعملون على عرقلة أى تقدم عملى لبرنامج الحكم الذاتى الاقليمى... هؤلاء، وتعرفونهم جيداً، قد استغلوا مواقعهم الرسمية لمصلحة رغباتهم ومصالحهم الحزبية الضيقة.. واعاقة السياسات الثورية الخاصة بالجنوب.. واكتسب التخريب ابعاداً واسعة جعلت الجنوبيين يشكون فى صدق نوايانا. وان مانقوله هو مجرد وعود كسابة... ولكن الموجة الثورية التى

اكتسحت البلاد بعد فشل انقلاب الشيوعيين، الخونه والعملاء، تلك التي صاحبت معركة الاستفتاء، قد فتحت آفاقاً جديدة لبلادنا... فقد أصبح من الممكن الوصول الى تسوية تصون وحدة البلاد وتحافظ عليها... وتلبى تطلعات الجنوب في نفس الوقت... لقد بذلت وزارة شئون الجنوب جهوداً مضنية، تحت اشراف الاخ أبيل الير، نائب رئيس الجمهورية، وهو رجل أعرفه منذ ثلاث سنوات ويعجبني فيه تسامحه وبراعته وإخلاصه، وكان ذراعاً اليمين في كل الخطوات المتعلقة بذلك الجزء العزيز من بلادنا، الجنوب...<sup>(٢٣)</sup>.

ينص قانون الحكم الذاتى الاقليمى على انشاء مجلس شعب اقليمى منتخب ومجلس تنفيذى عالى معين، يكون رئيسه رئيساً للاقليم. والمجلس الاقليمى مخول بالتشريع الخاص بصيانة وضبط النظام العام والأمن الداخلى، والادارة الكفؤة وتنمية الاقليم الجنوبى اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، وتفصيل هذه المجالات حددت لتشمل :- تنمية واستغلال الموارد المالية للاقليم لتنميته وادارته... تنظيم الجهاز الادارى الاقليمى والمحلى... الاعتماد في التشريع على العادات والاعراف المحلية التقليدية في إطار القوانين الوطنية... انشاء وصيانة وادارة السجون والمؤسسات الإصلاحية... انشاء وصيانة وادارة المدارس العامة في كل المستويات وفقاً للخطط الوطنية في مجالات التعليم والتنمية الاقتصادية والاجتماعية... تنمية اللغات والثقافات المحلية... تخطيط القرى والمدن وتشيد الطرق وفقاً للخطط والبرامج الوطنية... تنمية التجارة... انشاء الصناعات والاسواق المحلية... اصدار الرخص التجارية وتكوين الجمعيات التعاونية... انشاء وصيانة وادارة المستشفيات العامة... ادارة خدمات الصحة والبيئة ورعاية الامومة والاطفا ورفاهيتهم... الاشراف على الاسواق... مكافحة الأمراض الوبائية... تدريب المساعدين الطبيين والقبالات الريفيات... انشاء المراكز الصحية والشفخانات... وتنمية صحة الحيوان ومكافحة الامراض الوبائية وتطوير الانتاج الحيوانى وتجارته... تطوير السياحة... انشاء حدائق الحيوان والمتاحف وتنظيم المعارض التجارية والثقافية ... التعدين والتعجير دون إخلال بحقوق الحكومة المركزية فى الغاز الطبيعى والمعادن المكتشفة... إستخدام وتنظيم وادارة خدمات الشرطة والسجون وفقاً للخطط والمستويات الوطنية... استخدام الاراضى حسب الخطط الوطنية... مكافحة الحشرات ووقاية النباتات... تنمية واستغلال وحماية منتجات الغابات والمراعي وفقاً للقانون الوطنى العام... تنمية وتشجيع مشاريع العون الذاتى... وكل المسائل الاخرى التى قد يخولها رئيس الجمهورية للمجلس الاقليمى.

أما المجلس التنفيذي العالى، فهو يعمل بالنيابة عن رئيس الجمهورية، هو مسؤول امام الرئيس والمجلس الاقليمى فى ادارة الاقليم بطريقة كفؤة، ومخول بتحديد واجبات واختصاصات المصالح الحكومية المختلفة فى الاقليم الجنوبى، ماعدا المسائل المرتبطة بوزارات ومصالح الوزارات المركزية، إلا بموافقة من رئيس الجمهورية.

والمسائل المستبعدة من اختصاصات وسلطات المجلس الاقليمى والمجلس التنفيذى العالى تشمل الدفاع الوطنى، الشئون الخارجية، النقد والعملية المعدنية، المواصلات النهرية والطيران، الاتصالات والمواصلات، الجمارك والتجارة الخارجية باستثناء تجارة الحدود وبعض السلع التى قد تحددها الحكومة الاقليمية بموافقة الحكومة المركزية، الجنسية والجوازات والهجرة، التخطيط للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، التخطيط التربوى والمراجع العام.

فى حديثه بمناسبة اعلان قانون الحكم الذاتى الاقليمى، أشار الرئيس نميرى، بتركيز خاص، الى الفقرات المتعلقة بالقوات المسلحة واللغة، ويقال انها خضعت الى مناقشة واسعة أثناء المفاوضات. فموضوع القوات المسلحة يتعلق بتمثيل الجنوب، حسب نسبة سكانه، السيطرة الاقليمية على القوات المتواجدة فى الجنوب، والاجراءات المؤقتة لاستيعاب عناصر جيش الانانيا- والفقرات الخاصة باللغة تجعل اللغة العربية اللغة الرسمية للسودان..

...وهذه ليست خاضعة للتفاوض.. لخواننا فى الجنوب وافقوا عليها فى الاتفاقية الاصلية.. وعلى أي حال، لقد وافقنا، بعد أن أخذنا فى الاعتبار عناصر عملية معينة، على أن نستخدم اللغة الانجليزية كلفة عمل فى الاقليم الجنوبى، بجانب اللغات المحلية الأخرى، التى قد تكون مفيدة لترقية العمل الادارى أو تحت ظروف معينة... (٢٤)

والفقرات الأخرى، ذات الاهتمام الخاص، تشمل حرية الحركة وضمان فرص التعليم المتساوية،... الأولى تؤكد على حرية كل المواطنين فى الحركة وإن تقييد الحركة أو منعها يمكن أن يشمل مواطناً محدداً، أو عدداً من المواطنين، على أسس تتعلق بالصحة العامة والنظام العام. والفقرة الثانية تؤكد ضمان المساواة فى فرص التعليم لكل المواطنين فى الاقليم الجنوبى، بالإضافة إلى الاستخدام والتجارة وممارسة أى مهنة مشروعة. وحقوق المواطنين بهذا المعنى يجب أن تصان ولا تتعرض للضرر بسبب العرق أو القبيلة أو الاصل أو الدين أو مكان الميلاد أو الجنس -وأخيراً، هناك فقرة تقول

...أن المجلس الاقليمى سيعمل بكل طاقته لتدعيم وتعزيز وحدة السودان واحترام الدستور.. (٢٥)

وفى إشارة الى الاهمية التى يعلقها على التسوية، أعلن رئيس الجمهورية... (تقديراً لهذا اليوم البارز فى تاريخنا الوطنى، رأيت من المناسب أن يكون يوم الثالث من مارس، فى كل عام، يوماً نحتفل فيه ونقيم المهرجانات احتفالاً بيوم وطنى، نسميه، من الآن فصاعداً، "يوم الوحدة الوطنية"... إنه باسم عظمة هذا اليوم، أدعو كل وطنى، فى عموم أرجاء البلاد، أن يعتبر هذا اليوم بداية عهد جديد لوحدة التراب السودانى، وأن ينظر اليه كرمز لسلام دائم وازدهار وتقدم اقتصادى لسودان جديد...) (٢٦).

وإذا كانت الاتفاقية لم تتحدث عن السياسة الدولية، الا أن حديث الرئيس نميرى، الذى وضعت كلماته بدقة واضحة، جاء، كما يبدو، ليوضح لماذا لم يتبع اعلانه الاصلى الخاص بانضمام السودان لاتحاد الجمهوريات العربية. فقد قادت المعارضة الداخلية الى تأخير انضمام السودان للاتحاد، ودفعت الرئيس الى القول بأن مثل هذه الخطوة يجب أن تنبع من جماهير الشعب، وأن السودان سينضم للاتحاد عندما يعبر الشعب عن رغبته واستعداده لذلك. ويبدو أنه كان يشير الى هذا الموقف، بارتباطه الوثيق بالجنوب، عندما أكد أن...  
...سياستنا الخارجية ثابتة فى مبادئها وأهدافها... لقد دخلنا فى هذا

الطريق لمصلحة السودان ولتأكيد وحدته... سرنا فى هذا الطريق لمواجهة مسؤولياتنا النابعة من كوننا جزءاً من العالم العربى، ومن معرفتنا بحقائق واقعنا... سرنا فى هذا الطريق، أيضاً، لأننا جزء من أفريقيا، لتحسين علاقات الجوار، وايضاً حركة التحرر الافريقى، لتقف به من أجل السلام والحرية لكل الشعوب... (٢٧).

وأشار رئيس الجمهورية، أيضاً، الى أهمية التسوية لافريقيا بشكل عام، لأن...

...اتفاقية أديس أبابا انتصار للسودان ولافريقيا بأجمعها.. كل أجهزة الإعلام أشادت بها... أن التنوع الثقافى والعرقى يمثل سمه مشتركة فى كل الاقطار الافريقية، وليس هناك قطر افريقى واحد بعيد عن مثل هذه الصعوبات التى يعانى منها السودان، نتيجة للسياسات الاستعمارية... ونجاحاً فى تسوية هذه المشكلة انتصاراً لقارتنا بأجمعها، ستمنحها أملاً جديداً وإيماناً جديداً بالوحدة الوطنية، رغم الاختلافات الثقافية والعرقية وغيرها... (٢٨).

وفى المقابلة، التى أشرنا اليها سابقاً، رأينا أن الزعيم الدينكاوى قد وصف، بأسهاب، تاريخ تجارة الرقيق، معاناة الدينكا من بطش ونهب الاتراك والعرب، والخسائر الباهظة فى الماشية ووسائل الحياة الأخرى والخوف الدائم من القتل، ثم أضاف:

...هذا ما حدث تقريباً مرة أخرى، وإذا لم يحقق نميرى هذا السلام، كنتم سترون وضعاً أكثر سوءاً... نميرى هذا رجل عظيم لأنه حقق السلام، وحتى إذا لم يستمر هذا السلام، يكفي أنه فعل ما في وسعه....

وكما يحدث في كل أنحاء السودان، حيث يستقبل الناس إى حدث هام بالاغانى، والآناسيد، رحبت الأوساط التقليدية والحديثة في الجنوب بالحكم الذاتى الاقليمى الذى منحته الاتفاقية للجنوب، والمقاطع التالية من أغنية ردها لبناء قبيلة الدينكا ترحيباً بهذا الحدث الهام:-

لقد أرسل القادة

أرسل القادة إلى اثيوبيا

أبيل أدير هو رئيس فريق المفاوضات

أبيل أدير سأل رئيس البلاد:-

كيف تعيد الأمن والسلام لبلادنا؟

كيف نعيد توحيد بلادنا؟

كيف تعيد الاستقرار للسودان؟

كيف نعيد الاستقرار للجنوب؟

رئيس البلاد أجاب بصوت واضح:-

"الاحقاد لن تفيدنا فى شيء

لن نعيش أكثر من ذلك مع الاحقاد

لن نعيش معها في بلادنا، السودان"

لقد رفعت الراية

راية السودان الجديدة رفعت

من هو رئيس الثورة؟

نميرى هو رئيس الثورة

هو رئيس الحكومة

هو الذى يقود بلادنا

هو زعيم الجنوب والشمال

بلادنا، السودان، أصبحت بلادنا

بلادنا تتطلع الآن لمستقبل زاهر

سننتظر ونرى

سننتظر قائدنا

لنرى... هل سيكون مثل القادة السابقين؟

لن يكون مثلهم

## الهوامش

(١) يقول مدثر عبدالرحيم «لقد أصبحت تجارة الرقيق اليوم مجرد ذكرى لحدث تاريخى بعيد، ولكن ذلك لم يمنع استخدامها بواسطة أعداء وحدة السودان، كسلاح دعائى مؤثر- والسياسة البريطانية، من جهة أخرى، حملت السودان المستقل باكثر مشاكله صعوبة من خلال خلق شكل من الوطنية المحلية فى الجنوب، تتحدث باسم الاقليم فى مجموعه، رغم أنها لم تجد قبولاً عالمياً، وتواجه السلطة الحكومية بالعنف المسلح، كدولة جنوبية منفصلة، مدعومة من قبل اسرائيل ودول أجنبية أخرى»، ص ٨، كتاب الامبريالية والقومية فى السودان، مصدر سابق

(٢) K. D. D. Henderson, op.cit.,p. 183

(٣) Muddathir, op.cit.,p. 6.

(٤) Arabism, Africanism and Sel-indentification in the Sudan, in Yusuf Fadl Hasan, ed, Sudan in Africa, p. 237.

(٥) بينما كان السودانيون الشماليون، قبل أربعة أو خمسة عقود، يعرفون أنفسهم كمسلمين وعرب فقط، هناك الآن، على الأقل، بعض الشماليين، بالاضافة الى الجنوبيين، الذين أصبحوا، فى عصر القومية الافريقية والجامعة الافريقية السائد الآن، يعرفون انفسهم بهوية افريقية صافية تستبعد أى تأثير عربى أو إسلامى. Muddathir Abdel-Rahim, op. cit, p.235.

Muddathir, Imperialism and Nationalism, op. cit,p. 109٦

(٧) Ibid, p. 110.

(٨) Their Finest Hours, op.cit.

(٩) فى كتاب بعنوان (مسألة جنوب السودان) لشار الصادق المهدي الى أن اللغة العربية والاسلام هما لغة غالبية السودانيين، وبالتالي، هما اللغة الرسمية والدين الرسمى للسودان، وركز على أهمية التنمية الاقتصادية فى الجنوب كخطوة فى اتجاه خلق نوع من العدالة والتوازن بين الشمال والجنوب، وبالتالي تقوية وتعزيز المشاعر الوطنية المشتركة بين الطرفين، وأشار أيضاً، الى أن المشكلة، فى بعض جوانبها، ترجع الى فشل الاداريين فى الجنوب. لذلك اقترح ضرورة الاهتمام باختيار الاداريين المرشحين للعمل فى الجنوب، وفضل الجنوبيين أنفسهم اذا ماتوفرت المؤهلات اللازمة.

(١٠) فى مخاطبته للجنوبيين، فى إحدى زيارته للجنوب، أكد كلمنت أمبورو، وزير الداخلية وقتها، فى كلمته على الآتى:-

«ان حكومتكم الجديدة، يقودها رجال يتميزون بالنوايا الطيبة والايمان بالديمقراطية لكل السودان، بما فى ذلك انتم، وساهموا فى اسقاط الديكتاتورية العسكرية بسلاح الاضراب السياسى... حكومتكم اعترفت، لأول مرة فى تاريخ هذه البلاد، بان هناك اختلافات اثنية

وثقافية وجغرافية بين الشماليين والجنوبيين... وإن مشكلة الجنوب، كما يقول رئيس الوزراء "هى الأكثر أهمية وألحاحاً فى هذا الوقت... لذلك يجب مواجهتها بسرعة وفعالية عالية"... وإن إستخدام القوة لا يمكنه أن يحل هذه المشكلة المعقدة... إن الجنوب لم يكن يملك خياراً، فى مواجهة الحكم العسكرى، سوى مواجهة القوة بالقوة. ولكن كل الاشياء السيئة تصل الى نهاية، وأمل أن تكون هذه بداية لنهاية كل معاناتنا فى هذا الجزء من بلادنا... ان المشاكل لا يمكن حلها بالحقد والكراهية... يجب الا نكره الشماليين الابرياء فى الجنوب ولا نحقد عليهم... ذلك لا يخلق أمة... لذلك أدعوكم، اخوانى الجنوبيين، اينما كنتم، لتوفروا اليوم مناخاً تختبر فيه سياسات الحكومة الجديدة، التى أمثلكم فيها، وأمل أن أرى ذلك اليوم، انه ليس ببعيد، حيث يعود الجميع للحياة الطبيعية.

(١١) فى الخطاب الافتتاحى لرئيس الوزراء، السيد سرالختم الخليفة، ٥-٦.

(١٢) ١ - ٢

(١٣) كلمة جبهة الجنوب، ١٠.

(١٤) كلمة الازهرى ٢-٤.

(١٥) مقترحات الاحزاب الشمالية.

(١٦) متضمن فى وثيقة من الجنوبيين فى ردهم على مقترحات الشماليين.

(١٧) الخطوات المباشرة التى تقرر اتخاذها شملت تنفيذ اجراءات خاصة باعادة

وتوطين اللاجئين، بالاضافة الى المتواجدين الذين دمرت منازلهم وممتلكاتهم، ومواجهة ظروف المجاعة فى بعض اجزاء الجنوب التى تأثرت بالحرب، واعادة كل المدارس الجنوبية، التى حولت الى الشمال بسبب ظروف الحرب، للجنوب. واقترح المؤتمر، ايضاً، خطوطاً معينة للسياسة التى يجب ان تتبع، وشملت: اختيار المزيد من الجنوبيين للتدريب كضباط شرطة، وسجون، واداريين وضباط فى القوات المسلحة، وضباط صحة عامة، ومساعدين طبيين، وضباط غلات، وضباط صيد واسماك، وجنوبية الادارة والشرطة والسجون والاعلام، حيثما توفر الجنوبيون المؤهلون لذلك أو باتخاذ خطوات لتدريبهم وترقيتهم اذا لم يتوفر الجنوبيون المؤهلون، المساواة فى فرص الاستخدام والاجور دون تمييز على أساس الدين أو اللغة أو العرق، ضمان حرية الاديان والنشاط التبشيري فى اطار القوانين السارية، السماح للأفراد والمؤسسات الخاصة بفتح المدارس بشرط الالتزام بقوانين البلاد، فتح مدارس ثانوية للبنات ومدرسة زراعية، اعادة تأسيس مدرسة زراعية ومركز تدريب ومركز خدمات بيطرية، توقفت كلها بسبب ظروف الحرب، وكل للمدارس الجنوبية يجب ان يديرها جنوبيون اكفاء مع عدم اشتراط معرفة اللغة العربية لوظيفة ناظر المدرسة، ايجاد وظائف للشباب الجنوبي، انشاء مجلس قومى للتنمية الاقتصادية مع وكاله اقليميه فى الجنوب، اعطاء أولوية للسكان المحليين فى إستغلال الاراضى مع التسهيلات الضرورية Press Release No. 12, March 23, 1965.

(١٨) Press Release cited (Supra) for more on the conference and

southern Problem,

كذلك M. O. Beshir, The Southern Sudan Background to Conflict,

(٢٢) ان التزام جوزيف قرنق بالتنمية كحل حقيقى لمشكلة الجنوب توضحه لنا هذه الفقرة المقتطفة من خطاب القاه فى مجلس العموم البريطانى، فى ابريل ١٩٧٠، أمام مجموعة من البرلمانين والاعلاميين والنقابيين والكتاب، حيث يقول (...أما بالنسبة لمشكلة ثوارنا فى الغابة أو يوغندا، الذين يهددون باثارة اضطرابات، والذين يتصلون بمنظمات وحكومات اجنبية معينة، فان كل مانقوله لهم هو هذا... سنبنى نحن ودمروا انتم، سنبنى المدارس فاحرقوها انتم، سنبنى المدارس فقوموا بتحطيمها... سنشيد الطرق، وعليكم ان تحرقوها وتحطموا الجسور... شعب الجنوب هو الذى سيقدر ويعرف من يبنى ومن يدمر؟ وفى النهاية شعب الجنوب هو الذى سيحدد من هم قاتته؟ الذين يدمرون كل شىء؟ أم الذين يبنون؟....) Ibid., 25 وفى وقت لاحق اصبح قرنق ينتقد الحكومة لانها لم تتبع منهجه فى العمل فى الجنوب بالسرعة المطلوبة، ففى مؤتمر صحفى عقده فى الخرطوم فى نفس الشهر والسنة، أكد أنه... (...صحيح أننا أعلننا سياسة واضحة تجاه الجنوب، لكن المهم هو تطبيق هذه السياسة... المهم هو ماذا فعلت كل وزارة للوفاء بالتزامها فى تنفيذ الخطط والمشروعات المتفق عليها... العمل لم يجرى بالسرعة المطلوبة... بالانجازات فقط، التى يراها الدينكا والنوير العاديون أمام عيونهم، نستطيع مولجة دعايات الامبريالية... الخطر الحقيقى الذى يواجه الثورة، سيندلع من الجنوب، وليس من الجزيرة أبا، حيث هزم تحرك الامام الهادى بكل سهولة....) Id., 34

(٢٣)

D.R. of the Sudan, Permanent Mission to the U. N., Settlement of the Problem of the Southern Sudan, 102

Ibid, p. 506 (٢٤)

Article 30 (٢٥)

(٢٦) خطاب الرئيس، ٨.

Ibid., pp. 9-10. (٢٧)

Ibid., p. 6. (٢٨)

Permanent Mission to U. N., Press Release, Joseph Lagu (٢٩)

Back in Khartoum, 1972



## الفصل السادس

### الثقافات الجنوبية

#### جذور الهوية:

لقد رأينا، فى وقت سابق، كيف تم تشكيل الشماليين عن طريق عملية تعريب وأسلمة، قامت علي متن النظم التقليدية السابقة، وكيف أن هذه النظم التقليدية قد قادت، في الفترة الأخيرة، إلى ظهور حركة معارضة مركبة، قادت بها قوى الشباب، القوى الأكثر حداثة في المجتمع، وتمكنت من أحداث تغييرات معينة في رموز الهوية، ووفرت، نتيجة لذلك، أرضية مناسبة للاعتراف بالهوية الجنوبية ومنحها الحكم الذاتي الاقليمي. رأينا، أيضاً، كيف قاوم الجنوب عملية التعريب والإسلمة، بسبب الطرق والأساليب العدوانية التي استخدمت لاستيعابهم... فهل يعني ذلك أن الثقافات الجنوبية مختلفة عن الثقافات الشمالية في دينامياتها لإعادة بناء الهوية؟ وإلى أي مدى سيهيء التركيب الداخلي للجنوب نفسه، عن طريق انقسامه بين التقليدية والحداثة، لنوع من إعادة تقييم الهوية، مثل الذي ظل يجري في الشمال؟ هذه الاسئلة تمثل مدخلاً هاماً لأجل الوصول إلى فهم أفضل لمشاكل الماضي، وأهلية الحاضر واستحقاقاته وامكانيات المستقبل.

في دراستنا للثقافات التقليدية في الجنوب، ومساراتها الحاضرة والمستقبلية، سنركز على ثقافات القبائل النيلية Nilotics وخاصة ثقافة الدينكا، ليس فقط لتعميق تحليلنا، ولكن، أيضاً، لأن هذه القبائل تمثل الأغلبية الساحقة لسكان الجنوب. وقبيلة الدينكا، وحدها، تمثل أكبر مجموعة إثنية في السودان، ولغة الدينكا هي اللغة الثانية في البلاد، بعد اللغة العربية حسب نسبة السكان الذين يتحدثون بها.

#### (أ) نظام القيم عند القبائل النيلية:

لقد كانت حياة القبائل النيلية، ولا تزال، تتمحور، بشكل كبير، حول قيم أساسية بجانب النسل والانجاب كأساس ومقياس للتقسيم والترتيب الاجتماعي. وبما أنها تهدف إلى الخلود والبقاء البيولوجي والاجتماعي، من

خلال الذكور، فإن النسل والانجاب يمنح الاسلاف وعالمهم الروحي سيادة وتوقفاً مطلقاً على كل المخلوقات الفانية، التي تقسم وترتب وفقاً للعمر والجنس، حيث يقف الذكور في قمة الهرم والنساء في قاعدته الدنيا- والنسل والانجاب، أيضاً، يقسم المجتمع على طول خطوط نسب وسلالات، الى عامة وارشتراطية تتركز فيها الزعامة القبلية، ولكن النسل والانجاب هو نقطة بداية، فقط، لمركب مجموعة قيم ومؤسسات، تضبط وتوازن بعضها البعض وتقوم بتعويض المتضررين من عمل النظام الاجتماعى. وفى هذا المركب، تقف قيم الحب والعواطف والاحترام والاستقامة، والقدرة على التأثير والاقناع، فى مكان أعلى من موقع القيم المادية مثل: الثروة، المعرفة العلمية، المهارة الفنية، الصحة الجسدية. وفى قلب قيم الطاعة والاحترام يقف مايسميه الدينكا cieng، كمفهوم للعلاقات الانسانية الرفيعة، فمهما كانت درجة عدم الاحترام المتضمن فى تراتبيه العمر والجنس والنسب والسلالة و فأن مبادئ الـcieng، مدعومة من قبل مثل الكرامة الانسانية، المعبر عنها فى لغة الدينكا بكلمة dheeng تقوم بأعطاء كل شخص، ليس فقط الحق فى التقدير والاحترام، ولكنها تعطيه، أيضاً، مسالك بديلة للكرامة والاحترام والتقدير. إذ أن جمال قطعان الماشية وقيم الغناء والرقص الحسية، والاعجاب بالقوة المادية والشجاعة، وتوقع أى شخص أن يكبر فى يوم ما؛ تجعل الشباب يتطلع إلى قطف ثمار الكهولة والشيخوخة، ولكنهم يحصرون انفسهم فى مسرات وملذات الحاضر. وتقوم النساء بحفظ وصيانة هذا النظام القيمى، فيتقبلن التراتبية، ويبجلن فى اعتزازهن بأنفسهن كزوجات وأمهات للرجال. أما العامة والفقراء، فأنهم لا يرون أى فجوة بينهم وبين الأثرياء أو الزعماء، لأن قيمة الوعي الاجتماعى المسيطرة تقوم بمواجهة أى معاملات مهينة مرتبطة بالتقسيم والتراتب الاجتماعى.

إن الحرمان التقليدى له، بالطبع، تأثيراته السلبية، التى قد تتمثل فى الروح العدوانية والعنف، مشاكل الابقار والشباب والحسد والغيرة، الشقاق والخلاف، الاستحواذ بواسطة أرواح النساء غالباً بسبب تعدد الزوجات ولكن، مع أن هذه الجوانب تعكس الاستياء وعدم الرضى، إلا أنها لا تهدد، بأى حال، النظام أو التوازن القائم فى المجتمع.

### (ب) التمرکز حول العرق والاستمرارية والذاتية المرتبطة بالنظام القيمى؛

أن تحليل نظام القيم النيلى يكشف عدد من المعاني والاشارات المتضمنة

فى داخله ويتمثل أكثرها وضوحاً فى: التركيز حول العرق والثقافة، مقاومة التغيير، والتجزؤ التلقائى. فإذا أردت أن تهجر تقليداً معيناً، عليك أن تنكر وجود الأسلاف ومساهماتهم فى ثقافة ذريتهم. لذلك فإن أى محاولة لإلغاء عادة عتيقة تقابل برد فعل سريع يؤكد (أن كلماتك صحيحة، لكن، أنها عادة أجدادنا منذ زمن بعيد...) وريطها بالأسلاف، هكذا، يقصد به تأكيد شرعيتها وثباتها غير القابل للنقاش.

فى كتابه (الكنيسة المسيحية فى السودان مابعد الحرب العالمية) وضع ترمنجهام الملاحظات التالية فى عام ١٩٤٨، حيث أشار إلى أن:-

«أحد محدّدات سرعة أو بطء انتشار المسيحية فى جنوب السودان يوفرها لنا التناقض بين شبه الرعويين، رعاة الأبقار، وسط القبائل النيلية (الشلك، الدينكا، النوير)، والمزارعين المستقرين. فحياة المجموعة الأولى ترتبط باقتصاد الأبقار، حيث تحول هذا الحيوان إلى إله حقيقى.... وهم محافظون بدرجة عالية وفخورون بحضارتهم... وظلوا يمثلون حصناً منيعاً ضد تغلغل الإسلام، وأكدوا بالفعل صنودهم فى وجه كل المحاولات.. لذلك تطلب العمل المسيحى فى أوساطهم، منذ البداية، معاملة خاصة. ومع ذلك، فقد بدأوا الآن فقط الاستجابة، بدرجة أو أخرى، لكنوز رسالة المسيح... وبالتالي، من المهم، الآن مع بداية تحطم الحواجز، بالنسبة لتغلغل أفكار وطرق حياة جديدة، أن الجهود التبشيرية يجب أن تكثف فى أوساطهم، لأنه، مع نشر المسيحية فى حضارتهم، يمكنهم المحافظة على خصائصهم الأثنية المتفردة، ويمكنهم أن يجدوا مكانة حقيقية فى إطار تركيب السودان الأوسع»<sup>(١)</sup>

والمواقع أن ملاحظات ترمنجهام يشاركه فيها عدد كبير من المراقبين الذين احتكوا بالقبائل النيلية. فقد كتب أودري بت يقول:-

«أن القبائل النيلية تعتبر منطقتها هى الأفضل والأحسن فى العالم، وتنظر إلى كل الآخرين باعتبارهم أدنى منها. ولهذا السبب... احتقروا ثقافات العرب والأوربيين... وموقفهم تجاه أى سلطة تحاول أن تبطش بهم وتقمعهم، يتميز بالحساسية المفرطة، وبالاحتقار والازدراء والكراهية العمياء لهيمنة الغرباء، مع استعداد دائم للدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم من غزوات الآخرين... ويتميزون، أيضاً، بالاعتماد على أنفسهم، وبأنهم محاربون شجعان، ومتمردون ومغامرون شرسون، ومحافظون فى بغضهم الشديد للتجديد والتدخل»<sup>(٢)</sup>، ويلزم كل ذلك، شعور قوى بالتفرد والتفوق الثقافى، ومقاومة التمثل والاستيعاب. فالدينكاوى التقليدى من الصعوبة أن يقتنع بأن غير الدينكاوى يمكن أن يصبح

والحياة لن تكون مثلهم  
والحياة لن تكون كما كانت  
سوداننا أصبح بلادنا  
بلادنا كلنا، جميعنا، معاً  
سنبنى سوداننا ونرفع اسمه معاً  
شهر مايو، مايو عزة السودان

ان الجانب الاكثر أهمية فى ظهور الجنوب الجديد، جنوب الحكم الذاتى الاقليمى، تمثل فى تأثيره الكبير فى تعزيز مشاعر الوحدة الوطنية فى السودان، بعكس توقعات معظم الشماليين فى الماضى -فقد تركزت مخاوف المناوئين لحقوق الجنوب، بشكل عام، فى أن الحكم الذاتى، وبالتأكيد الحكم الفيدرالى، سيمثل خطوة فقط فى طريق الانفصال- ولكن المراقب لا يمكن أن يتجاهل اليوم مايسود الجنوب من مشاعر طاغية وتوجهات صادقة لتدعيم وحدته مع الشمال، تحت قيادة نميرى، ورغبة جارفة لصيانة الوحدة الوطنية. وهذه الروح الجديدة، المتناقضة، بشكل حاد، مع موقف الجنوب خلال فترة ما قبل التسوية، عبر عنها، بصدق ووضع، جوزيق لاقو، القائد العسكرى لحركة تحرير جنوب السودان، عندما أكد، فور عودته للسودان، بعد توقيع الاتفاقية مباشرة:-

..لم أكن انفصالياً فى يوم من الايام... لم أكن أومن قط بانفصال الجنوب عن الشمال، ولا أزال اتمسك بهذا الموقف... هدفى الوحيد تمثل فى انتزاع الاعتراف بحقوق الجنوب. ومثل هذا الهدف كنت أرى امكانية تحقيقه عن طريق العمل المسلح، ولكن لم أفكر فى استخدام القوة لتحقيق الانفصال. لقد لجأت للقوة لانى لست أن حكومات الخرطوم المتعاقبة لم تكن راغبة فى التسليم بهذه المسألة... (٢٩)

ويبدو أن هذا الفهم سيدعم الافتراض القائل بأن الجنوب يمكن أن يطور فهماً متحمساً للوحدة والارتباط مع الشمال، على أساس خطوط توحيد جديدة تؤكد التوزيع الاقليمى المتكافىء للسلطة الوطنية وترك قنوات الاتصال والتفاعل بين الطرفين مفتوحة على مصراعها.

والآن ننتقل الى مناقشة بعض الجوانب الخاصة للثقافة الجنوبية، فى محالة لاكتشاف الجذور الثقافية للعقبات التى تعترض الوحدة الوطنية، والتطورات التى أحدثتها الآن الحكم الذاتى الاقليمى، والبحث عن فرض أفضل لتدعيم الوحدة الوطنية والتكامل بين شقى الوطن فى المستقبل.

دينكاوياء، ولا يتردد فى مقاومة أى محاولة لاستيعابه فى هوية أخرى، مهما كانت الضغوط. وفي هذا الاطار تمضى احدى الاغانى هكذا:-

أبقارى لم تخطف قط  
وأنا لم اندمج قط فى قبائل أخرى  
أنا... لوال.... رفضت ذلك  
هذا أمر يعرفه جيداً أجانق  
حتى اذا قام انسان بتقطيع أوصالى  
وترك قلبى ينبض  
سيرى بأمر عينيه  
أن عقلى وذاكرتى لم تنزع منى.  
وكما يدونها هم، بكلمات زعيم دينكاوى:-

«انتم الدينكا تسكنون فى هذه المنطقة الواسعة، الغنية بالاعشاب، رعاة البقر... والجور يسكنون المناطق الصخرية... انتم تعيشون فى معسكرات الأبقار، مع أبقاركم، بينما يعيش الجور وسط الجبال... الفرق الرئيسى... انكم تعيشون مع الأبقار وهم يعيشون بدون أبقار».

مع ان القبائل النيلية تمارس الزواج من الاباعد وتحظر زواج القرابات والمصاهرة، إلا أن مقاومة التمثل والاستيعاب تتضمن مناهضة التزاوج المختلط مع القبائل والاعراق الاخرى.

وهناك أهمية أخرى للأساس السلالى لثقافات القبائل النيلية، يتمثل فى أن المجتمع، فى موازاة مع الطبيعة الحضرية والشاملة لنظام النسب والسلالة، يقوم على اللامركزية وتعمل وظائفه من خلال عملية تعارضات هرمية متوازنة ومعقدة- وبما أن التفاصيل تشجع على التعميمات، فإن الدينكا يميلون الى الوقوع فى ما يمكن تسميته (نظام النسب التجزيئى)<sup>(٣)</sup> ونتيجة للتركيز الشديد على الاسرة، كوحدة اجتماعية، فقد تميز تنظيم مجتمعهم بالوحدة فى التنوع والتعدد. وهذا التفكير فى جوهره، هو توجه فردانى، بمعنى أنه يولد عن طريق أفراد مكيفين بأهمية تقوية واستدامة الذات. وفى مثل هذا الوضع تتركز المشاعر والافعال الموحدة فى الدوائر المباشرة. وأى شخص لا يرتبط بهذه الدوائر يعتبر شخصاً غريباً أو أجنبياً، وبالتالي تنقلص الهويات الشاملة بشكل متزايد، نتيجة لتزايد عدد الهويات الوسيطة، وهذا النظام التجزيئى ينطبق على التنظيم الاجتماعى الكلى يقويه ويعزز، بتركيزه على ذاتية أجزائه المتعددة في اطار وحدتها المجزأة. وفى ذلك يقول قودفرى لينهارت Godfrey Lienhardt

«ان الدينكا يقدرّون، إيجابياً، وحدة قبائلهم ومجموعاتهم السلالية، وفي الوقت نفسه يقدرّون ذاتية مجموعاتهم الأساسي، التي قد تقود الى تجزئة القبيلة... وأساس تناقض القيم العرضي هذا يتواجد في مطامح كل دينكاوي... كل شخص يرغب في الانتماء إلى قبيلة أو قبيلة فرعية موحدة وكبيرة... وفي الجانب الآخر، يريد أن يرتبط بمجموعته السلالية الخاصة، الجزء الرسمي من العشيرة الفرعية التي يمكن تذكرها لفترة طويلة باسمه فقط»<sup>(٤)</sup>.

وفي مجتمعات تجزئية، مثل هذا المجتمع: - «تعتبر علاقات المجموعات المحلية بمثابة توازن قوى، تساعد على استمراره المنافسة بين هذه المجموعات. وقد يجري تنظيم عدد من المجموعات في إطار مشترك، بطريقة هرمية في مستويات متعددة... كل مجموعة لها أهمية خاصة في الظروف المختلفة وفي العلاقة مع النشاطات الاجتماعية المختلفة، الاقتصادية والروحية والحكومية. وفي كل مستوى تكون العلاقات تنافسية في حالة معينة، لكن، في حالة أخرى، تتحول المجموعات المتنافسة الى التضامن المشترك في مواجهة مجموعة غريبة أو أجنبية. وكل مجموعة في أي مستوى لها علاقات تنافسية مع المجموعات الأخرى، بهدف ضمان حماية هويتها الخاصة والحقوق التي تخصها كمؤسسة، وقد يكون لها علاقات إدارية داخلية تضمن تماسك عناصر مكوناتها... والكتل الكبيرة التي تنشأ كوحدات في إطار واحد تدمج، هي الأخرى، في كتل أكبر مع أخرى، الى حد أن مجموعة معينة مستقلة في بعض الحالات تجد أنها قد دُمجت مع المجموعات المنافسة لها، كأجزاء تابعة في التنظيم الإداري الداخلي لمجموعة أكبر وأوسع، تضمها جميعاً. وهذه المجموعة الأكبر والأوسع تجد نفسها في علاقات تنافس خارجية مع مجموعات مشابهة، وقد تكون هناك سلسلة كاملة من هذه المجموعات... والمجموعات المرتبطة مع بعضها في مثل هذا الإطار تكون في حالة مقابلة تكاملية»<sup>(٥)</sup>.

وأهم نتائج هذا النظام تشمل احترام حرية الفرد، كوحدة صغرى في التركيبة العامة، واحترام المجموع في مكوناته المختلفة التي يمثلها الزعماء. وبينما ظل الانثروبولوجيون يركزون على الروح الديمقراطية للفرد النبلى، إلا أنهم اتجهوا الى القليل من أهمية القيادة والسلطة كنقيض لديمقراطية النظام - وهذا التعارض، على أي حال، غريب في نظام يشترط على القيادة تقدير الفرد والنظر الى السلطة كخدمة عامة مطبوعة بحب الخير، بشكل رئيسي، أكثر منها ديكتاتورية متجبرة. وفي ذلك يقول الزعيم قيرديت: -

«ما يقال الآن ان هذا وذاك كله هراء في الماضي كانت هناك قيادة

وزعامة. الزعامة ليست أمراً جديداً... ليست كلمة ظهرت اليوم- الزعيم هو رجل يتبعه الناس... من أجله يسافرون. مثلاً، كان هناك أروپ بيونق... من أجله هو كنا نسافر حتي نصل إلى أرض العرب، أرضه، أرض أجداده... وعندما ذهب أروپ بعيداً (مات) بقى ولده كول، وكنا نسافر من أجله... هل رأيت، الزعامة أمر قديم، ليست شيئاً جديداً، البلد تعيش من أجل زعيم»

وهذا شيء هام سواء فى مايتعلق بالاحترام الذى تظهره القبائل النيلية لسلطة الحكومة الحديثة، معبرة عنه فى أغانيها وأناشيدها الخاصة بمدح وتمجيد زعمائها، أو مايتعلق بما تتوقعه من الحكومة فى شكل تقدير واحترام لذاتيها وحمايتها وتحسين وتطوير ظروف معيشتها.

ان درجة الاستمرارية الثقافية للقبائل النيلية، ونظرتهم المتمركزة حول الداخل، ومقاومتهم للتمثل والاستيعاب، وحرصهم الشديد على حماية ذاتهم واستقلالهم... كل ذلك ينعكس، بوضوح بارز، فى تراثهم الشعبى، وخاصة حكاياتهم الشعبية. وبحكم أن هذه الحكايات تدعى القدم، فأنها تبدأ دائماً بـ (...هذه القصة أو حكاية قديمة...) ولكن محتواها يعكس حقائق وقضايا معاصرة. وبالإضافة إلى ذلك، فبينما تقود أساطير الزعامة، التى تتميز بأهمية تاريخية، دائماً، إلى حروب مقاومة تدخل الاجانب الغرباء، فان حكايات واساطير الليل، التى تمثل أدوات تأهيل وتنقيف، نادراً ماتشير إلى هؤلاء. بحكم أن هذه الحكايات والأساطير تجسد مؤسسة تعليمية ديناميكية، لها تأثير بارز فى تكوين الشخصية، فان تحاشيها الاشارة الى الغرباء، بأى شكل من الأشكال، لابد أن تكون له دلالاته وتأثيراته فى نظرة الفرد لهؤلاء الغرباء والاجانب. وهكذا، لن يكون استنتاجاً بعيداً، اذا قلنا أن التعامل الدائم مع الحيوانات، وخاصة الاسود، التى تملك شخصية مزدوجة، انسانية وحيوانية، قادرة على التغيير من الواحدة الى الاخرى، يمكن أن يكون طريقة، يستهدف النيليون، من خلالها، تكييف نظرة أطفالهم للغرباء فى تعبيرات أخلاقية. واذنا سميناً الاشياء باسمائها، فذلك يعنى أن غرباء الأخلاق هم كل الذين يخرقون اساسيات المبادئ الأخلاقية، وقد يكونون من النيليين انفسهم، أما الغزاة الغرباء، والغرباء الذين يخرقون مبادئ الأخلاق، فانهم أكثر من ذلك، أنهم أشبه بالحيوانات.

ان الغرباء ينظر إليهم كمخلوقات وضيعة، أقل من الانسان، بمعنى ان النيليين ينظرون الى الجانب الانسانى، وقيام الغرباء فى بعض الاحيان بـ (انسنة الحيوانات)، وبالتالي صورة الغريب فى حكايات واساطير الليل، يتفق

مع الممارسة الدينية وسط النيليين، التي يحاولون من خلالها تدجين المخلوقات الشريرة، عن طريق تحويلهم، رمزياً، إلى أقرباء ودمجهم فى نظامهم القيمى. إما إحترامهم وتقديرهم للزعماء، واعتمادهم عليهم، فانه يظهر، أيضاً، فى تلك القصص والحكايات. فمجرد ان يقتل زعيم بواسطة أحد الغزاة الغرباء الاجانب، ينظر الى شعبه كأنه قد شنت لغياب الزعامة والقيادة. ويصور المشهد، عادة، كأنه مرتبك ومشوش، الناس تجىء وتذهب دون هدف، كل منهم يطلب من الآخر (انتظرنى)، ويرد عليه الآخر، بشكل ثابت، (كيف انتظرك فى بلد قتل زعيمها...) وهناك، بالطبع، استمرارية فى النظام، حيث يختلط تشييع الزعيم المقتول، فى العادة، مع احتفالات تنصيب خلفه التى يجب أن تتم فى وقت واحد مع مراسم الدفن. ومع ذلك تحول الحكايات الشعبية كارثة موت الزعيم الى دراما حقيقية، خاصة اذا ارتبط موته بهيمنة خارجية.

### (ج) العادات والتقاليد وتأثير عملية التحديث:-

ان مقاومة النيليين للتغيير، وتمركزهم حول عرقيتهم وثقافتهم، وانعزاليتهم، قد ضُخمت، بشكل كبير، فمن الواضح ان المسألة أكثر من مجرد القيام بسرد مجموعة من البدع والاساطير لأقناع أى شخص ليتخلي عن نظام القيم المرتبط به. وبالتالي، فان مزايا التغيير يجب أن تكون واضحة ومحددة، بشكل يسمح بقبولها وقبول التغيير -ويبدو أن تاريخ القبائل النيلية يؤكد، بهذا الشكل أو ذاك، أن (وسائط) التغيير لم يقدموا أي مزايا تذكر ولم يمنحوا هذه القبائل أى أمل فى ذلك. فأرضهم كانت، بالنسبة لهؤلاء الغرباء، مجرد مسرح لصيد الرقيق أو لتوسيع السيطرة الخارجية. ومع ذلك، لم يكن هناك رفض مطلق للثقافات الخارجية. فقد رأينا كيف أن مفاهيم مهدوية متعددة قد تم تبنيها ودمجها فى الثقافة الدينكاوية، حتى عندما تحولوا الى مقاومة حكم المهدية. وفى أثناء جمعى وتسجيلى للتراث الشعبى الدينكاوي، إندهشت، ولم أصدق هذا العدد الكبير من الكلمات العربية التى دمجت فى اطار لغة الدينكا. وقد توصل البعض الى أن عادة الدينكا لتقويس قرون الثور، حسب رغبة المالك، قد ترجع جذورها الى الحضارة المصرية القديمة. وعادة الختان، التى تمارسها بعض قبائل الدينكا، يعتقد أنهم تبناها من العرب. وهكذا، فالتغيير، اذن، ليس شيئاً غريباً على القبائل النيلية، بل أنهم ظلوا يتعرضون للتأثيرات الخارجية لقرون عديدة، وقاموا بتمثل واستيعاب بعض عناصرها الثقافية وتبنيها، وحولوها الى جزء لا يتجزأ من ثقافتهم ولم تعد لها علاقة بجذورها



الخارجية. صحيح أن المقاومة النيلية للتأثير الخارجى قد تعززت نتيجة للسياسات الاستعمارية، التى سجنّت هذه القبائل فى مناطق مقفولة ومعزولة، وحافظت على الثقافات التقليدية. والغاء تلك السياسات قاد الآن الى تفاعلات ثقافية متبادلة مكثفة. ونتيجة لهذه التفاعلات، وانتشار نظام التعليم الحديث، أكدت القبائل النيلية قدرة عالية فى التكيف مع التغيير لم تكن متوقعة قط. وبدأت ديناميات التغيير تظهر فى التراث الشعبى. ومع أن هذا الجانب واضح وجلى فى الأغاني الحديثة، إلا أن الأغاني والحكايات الشعبية لا تخلو منه. وكما قلنا سابقاً، بأن الحكايات الشعبية نادراً ماتشير الى الغرباء، فقد وقفنا على استثناء واحد، من بين حوالى الستين التى تم تسجيلها، هي حكاية طاعمة ومحمد. ومحمد هذا<sup>(١)</sup>، قاضى له أهميته ومن المفترض أن يكون عربياً، ظل يطارد طاعمة، البنت السوداء، ذات الأصول السامية النيلية. وكانت معروفة بصعوبة اغرائها، الامر الذى جعل محمد أكثر إصراراً على كسبها. ومع تمنعها وهيامه بها وإصراره على ملاحقتها، دبرت له خديعة، جعلته يتصور أنه عاشرها فى ليلة من الليالى. ولكن ذلك لم يحدث، بل دفعت له خادماتها وظن أنها طاعمة. وعند معرفة الحقيقة اغتاز غيظاً شديداً. وزاد اصراره، حتى نجح فى زواجها مقابل دفع عدد كبير من الابقار لاسرتها، ولكنه فى النهاية، تنازل عنها لعبده الاسود ثاراً وانتقاماً لكرامته. ولكن طاعمة اقنعت العبد بأن لايلمسها، عن طريق تعريقه بأصلها وأنها جاءت الى هناك كزوجة لمحمد. وفى النهاية دبرت خديعة أخرى، حيث احضرت زوجة محمد، مع هدايا ثمينة لتنام مع العبد، بينما ذهبت هى لتنام مع محمد دون أن يعرف ذلك - وحدث ان حملت المرأتان، وولدت زوجة محمد ولداً اسوداً وبينما ولدت طاعمة ولداً اسمرأً جميلاً- وعندما شرحت المسألة لمحمد، تنازل عن زوجته لعبده واتخذ طاعمة زوجة له.

إن هذه القصة تلقى بعض الاضواء على نظرة الدينكا التقليدية للغرباء، وعلى تجارب مجتمعهم المتغير فى الوقت الحاضر فى نفس الوقت -وكما سبق ان اشرنا من قبل، فانه حتى مجيء البريطانيين، ليضعوا حداً لتجارة الرقيق وحملاتها المتكررة، كان احتكاك الدينكا بالغرباء، فى معظم الاحيان، احتكاكاً عدائياً لدرجة انهم لايعتبرونهم بشراً. والاغنية التالية التى ترجع أحداثها الى الفترة التى كان الدينكا يقاومون فيها الاتراك والعرب، تؤكد هذه الحقيقة، فقد واجهوا الاسلحة المتفوقة بشجاعة عالية، لأنها كانت خارج نطاق معرفتهم وفهمهم، لم يجدوا إلا أن يعزونها إلى غضب أرواح اسلافهم. وأتوت،

المجموعة القبلية التى تغني هذه الأغنية، خلافا لمجموعات قبلية أخرى، لاتختن أبناءها وتحتقر عادة الختان بقدر مايحتقر الآخرون عادة عدم الختان، تقول الأغنية:-

الانسان المختون يقذف بندقيته بعيداً

الوضع سيء فى الجبل

لقد أتعبتني الكلمات

كلمات الأجانب

ملوال... لقد نزل البلاء على قبيلتنا

لعنة أصغر أبناء غيرجوك، أبونا، أصابتنا

اين ذهب الخالق؟

ياالله... أنقذ ديارنا

من اين جاء العدو؟

العدو ذو العيون الغريبة؟ لا أدري!

أبعد أسنانك عنى

صرخات الحرب وصلت حتي أغير

لقد قتلت الغرباء

وقتل عبيدهم

حتي ينام الناس في سلام

الانسان المختون أزعجنا كثيراً

العدو ذو الاسنان المخيفة...تحرك

عاد الى دياركم

ذو العيون الشريرة أزعجنا كثيراً

ذو الاسنان المخيفة... تحرك

عاد الى دياركم

عاد الى دياركم

ان نظرة الدينكا للغزاة لم تقف في حدود رد الفعل على الحرمان والتخريب المادى والروحى الذى وجدوه منهم، وانما امتدت الى خصائصهم الجسدية، وحقيقتهم، كصورة مصغرة للأسود/الغرباء، ذوى الشخصية الانسانية/الحيوانية المزدوجة، لتبقى محفورة فى وجدان الدينكا... تأمل، مثلاً، قصة (كير وكين ووالدهما المدمن)<sup>(٧)</sup> ورغم أن ممارسة بيع أبناء القبيلة كرقيق لم يعرفها مجتمع الدينكا، إلا أن محاولة رجل يائس تسليم أطفاله لكسب

مسألة ممكنة وواردة، خاصة في ظروف المجاعات التي صاحبت تخريب الغزاة. وهذه المسألة أكدها لنا الزعيم قيرديت، في مقابلتنا معه المشار إليها في صفحات سابقة، حيث تحدث عن عمليات النهب والتخريب، التي أحدثتها حملات جلب الرقيق، وسط الدينكا، وأشار إلى أنه (إذا كان لرجل أطفال... فقد يعطى العربى طفلاً أو طفلين يأمل أن يوفر حياته هو من موت محقق، وقد يوفر له ذلك بعض وسائل العيش... هكذا، كانت تسير الامور). حقيقة ان الأب، في القصة المشار إليها أعلاه، كان مدمناً للتبغ يمكن أن تكون طريقة رمزية للتركيز علي الظروف الضاغطة في تلك الفترة. والملفت للانتباه أن كير وكين، قد عادا الى المنزل، بعد هزيمة الأسود، على ظهور ثيران، وهي ممارسة لاتزال موجودة وسط القبائل العربية. فرغم أن بعض الدينكا يركبون الثيران المدربة على الحمل، الا أن الدينكا لا يستخدمون أبقارهم بهذه الطريقة. وبالتالي، فإن ذلك يعني أن معسكر الأبقار، الذي استولوا عليه، يتبع لشماليين. مع تدخل البريطانيين وتأسيس اطار سلمي للتفاعل مع الغرباء والاجانب، بدأت نظرة الدينكا تتغير حتي وصلت الى درجة لم يعد ينظر فيها للغرباء كأسود، والى درجة أن وصف عدم الالتزام الاخلاقي اصبح من الممكن أن يشمل الافراد الغرباء بنفس الطريقة التي قد يوصف بها الدينكا. وفي هذا الاطار يمكن توضيح حكاية محمد وطاعمة.

من الممكن أن تكون الحكاية، رغم أنها تحكي بواسطة الدينكا، حكاية شمالية، بحكم الحقائق التي تسردها، واهتمامها بعملية استيعاب بعض الجنوبيين الذين استرقوا واجبروا على العيش في الشمال. وذلك لسبب هام، هو ان اسم Thaama (هكذا ورد الاسم في الاصل ورأيت أنه أقرب الى اسم طاعمة، وهو اسم عربى، ومن نوع الاسماء العربية التي يستخدمها الجنوبيون المهاجرون والنازحون للشمال - المترجم..)، رغم أنه قد لا يبدو عربياً، لكنه ليس دينكاوياً، ومن جهة أخرى، نلاحظ أن الحكاية تروى بلسان بنت في مدينة شمالية. وحتى الطريقة التي قدمت بها الحكاية (هذه حادثة قديمة، قصة كانت تروى في الماضي عندما كان الناس يتسلون برواية القصص). تشير، كما يبدو، إلى أنها انقطعت عن ممارسة رواية حكايات الليل، بسبب عيشها تحت ظروف الغربة وابتعادها عن موطنها الأصلي، وسواء كانت دينكاوية أصيلة أو مرتبطة بعمليات استيعاب الرقيق الجنوبيين في الشمال، فإن الحكاية تبدو وثيقة الصلة بالتغيير الاجتماعي الذي شهدته مجتمعات الدينكا وهجرتهم الى المدن الشمالية. أولاً وسط الشباب الذين رأوا في السوق الحديث فرصة

لتكوين ثروة مستقلة، وذلك لأنه لم تكن هناك أى فرص للعمل المأجور داخل إطار القبيلة، لأن الدينكا، بسبب كبريائهم واعتدادهم بأنفسهم، كانوا ينظرون للعمل المأجور كاذلال وخنوع، ويعتبرونه غير مناسب للشخص المحترم، لذلك يجب أن يمارس بعيداً عن بنات الدينكا، فى بلد بعيد، حيث لا يهتم بك أحد. والقول المأثور يشير الى... أن (الكرامة تبقى، المذلة والمهانة هي التى دفعتنا لنذهب.)، وذلك يعنى أخفاء الكرامة والشرف فى بلد لا يعرف عنك شيئاً. وتعنى، أيضاً، (...جنتلمان هذا المعسكر لا يعرف جنتلمان المعسكر الآخر...) ولكن المسألة بالنسبة للدينكا، ان الموازنة بين المزايا المادية للمدينة وخسارة الشرف وكرامة مكانتهم التقليدية ينهى ازمات خطيرة. فى الفترة الاخيرة بدأت الهجرة تؤثر على البنات والاسر، بشكل واضح. فالنساء يستخدمن، فى الغالب، داخل البيوت، تحت شروط عمل مريحة ومحترمة أكثر من زملائهن الرجال، وتسمح لهن بالتأقلم بسهولة أكثر مع البيئة الجديدة. ولكن الدينكا لا ينظرون للنتيجة النهائية بهذا المنظار، فلبس الملابس الشمالية، وتعلم اللغة العربية، والاندماج الظاهري فى الاسر المخدمة، وغياب الاشراف الكافى والكوابح الثقافية... كل ذلك، وغيره، يؤدى الى نمو البنات وتربيتهن فى مناخ متساهل، وربما مناخ اختلاط وأباحية. ولكن الضغوط الدافعة لمصلحة استخدامهن كخادمات فى المنازل تبدو أقوى، وفي بعض الاحيان لا يمكن مقاومتها. فقد جئن لجمع المال والثروة، بهدف مساعدة أسرهن، وربما لشراء بعض الأبقار، لكنهن يرجعن دون أمل فى الزواج. وفى الغالب هناك (نوعهن) المستعد لزوجهن، لكن تلك زيجات عرجاء، غير سوية.

ومن هنا، فان حكاية (طاعمة) يمكن ان تكون انعكاساً للخصائص المعاصرة، رغم أنها لم تلتزم الشروط والمقاييس، التى يريد الدينكا من الشباب مراعاتها فى عملية التفاعل الثقافى المتبادل، وعملية التكامل التى لا مفر منها فى المدى الطويل، فقد تكون طاعمة، أو الرقيق الذكور، من الدينكا، وقد يتزوجون، فى النهاية، من دوائر طيبة فى المجتمع الشمالى \* ولذلك فان الحكاية تُسلم بالتكامل مع الشماليين، ولكن، فقط، على أساس المساواة الاجتماعية والثقافية بين الشماليين والدينكا أو الجنوبيين. وتاريخ الدينكا يوضح لنا أن ذلك قد حدث من قبل فى إطار الدينكا. ففى سؤال حول: (هل خطف الدينكا أى عربى خلال حرب الاسترقاق هذه واستوعبوه ليصبح دينكاوياً؟...) أجاب الزعيم قيديدت (آه، نعم، كثيرون منهم متواجدون الان فى أرض الدينكا، عدد كبير من الدينكا هم أحفاد عرب... هناك كثيرون، بعضهم أسر فى معارك، رجال

ونساء... بعضهم أطفال، تركهم آبائهم خلفهم، وجاء بعض الدينكا، فالتقطوهم وحملوهم).

إن تأثيرات التغيير وسط مجتمعات القبائل النيلية ليست مماثلة - فقد حدثت تغييرات راديكالية في بعض الجوانب الثقافية، وفي جوانب أخرى كانت التغييرات بسيطة وظاهرية. والناس، أنفسهم، لم يتأثروا بشكل مماثل، وذلك لأن بعضهم قد تحول ثقافياً، بالكامل تقريباً، وآخرين تأثروا بشكل خفيف، ووجد المجتمع نفسه منقسماً، بشكل حاد، بين التقليدية والحداثة. يمثل التقليدي الزعماء وكبار السن والوجهاء، بينما يمثل الجانب الحديث المتعلمون والشباب الذين هاجروا الآن للعمل في المدن. ومن العادى، بالطبع، أن تظل هناك، دائماً، درجة من الاستمرارية في التغيير. فالنيلي الحديث، إذن، عبارة عن مزيج من الماضي والحاضر. ولكن، بما أن الثقافات الجنوبية لا تحظى بدرجة عالية من الاحترام والتقدير من قبل الأوربيين، كما هو حال الثقافة العربية، فإن البناء على متن النظم التقليدية قد ظل يعنى، في كثير من الأحيان، أما أنه غير قابل للتغيير بشكل كلى، وأما أنه إستجاب للتغيير وفق خطوط مختلفة وحديثة، مهما كان تدنى مستوى الحداثة. وفي بعض الأحيان، قد تستخدم بعض المفاهيم التقليدية، مثل مقاييس العمر، الدور الحربى للشباب، والأسلحة (الحراب)، لكن فقط لتطوير افكار مختلفة وجديدة، ذات طبيعة ثورية في الغالب. وهذا ماتؤكدده لنا الاغنية الدينكاوية التالية، وهى من أغانى مدارس الأولاد خلال السنوات الأولى لادخال النظام التعليمى الغربى الحديث فى الجنوب. ويمكنني أن أضيف أن نظام المدارس الحديثة، فى ظل الحكم البريطانى، قد استخدم القدرة التوضيحية المفيدة للأغانى الدينكاوية لتوصيل رسالتها، أو الحرب المقدسة ضد تقاليد الدينكا، وديانتهم بشكل خاص، وذلك رغم استخفافها بالتقاليد وتصميمها على استئصالها من جذورها - تقول الأغنية:-

أمسكت حرابى  
ورددت أغنية الحرب بصوت عالٍ  
قلمى تحرك ضد كتبى  
لم أخطئ.  
الكتاب مع أولئك، الذين يكتبون الكلمة  
الحكمة القديمة... حكمة أهنا، آدم  
يعرفها جيلنا ذو الملابس البيضاء، الذى يكتب

الجيل الذي يسجل، جاء بالكلمات  
البقرة التي خطفت، لا يمكن أن تراها  
الطفل المفقود، لا يمكن أن تراه  
إذا كان من الممكن أن ترى،  
فنحن الذين نكتب  
الجيل الذي يكتب للزعيم  
يكتب الرسالة  
الرسالة التي سأكتبها  
حاملها لا يستطيع قراءتها  
سيراني الذي يقرأها  
يراني أنا ولبس الكاهن الوثني  
كهنتكم، أننى لا احترمهم  
أنا انسان كبير  
الجيل ذو الملابس البيضاء يعرف الكلمات

إن استخدام مثل هذه الرموز، المجموعات العمرية، والروح القتالية لتلك المجموعات، واسلحتها، يمثل استمرارية ثقافية بارزة في الاطار الراهن. فنشاطات الفئات العمرية كانت من ضمن الآليات التعويضية الهامة في النظام التقليدي، ولكن هذه النشاطات، ومعظم الوسائل التقليدية الأخرى، لم تعد تعمل أو تؤدي أى وظيفة وسط الشباب المتعلم. وحقيقة أن السلطة الرسمية، فى المستوى القبلى، يسيطر عليها الزعماء، الذين يمثلون النظام التقليدي، تعنى استبعاد المتعلمين عن مؤسسات السلطة فى وقت كانوا فيه الأكثر تأهيلاً لقيادة عملية التحديث. ولكن النظم التقليدية، طاعة الوالدين واحترام الكبار، تمنع التطاول والاصطدام مع الزعماء التقليديين. والواقع، كما هو واضح فى الاغاني المشار إليها، ان معارضتهم للتقليديين تكشف، فى الغالب تقديراً متناقضاً لكبارهم، وفقاً للقيم التقليدية. والهدف البديل الواضح كان يتمثل فى الحكومة، التي لا ينظر إليها فقط كأجنبي، بل كمسؤول عن كل الظروف السائدة فى المستوى المحلى. والمعارضة على المستوى الوطنى كانت تتخذ عدة اشكال، بعضها سياسى أو عسكرى، والبعض الآخر دعمته وعززته القوى التقليدية نفسها.

إن الانقسام القائم الآن بين الكبار الاجيال المرتبطة بتقاليد مجتمعات المجموعات النيلية، من جهة، وبين الشباب، الاجيال المتطلعة إلى الامام، من

جهة أخرى، يوضحه لنا، بشكل بارز، انقسام وجهة نظر الطرفين حول التزاوج بين المجموعات الاثنية المختلفة. وما لمسناه فى حكاية "طاعمة" اصبح الآن يظهر كحقيقة من حقائق المجتمع الراهن المتعدد الوجوه. فهناك عدد كبير من أبناء الدينكا المتعلمين يتزوجون الآن من خارج اطار مجتمعهم الخاص، ولكن كبارهم لم يقبلوا المسألة بشكل كامل. وذلك لأن الفرد فى المجتمع التقليدى، إذا ذهب الى خارج قبيلته الخاصة وتزوج واستقر هناك فإن ذلك يعنى أنه سيستمر، فى خطه السلالى، فى منطقته الجديدة، وفى هذه الحالة فإنه لا ينظر للتزاوج المختلط كمهدد للهوية. وحول هذا الموضوع أشار أحد كبار السن الى ان (الناس من اصل واحد.. لناخذ وضعك أنت مثلاً، من أين تزوجت زوجتك هذه؟ من قريب؟ اذا عشت هناك فى امريكا، بلد زوجتك، هل لن تلد أبناء؟ وهؤلاء.. هل لا يكونون قبيلة؟ هل لن تكون هناك قبيلة تحمل اسمك؟).

إن التفاعل الواسع، الذى يجرى اليوم، بين مختلف المجموعات السودانية يطرح تحديات كبيرة أمام المتعلمين أكثر من ان يجد قبولاً بسهولة من كبار السن. وذلك لأن امكانية أن يقود مثل هذا التفاعل الى مزيد من التكامل الوطنى، على حساب تحلل المجموعات القبلية المنفصلة، يعتبر خارج اطار تفكيرهم ومعتقداتهم... ولكن الاجيال الشابة تتفهم ذلك، دون أدنى شك. وهذا الانقسام بين التقليديين والحديثين فيما يتعلق بمستقبل التبادل والتمازج الثقافى العرقى المتبادل فى السودان يتضح، بشكل بارز، من خلال المناقشة التالية بين الزعيم قيرديت، وشاب حضرى يدعى (أكول) وابن الزعيم، ويدعى (مو)، ومؤلف هذا الكتاب، حول امكانيات التكامل الوطنى فى السودان، وتجدر الاشارة الى أن أحد أبناء الزعيم قيرديت متزوج من امرأة غير دينكاوية... من قبيلة الباريا وأنجب منها عدداً من الاطفال... لندخل الآن الى المناقشة:-

دينق: "كيف ترى ستكون نتيجة التفاعل بين الجنوبيين والشماليين؟ الآن انتهت الحرب.. هل من الممكن أن يتفاعل الجميع ويتمازجوا، ليصبحوا شعباً واحداً، ولا يبقى هناك مجال للحديث عن الدينكا أو العرب، انما عن شعب سودانى واحد؟"

قيرديت: "لا يمكن أن يحدث، لا أرى كيف سيحدث ذلك. يمكن أن يعيشوا فى سلام، لكنكم لن تتزاوجوا وتختلطوا لتصبحوا شعباً واحداً. لا يستطيع أن أرى ذلك... من الصعوبة تخيل ذلك. ربما، اذا تركتم، انتم الدينكا، الابقار، وكل طرق حياتكم، يمكن ان يحدث ذلك، لكنى لا أرى كيف سيحدث ذلك. ستعيشون مع بعض، لكن سيكون هناك جنوب وشمال، حتى العيش معاً، مع بعضكم،

ممکن فقط اذا استطعتم معالجة الوضع بحكمة... هناك شعوب عديدة، تبدو موحدة، لكنها فى داخلها منقسمة الى شعبين.. اعتقد انكم ستعيشون هكذا... الانسان يملك رأساً واحداً ورقبة واحدة، لكنه يملك رجلين، عليهما يقف على الأرض."

دينق: "ماذا عن الدينكا والقبائل الأخرى فى الجنوب؟"

مو: "مثل الدور؟ (يقصد الزاندى)"

اكول: "حقيقة ليس هناك طريقة لمنع الناس من الاختلاط.. اللهم اذا قفلناهم فى الداخل، طالما الناس تذهب الى الخارج وتختلط مع بعضها، سيكون هناك شباب يلتقى ببنات العرب، وبنات القبائل الأخرى، ويتزاوجون، ويسيرون فى طريقهم، لا أحد، سوى الله، يستطيع ايقاف ذلك."

دينق: "ربما من الأفضل أن تميز بين الحالات الفردية للزواج المختلط وتوقع تغيير اجتماعى كلى يؤثر على المجتمع كله."

قيرديت: "لا نتحدث الآن عن الحالات الفردية... من أنت حتى تجيب عن مثل هذا السؤال؟" (التفت ليرى المتحدث الذى كان يقف خلفه).

اكول: "انا اكول"

قيرديت: "أكول، صهري"

مو: لا، "أكول كوين، اكول يوم"

قيرديت: "نعم، هناك دينكا فى كل بقاع الدنيا، الناس الذين يشبهونكم... هم دينكا، لكن تركوا بلدهم، كأفراد. مايريد أن يعرفه ابن دينق، ليس كيف يتصل الافراد مع بعض، انما كيف سيتغير المجتمع؟"

اكول: "نفس الشئ، أجابنى قائمة"

مو: "دعونا نرجع لموضع الدور... كيف ستكون علاقاتهم مع الدينكا؟"

قيرديت: "هذا صحيح - كنا نتحدث عن كيف سيعيش الدينكا مع

الدور؟"

اكول: "ما اريد ان اقله هو الآتى... نحن الذين نضع حدوداً بيننا وبين الآخرين. اذا لم تقفل حدودنا مع الآخرين، لن تكون هناك مشكلة، اذا الآخرون لم يقفلوا داخل سياج منيع، لمنع الاتصال بالآخرين، سيكون هناك شاب صغير ذاهب لتلك المنطقة وأخر الى منطقة أخرى... سيلتقون بالآخرين ويتزاوجون معهم. والآن ماذا يرى عمى فى هذا الحديث؟"

قيرديت: "ألم ترى؟ لقد حدث ذلك من قبل. البعض ذهب الى خارج

حدودهم وتزوجوا، أنت تزوجت من العرب، لكن اعتقد ان موضوع الدور



سيكون أصعب... سيكون من الصعب عليكم ان تتزوجوا مع الدور، والواقع اذا لم يسمحوا لهم بمكان لائق فى مجتمعكم، أتوقع ان يبتعدوا عنكم فى يوماً ما".

مو: "تقصد ان الدور ينظرون للدينكا، كأنهم عرب بالنسبة لهم؟"  
قيرديت: "يرون الدينكا مختلفين عنهم، إذا نحن لم نمسكهم بلطف ونعالج الوضع بحكمة، سنفقدهم."

دينق: "ماذا عن الدينكا، هل ظلوا دائماً مجموعة عرقية متميزة؟ أم أن هناك أناس، لم يكونوا أصلاً من الدينكا، قد تم استيعابهم فى مجموعتنا العرقية؟"

قيرديت: "هناك أناس جاءوا الى أرضنا، وأصبحوا دينكا، لكن بالنسبة للدينكا، من الصعب عليهم ان يفقدوا إسمهم ويتحولوا الى إسم آخر. قد تنجحون فى العيش معاً وفى سعادة، لكن كيف تختلطون بشكل كامل؟ هذا لا اعتقد أنه سيحدث."

دينق: "ماذا عن موقفنا من النوير؟"

قيرديت: "مشكلتكم مع النوير سهلة، لأنكم شعب واحد، النوير مثل الدينكا أتوت، النوير والدينكا أبناء أب واحد وأم واحدة، أما الشلك والجور كول، فهم أبناء أمو اذن هم اقرباؤنا من ناحية الام...".  
من الواضح ان قيرديت يمثل التقاليد، وأكول يمثل التغيير، ويبدو، أيضاً، أن قوى التغيير هى الغالبة، وأن معظم مايجرى الآن يدعم وجهة نظر اكول.

#### (د) آفاق للمستقبل،-

إن عدداً من الاستنتاجات يمكن ان يطرح هنا استناداً على تحليلنا السابق فيما يتعلق بمستقبل العلاقات بين الشمال والجنوب، نجملها فى الآتى:-

١- إن الجنوب يشارك الشمال الاعتزاز الشديد بالنفس فى ثقافته التى تنزع الى التميز بالاستمرارية، ولكنها فى نفس الوقت تفتح ابوابها لرياح التغيير، التى لا تهدد هويتها، بشكل واضح وصريح. وهكذا، فكما تحول الشمال، من خلال عملية تدريجية هادئة، فان تحول الجنوب، ايضاً، ممكن اذا ما توفرت الاستراتيجيات المناسبة.

٢- أن النيليين يمتلكون وعياً بالوحدة، تماماً كمسلمى الشمال، ولكنهم، ايضاً، يقدرّون نظام النسب التجزئى بتركيبه السياسى الذاتى. وهذا يعنى أن نظاماً سياسياً مركزياً يسلب سلطات وحدات نظامهم الذاتى، سيتناقض حتماً

مع حسهم الديمقراطي، ويواجه مقاومة شديدة. وفي الجانب الايجابي، فإن ذلك يعني أن النظام الذاتي، باعترافه بالمصالح الخاصة بالوحدات، سيقوي الوعي بالانتماء والهوية في اطار وحدة مع المجموعة الأوسع، تماماً كما يفعل الحكم الذاتي في الجنوب في الوقت الحالي.

٣- ان اتجاه التحديث، الذي خضع له الشباب، الذي يشكل الان القيادة السياسية للجنوب، قد أدى، بشكل رئيسي، الى تحرير هؤلاء الشباب من قيود الانتماءات السابقة، ووضعهم في مواجهة أسس أوسع لدولة سودانية حديثة. اذ بينما كان جوهر هذه القيود يتجه الى أعاقلة عملية الانتماء الأوسع للشمال، فقد أدى تفكيكها واضعاف علاقاتها مع الأوضاع التقليدية، وجهود الشباب في البحث عن اسس بديلة لتقوية وتعزيز الانتماءات الجديدة، إلى تحويل الجنوبيين المتعلمين الى حلفاء حقيقين، أو محتملين، مع القيادات الحديثة المتطلعة للمستقبل في الشمال. وهذا التطور الهام، هو الذي وضع الأساس لامكانية الاصطفاف الجنوبي/الشمالى، والذي أخذ ينمو ويتطور، وقاد أخيراً الى تحقيق السلام بين الشمال والجنوب. وظل هذا التطور الهام يمثل مصدر قوة كامنة في عملية صياغة وتنفيذ السياسات الديناميكية، التي ستؤدي، بالتأكيد، الى تقوية وتعزيز وحدة البلاد وتقدمها وفق خطوط تكامل وطنى متدرج ومتصاعد.

٤- فى مشروع القيم النبلى لا تمثل السلطة هدفاً لتحقيق المصالح الذاتية للقوى الحاكمة فقط، بل تحمل هذه القوى مسئولية رعاية وتقدير مصالح المحكومين بشكل ايجابي، ليصبح الزعيم دليلهم وحاميهم، وسند المحتاجين للمساعدات المادية والروحية. ولذلك، فإن دعم أى حكومة، سواء على المستوى الاقليمى أو الوطنى، يظل، على الأرجح، مرتبطاً بانجازاتها الملموسة في مجال رعاية وتقدير مصالح الناس. وذلك يفسر لنا لماذا وجد النظام الحالى دعماً وتأييداً أوسع، بعد أن حقق الأمن والسلام للجنوب، ولماذا حقق تضامناً بين الجنوب والشمال أكثر وأكبر من ما كان متوقعاً من أكثر المراقبين تفاؤلاً.

أريد هنا أن أشير الى أننى قد تحدثت، بشكل موسع، عن القبائل النيلية، وخاصة الدينكا، بسبب الحرص على دقة وتماسك المعلومات، انطلاقاً من كتاباتى السابقة عن ثقافات هذه القبائل. وعلى أى حال، لازلت اعتقد أن الكثير من مآقلته حولها، أن لم يكن كله، ينطبق بهذا القدر أو ذاك، على بقية المجموعات الجنوبية.

أن أحد أهم مشاكل علاقات الجنوب والشمال تمثلت، حتى الآن، فى

الفشل فى فهم ثقافات الجنوبيين، مقارنة بوضع الثقافات الشمالية. وهذا الفشل، أو الجهل بثقافات الجنوب، يرجع فى معظمه، الى لامبالاة تركز على نوع من التعالى والازدراء، تمتد جذوره الى المواقف القديمة من الافريقي... صحيح، هناك من يجادل بأن ارتباط الكتاب والشعراء الشماليين، خلال فترة بدايات الحركة الوطنية الشمالية، بقيم الاسلام والثقافة العربية التقليدية، كل يمثل نوعاً من التعويض السايكولوجى للشعور بالدونية، المسيطر على السودانيون. جراء هزيمتهم النكراء أمام جيش الفتح الانجليزى المصرى فى نهاية القرن التاسع عشر، والتي لم يجدوا لها تعويضاً فى ماضيهم الافريقى أو افريقيا المعاصرة<sup>(٨)</sup> ف(بدلاً من مساعدتهم لاستعادة ثقافتهم فى انفسهم، فإن افريقيا ستؤكد شعورهم بالدونية فى مواجهة البريطانيين والمصريين. وهكذا، بطريقة لا إرادية تقريباً، حول السودانيون... انظارهم من افريقيا... وأصبحوا مرتبطين بشكل عاطفى انفعالى، بالعصر الذهبى للاسلام، الذى وفر، بجانب الثقافة العربية التقليدية الثرية، الدعم السايكولوجى الضرورى)<sup>(٩)</sup>، وهذا بالطبع، يمثل جزءاً من غسيل الدماغ العام، الذى صاحب التجربة الكولونىالية فى عموم افريقيا... وفى حالة السودان قد يعنى ذلك، فى بعض الأحيان، أن الشمالى كلما أصبح أكثر افريقية كلما أصبح أكثر عروبة، وفى أحيان أخرى، كلما أصبح أكثر ازدياء واحتقاراً لزملائه الجنوبيين.

ان تعزيز ثقافة ما، أو الاستخفاف بها، يمثل فى النهاية، وجهة نظر، يمكن الاتفاق أو الاختلاف معها. ولكن تفهم نظام القيم عند القبائل النيلية، ومعانيه ومواقفه، سيكشف لنا أين تتشابه القيم الشمالى مع القيم الجنوبية، وأين تختلف وبالتالي تستحق الاخيرة نفس المعاملة. وعلى ضوء ذلك يمكننا صياغة سياسات وطنيه استناداً الى تلك الخصائص المتفردة. وفى كل الاحوال، فإن معرفة خصائص الوضع، كما هى، فقط، هى التى توصلنا الى سياسات أفضل، مؤسسة ومؤثرة بشكل أفضل.

Trimingham, The Christian Church in Post-War Sudan, op. (١)  
cit., p. 34.

(٢)

Audery Butt, The Nilotes of the Anglo-Egyptian Sudan and  
Uganda, (Int. African Institute, 1951), p.41.

M. Fortes and E. E. Evans Pritchard, (eds), African Political (٣)  
Systems, London, Oxford Univ. Press, 1940, J. Middleton and David  
Tait, (eds.) Tribes without Rulers, (London, Routledge 1958).

Lienhardt, The Western Dinka, in.: Tribes Without Rulers (٤)  
,p.177.

J. Middleton and Tait, op. cit., pp. 6-7 (٥)

F. Deng, Dinka Folktales, (African Publishing Corporation, (٦)  
New York, 1973)

Ibid. (٧)

(٨) هذه النظرية طورها بروفيسر محمد النويهي في كتابه: (الاتجاهات الشعرية في  
السودان: القاهرة، ١٩٥٧) ومع ان منثر عبدالرحيم لا يختلف مع النويهي، فانه يقول ان  
التفسير السايكلوجي وحده لا يفسر، بشكل كاف، (...ارتباط الشماليين، المسلمين والمتكلمين  
باللغة العربية، القوى بالقصص التاريخية للحضارة العربية الاسلامية) M. Abdel-  
Rahim, Arabism, Africanism and Self-identification in the Sudan, op.  
cit, p. 232.

Ibid (٩)

## الفصل السابع

### خلاصة واستنتاجات

إن إطار الجنوب/الشمال يمثل المسرح الذي ظلت تصطرع فيه حقائق التنوع والتعدد في السودان مع مُثل الوحدة الوطنية... هناك، بالطبع، أوجه متعددة للمشكلة، لكن موضوع الهوية العرقية الثقافية يتقاطع مع كل هذه الأوجه، وتتمركز حوله قضايا التاريخ والسياسة والتنمية الاجتماعية الاقتصادية. والجوانب المختلفة للمشكلة، وتفاعلها مع بعضها البعض، عدتها وشرحتها لجنة خاصة، في عام ١٩٥٦، كقضايا يجب وضعها في الاعتبار، بشكل دائم، من أجل فهم انتفاضة الجنوبيين في عام ١٩٥٥، التي تولدت منها الحرب الأهلية وظلت مستمرة ومستعرة لأكثر من ستة عشر عاماً، ووضعت اللجنة القضايا في خمس مقولات، هي:-

١- هناك التقليل من العوامل المشتركة بين الشمال والجنوب... عرقياً الشمال عربى، والجنوب زنجى،... دينياً الشمال مسلم والجنوب وثنى... لغوياً الشمال يتكلم اللغة العربية والجنوب يتكلم أكثر من ثمانين لغة مختلفة... وذلك بعيداً عن الاختلافات الجغرافية والتاريخية والثقافية بين الطرفين.

٢- لأسباب تاريخية، يعتبر الجنوبيون الشماليين اعداءهم التقليديين.

٣- كانت السياسة البريطانية، حتى عام ١٩٤٧، تعمل على ترك الجنوبيين لأن (...يتطوروا في خطوط أفريقية وزنجية...)، أيا كانت تعنى ذلك... وعن طريق استخدام قانون المناطق المقفولة وقانون السماح بالتجارة، منعت السودانييين من معرفة بعضهم والتعلم من بعضهم البعض. والرساليات التبشيرية، التي كانت تسيطر على معظم النشاط التعليمى، وتستغله لأغراضها الخاصة، قامت بفرض نفوذها وتوسيع تأثيرها لمصلحة هذه السياسة البريطانية في الجنوب.

٤- لأسباب سياسية ومالية وجغرافية واقتصادية شهد شمال السودان تطوراً سريعاً في مختلف المجالات مثل الحكم المحلى، مشروعات الرى، الصحة، التعليم العالى، التنمية الصناعية..... الخ، بينما ظل الجنوب فى تخلفه المزرى. وقد أدى ذلك الى تفاوت بارز فى التطور الاجتماعى الاقتصادى بين

مجموعتين مختلفتين تعيشان في قطر واحد وهذا ماخلق، بدوره ، شعوراً في وسط المجموعة السكانية الأكثر تخلفاً، سواء ان هذا الشعور حقيقياً أو متوهماً، بأنها ضحية لعملية خداع واستغلال وهيمنة من قبل الشمال.

٥- كل العوامل السابقة، مجتمعة، لم تخلق وسط الجنوبيين شعوراً بالمواطنة المشتركة مع الشماليين، كما أنها لم تخلق شعوراً بالوطنية والانتماء للسودان ككل، وظل ولاؤهم، كما كان سابقاً، لمجموعاتهم القبلية الخاصة. وفي العام الأخير فقط، بدأ الوعي السياسي يتفتح في أوساط الجنوبيين المتوسطين، ولكن هذا الوعي السياسي، المحكوم بظروفه، هو وعي اقليمي وليس وعياً وطنياً<sup>(١)</sup>.

— إن تركيز اللجنة على الاختلافات العرقية والثقافية يطلب بعض التوضيح. وذلك لأنه، على الرغم من أن عملية الاسلمة والتعريب في الشمال قيد انتجت هوية مبالغاً في تضخيم ارتباطها بالاسلام والحضارة العربية، إلا أن بخولها واستيعابها كانت تدريجياً وتوفيقياً مصاحباً لخطوط الأديان والثقافات والاثنيات الافريقية السابقة. وبالتالي يمكن أن نقول أن ناتج هذه العملية، المتمثل في العرق والدين والثقافة العربية السائدة اليوم في الشمال، هو سمات سودانية متميزة. ان اعتقاد الشمال بأن مجرد عكس السياسة البريطانية، وفتح الطريق لتعريب وأسلمة الجنوب، سيحل مشكلة الجنوب، كانت تنقصه مقاربة واقعية كلية. لذلك لم يأخذ في الاعتبار الإطار الذي كان قائماً في فترة ما قبل الحكم البريطاني (الطريقة التي تمت بها عملية الاسلمة والتعريب في الشمال، تاريخ تجارة الرقيق والعداوات والتوترات الأخرى في الجنوب)، ولم يضع اعتباراً لارتدادات واصداء التغييز المفاجيء في سياسة غرست جذورها عميقاً في الجنوب، خاصة وسط الطبقة المتعلمة<sup>(٢)</sup>.

لقد إتخذ جعفر نيمري أشجع خطوة باتجاه حل المشكلة. وذلك ليس فقط لأنه تفاوض مع الثوار الجنوبيين، وهي خطوة فشلت في اتخاذها كل الحكومات المتعاقبة السابقة، بل ولأنها، أيضاً، اتفقت معهم على نظام حكم يسمح بقدر كبير من الإدارة الاقليمية وسارعت الى تحويل الاتفاق الى قانون، هو قانون الحكم الذاتي الاقليمي للمديرية الجنوبية لسنة ١٩٧٢، وبدئ في تنفيذه منذ الثالث من مارس ١٩٧٢. لكن قضايا الهوية السودانية، مع كل ذلك، قد تبقى في مكانها، وقد تتدهور لتقود الى توتر العلاقات الشمالية الجنوبية في المستقبل. صحيح أن الحكم الذاتي الاقليمي يمثل حلاً لمشاكل العلاقة الشمالية الجنوبية في المدى المتوسط، ولكن من الصعب ان يقتنع الجنوبيون

بالاكتفاء بالمشاركة الاقليمية ولا يهتمون بقضايا كبرى وطنية وعالمية، مثل قضية انتماء وهوية السودان، وكيف يمكن معالجتها. وهنا يمكننا فقط أن نقترح مدخلاً يوحد البلاد وشعبها في مقابل المداخل التي تُقسم وتُشتت.

ان المجادلة بأن العروبة والافريقية ليست مفاهيم ضيقة ومحصورة أصبحت تجد قبولاً واسعاً، وفي العلاقات الدولية، أصبحت الاقطار الافريقية تجد نفسها في الدوائر العربية والافريقية على السواء. ومن بين العوامل التي تعمل لمصلحة هذا التوجه، تبرز الديناميات السياسية في المقدمة. فحركة الوحدة والتضامن التي أقرزتها وحدة هذه الاقطار في جبهة واسعة ضد الامبريالية الغربية، جنباً الى جنب مع حقيقة موقعها الجغرافي ومصالحها المشتركة، قد أدت الى افراغ فكرة الافريقية من احياءاتها العرقية. واستبعاد الافارقة البيض من هذه الهوية والانتماء الواسع يرجع، بشكل رئيسي، الى مواقفهم العرقية، وهو موقف سياسي يستند الى نفس الاسس التي تدخل الاقطار العربية في المظلة الافريقية. ومن جهة أخرى، فقد وسعت العروبة، أيضاً، مظلتها على أسس سياسية، ولكن بجانب ابعاد ثقافية محددة وادعاءات عنصرية الى حدود معينة فتطابق الروابط العرقية والثقافية، سواء كانت حقيقية أو موهومة، هي التي تمنح، حتي السوداني الأسود، شعوراً واحساساً بالانتماء العربي. واذا قلنا أن العروبة هي انتماء ثقافي، اساساً، فسيعني ذلك أن سودانياً جنوبياً، جذوره، دون شك، غير عربية، وقد يكون أهله وثنيين أو مسيحيين، ولا يتحدثون اللغة العربية، يمكن أن يعتبر عربياً، لأنه، بكل بساطة، يتحدث اللغة العربية، ومستعرب ثقافياً، وربما مسلم متزمت. ومثل هذا الادعاء لا يعدو أن يكون توسيعاً لا معنى له لمفهوم محدد.

ان القضية، بالنسبة للسودان، ليست في التنكر للعروبة أو رفضها، وإنما في التركيز على المداخل التي تُوحد البلاد وشعبها. ففي ظل مثل هذه المداخل، يمكن للعروبة ان تجد طريقها في داخل مجمل مكونات الهوية السودانية، دون اعتبارها ممثلاً لمناطق معينة، بفعالية وتأثير المداخل الضيقة، التي تُقسم وتُهدد وحدة البلاد وشعبها. وأهمية واحتمالات تطور مثل هذا الانقسام الخطير بالنسبة للسودان أن تجاهله قد يؤدي الى نتائج وخيمة. وفي هذا الخصوص، يرجع مدثر عبدالرحيم جزءاً كبيراً من سوء الفهم، الذي يقف خلف تحليل مشكلة الجنوب، الى النظرة الخاطئة لمسألة العروبة والافريقية، حيث يقول:-

إن كلا النظريتين، حسب الفهم العام، تشيران الى مجموعات عرقية معينة، ولذلك أعتبرنا نظرات ضيقة، تُفرق ولا تُوحد. والواقع، على كل حال، أن

العروبة تمثل رابطة لغوية وثقافية تجمع في اطارها مجموعات عرقية متعددة، تشمل السود والبيض والسمر على السواء - واذا كانت تعنى شيئاً آخر غير هذا، لكان معظم العرب الحديثين، الافارقة أو الاسيويين، بما في ذلك كل سكان شمال السودان، غير عرب على الاطلاق. وكما أن العروبة رابطة ثقافية، غير عرقية، فإن الافريقية، هي الاخرى، ليست أكثر من رابطة جغرافية وسياسية وثقافية، غير عرقية، تجمع في اطارها مختلف شعوب القارة الافريقية، يختلف أعراقهم وألوانهم ولغاتهم. ومن ثم، فإن الترابط الوثيق بين العروبة والافريقية لا ينحصر في حدود القارة الافريقية فقط، بل يمتد الى المستويات الاقليمية والدولية، أيضاً.

لقد اصبحت العروبة والافريقية مندمجتين، بشكل كبير، في شمال السودان، لدرجة إنه لم يعد من الممكن التمييز بينهما، حتى من الناحية النظرية المجردة، وان الغالبية العظمى من السكان تشعر، بشكل صحيح، أنهم عرب وأفارقة في نفس الوقت، وبدرجة متساوية، دون أي احساس بالتردد أو التناقض... وحقيقة أنهم، بشكل غالب، مسلمون وعرب، تميز، في الواقع، الشماليين من مواطنيهم الجنوبيين، ولكنها لا تعنى أنهم غير أفارقة. وبما أن السودان يمثل القطر الوحيد في القارة الافريقية، وربما في العالم، الذي لا يجسد القارة، بتنوعها وتعددتها العرقي والثقافي، فحسب، بل أنه قد قام بدمج هذا التنوع في تركيب فريد، لانظير له، فانه من الممكن ان يوصف شمال السودان بأنه الأكثر تمثيلاً للقارة الافريقية ككل، بالمقارنة مع أي قطر أو اقليم آخر، بما في ذلك جنوب السودان نفسه<sup>(٣)</sup>.

ان مقالة مدثر عبدالرحيم لرائعة واستنتاجها صحيحة، بدرجة كبيرة، ولكنها، مع كل ذلك، لم تلامس القضية الاساسية، فيما يتعلق بما يربط الشمال والجنوب معاً في هوية وطنية متكاملة... وهنا أجد نفسي مختلفاً مع تجاهله الكامل لعنصر العرق، حقيقياً كان أم متوهماً، وأعتقد أن المسألة الرئيسية بالنسبة للسودان ليست في أن الشمال عرقي وأفريقي معاً، أو عرقي أو أفريقي بشكل كامل. وذلك لأن المسألة الرئيسية هي: - اذا أخذنا في الاعتبار أن الجنوب ليس عربياً، فهل نعتمد العروبة كأساس للتكامل والهوية الوطنية؟ أم أن علينا اكتشاف مداخل توحيدية تصلح أساساً لهوية موحدة؟

أننى اتفق، بشكل كامل، مع استنتاج د. مدثر بأن الاعتراف بالاختلافات بين الشمال والجنوب يجب ألا يكون أساساً لانفصال الجنوب. صحيح «ان الشمال يختلف عن الجنوب في أنه، في معظمه، عرقي مسلم، بينما الجنوب



وثنى، فى غالبه، بجانب أقليات مسيحية ومسلمة. ورغم أن ذلك يمكن اعتباره أساساً كافياً للمطالبة بوضع خاص للجنوب فى إطار السودان موحد، إلا أنه لا يشكل حجة مقنعة للمطالبة بتقسيم السودان الي دولتين مستقلتين. وذلك لأن الدولة الحديثة، خاصة فى افريقيا، لا تؤسس، ولا ينبغى أن تؤسس، على التجانس الدينى أو العرقى أو حتي التجانس الثقافى، وإنما تؤسس على المصالح والاهداف المشتركة بين الناس، الذين قد يكونون مختلفين فى بعض الجوانب، ولكنهم، فى الوقت الراهن، قد التقوا فى مكان واحد، جاؤه من مناطق مختلفة عبر الحدود الدولية، وليس فقط الحدود القبلية والاقليمية»<sup>(٤)</sup>.

— إن الاعتراف بإزدواجية تكوين السودان، والتركيز على عروبة الشمال، على أى حال، لا تشكل أساساً مساعدة لبناء وحدة وطنية راسخة. فالدول الأفريقية والآسيوية، العربية وغير العربية، ودول أخرى عديدة، تتعاون وتتوحد تحت ظل مداخل وأسس تحافظ على مصالحها وتعمل على تطويرها. وفى ظل هذه المداخل والأسس، سيسارع الجنوب، بقناعة وإندفاع، للاصطفاف مع العرب لتأييد ودعم وحدة السودان مع أقطار أخرى بهدف تقوية وتعزيز الانتماءات الأوسع، التى تتطلبها الظروف الراهنة فى افريقيا والعالم على سواء. ولأجل أن يصبح ذلك أمراً ممكناً، على السودان أن يطور مداخل وأسس وحدته الوطنية. وهناك الكثير المشترك بين الشمال والجنوب، ينتظر، فقط، من يكتشفه. بل أن المسألة أكثر من مجرد مداخل وأسس، وذلك لأن السياسات الوطنية للتنمية، مثل السياسات المتعلقة بمحتوي السياسة التعليمية، يحددها المفهوم المتفق عليه للشخصية الوطنية. فقد رأينا كيف أن السياسات الحكومية، الكولونيالية، حول الهوية الوطنية للشمال والجنوب، قد حددت بشكل واضح، خطط هذه الحكومات وأدت الى الوضع الراهن بسماته المحددة. ولإعادة تحديد الهوية الوطنية السودانية، بطريقة تساعد على تكامله ووحدته الوطنية وتعكس، فى الوقت نفسه، حقائق الواقع السودانى، فمن الضروري النظر الى القطر، بكل بساطه كـ "سودان" وليس وفق شروط ثقافية أو دينية أو عرقية، وتطوير نظام حكم يقوم على أساس الحكم الذاتى ويعمل، فى الوقت نفسه، على تنمية الرموز الايجابية للوحدة الوطنية والارتباط مع القطر بشكل أوسع. فتاريخ السودان، خاصة تاريخ عمليات تعريب الشمال، يكشف لنا أنه، فى ظل نظام يتمتع فيه الناس بذاتيتهم المحلية، ولكنهم يواصلون تفاعلهم مع الآخرين، ... فى ظل مثل هذه الظروف يمكن لعملية التكامل الوطنى أن تجرى وتتطور من خلال سير الاحداث اليومية العادية، وتؤدى، فى النهاية، الى تحويل المجتمع. وهكذا، فاذا توفرت حرية الاتصال والارتباط بين الشمال والجنوب، ونظام تعليمى واعلامى يقوم، من خلال أجهزة الاعلام الجماهيرى، على

مجموع التنوع الثقافي للسودان، بشكل حقيقي وواقعي، فإن الناتج النهائي سيتمثل، دون أدنى شك، في ثقافة وهوية سودانية متكاملة وحقيقية. <sup>٢٠</sup>

إن الدينكا نقوك، الذين يعيشون في الجنوب الغربي، بجوار قبيلة البقارة الحمر، يقدمون للشمال والجنوب نموذجاً في العلاقات المتألفة والمنسجمة وخطوط التكامل الممكنة. فمع أن بعض القبائل العربية من الشمال البعيد كانت تقوم بغزو قبيلة الدينكا انقوك، من وقت لآخر، إلا أن ذلك لم يمنعها من الاستمرار في علاقاتها الطيبة، نسبياً، مع البقارة. والعلاقات الدبلوماسية بين زعامات القبيلتين، ساعدت على تأكيد التعايش السلمي وتوقف البقارة عن القيام بغزو منطقة الانقوك. وكان زعيمهم يقوم بإعادة تسليم أي دينكاوي اختطفه رجال القبيلة بغرض الاسترقاق، ونتيجة لذلك، شهدت المنطقة تأثيرات ثقافية متبادلة واسعة. أفرزها تفاعل البشر إلى درجة تشير فيها السجلات الرسمية إلى عدد من الزعماء الدينكا المستعربين، وفي فترة الزعيم كول أروب، مرة أخرى في عام ١٩٥١، في فترة الزعيم دينق ماجوك، إختار الانقوك البقاء في الشمال بدلاً من الارتباط بالجنوب، رغم أن الإدارة البريطانية كانت تفضل الخيار الأخير. ولكن، عندما أصبحوا في مجلس محلي واحد مع البقارة بدأ الصراع حول السلطة يؤثر سلباً على علاقات الطرفين، التي ظلت مستمرة بين زعماء القبيلتين، وأدى ذلك إلى توترات، عمّقها تجدد أعمال العنف المسلح في الجنوب. وفي عام ١٩٦٥، انفجر صراع بين القبيلتين، راح ضحيته عدة مئات من المواطنين، ووضع علاقاتهما في أطار حالة الصراع بين الشمال والجنوب. وفي إشارة إلى تطور أزمة العلاقات بين الانقوك والحمر، كتب أحد الأنثربولوجيين، الذين قاموا بأبحاث هامة وسط البقارة، - «إن الاضطرابات بدأت منذ خريف عام ١٩٦٤، ويقال أنها ترتبط بنشاطات ثوار جنوب السودان، وهي اضطرابات تراجيدية لأن مجلس ريفي المسيرية كان يمثل مسرحاً لتعاون مثمر وودي بين شمال وجنوب القطر»<sup>(٥)</sup> ومن الواضح أن مشكلة علاقات الشمال والجنوب وصراع الانقوك والحمر يلتقيان في العديد من الجوانب المشتركة. فالمشكلتان تغطيان مراحل، كان المتغير الحاسم فيها يتمثل في محاولة قوي معينة توسيع سيطرتها على حساب قوى أخرى ورد فعل الأخيرة لايقافها عند حدها. وفي نفس الوقت فإن المشكلتين لا تشيران فقط إلى أهمية الاسس الممكنة لحل المشكلة، بل تطرحان، أيضاً، قضية كيفية إعادة صياغة الهوية والانتماء في ظروف ملائمة. إن تاريخ علاقات الشمال والجنوب قد شهد، هو الآخر، مراحل من التعاون والانسجام، وكان لها تأثيرها في توسيع تأثيرات التفاعل الثقافي المتبادل وتقوية وتعزيز الشعور بالوحدة الوطنية. فبعد إستعادة الامن والسلام وحرية الحركة والاتصال، في بداية

الحكم البريطاني، مباشرة، بدأت مرحلة أصبح فيها الجنوب يتقبل فيها التأثيرات الشمالية. وكان مؤتمر جوبا في عام ٤٧، وإعلان الاستقلال بداية عام ١٩٥٦، مناسبات عبر فيها الجنوب عن تأييده ودعمه للارتباط مع الشمال. وفي كل هذه المناسبات كانت العوامل الحاسمة تتمثل في غياب الخوف من هيمنة الآخر، أو الأمل في حل لمشكلات الصراع حول السلطة. وفي السنوات الأخيرة، يبدو أن تاريخ التعاون والانسجام، بين الشمال والجنوب، يكرر نفسه بصور قانون الحكم الذاتي، الذي منح الجنوب سلطات واسعة في إدارة شئونه، وفتح قنوات عملية التفاعل الثقافي المتبادل، وعزز الرموز الإيجابية للتكامل والوحدة الوطنية. ونتيجة لذلك، يعكس الجنوب اليوم عزة وطنية وروحاً وحدوية في السودان، بدرجة لم يشهد الاقليم مثلاً قط.

لإعطاء الاعتراف بالاختلافات الثقافية، المتضمنة في منح الجنوب الحكم الذاتي، معناه الحقيقي، بالإضافة إلى الاستفادة القصوى، وطنياً، من هذا الاعتراف، فإن تجاهل ثقافات الجنوب، الذي ميز العلاقات الشمالية-الجنوبية في الفترة السابقة، يتطلب معالجة خاصة لتصحيحه وتطوير الاهتمام بهذه الثقافات. وذلك لأنه ليس المهم، فقط، الاعتراف بثقافات والعمل على تطويرها، بل من المهم، أيضاً، أن يتعرف الشمال على هذه الثقافات، تماماً كما هو مهم أن يتعرف الجنوب على ثقافات الشمال، بطريقة تتناسب مع أهميتها في الحياة الوطنية. وأشار في هذا الخصوص إلى أن أحد كبار القضاة الشماليين قد حدثني مرة بأن «تخلف أخواننا في الجنوب أمر مؤسف، حتى أنه ليس لهم دين» ولكن، منذ سنوات عديدة، كتب الانثروبولوجيان، بروفيسر ومسر سليجمان وأشارا إلى أنهما في تجربتهما قد توصلا إلى أن النوير والدينكا هم الأكثر تديناً في السودان<sup>(١)</sup>.. فإذا كان القاضي المشار إليه يعرف هذه الحقيقة، كان قد عبر عن تقديره واحترامه الكبير للثقافات الجنوبية، بدلاً من أن يأسف لأخوانه الجنوبيين.

إن دراسة كريولية، مثل عربي الجنوب، وأشكال الاتصال اللغوي الأخرى، بين الجنوبيين والشماليين، مثل الشكل السائد بين الانقوك والحرر، يمكن أن تسلط ضوءاً كاشفاً على تعقيدات الإطار الثقافي السوداني، وقد يوفر بعض الأسس لتخطيط التكامل اللغوي. وكذلك الفلكلور والأغاني والحكايات الشعبية وغيرها، يمكن أن تكون أدوات جد مؤثرة لتنمية وتطوير التكامل الثقافي. وقد لاحظ د. مدثر الدور الخاص للفولكلور في السودان، حيث يقول:

«إن الشكل الغالب للتعبير الأدبي، في الفترة التي أعقبت ثورة ١٩٢٤

مباشرة، تمثل في القصائد الوطنية، التي لا يعرف شاعرها، والأغاني، التي تحمل إشارات وتلميحات لمصر، مثل المحبوبة التي أبعدت عن حبيبها، ولكنها تعبر،

في العادة عن مشاعر القوة والرجولة. وهذه القصائد يجب أن تكون الأداة المعبرة عن المشاعر الوطنية في بلد يتكلم اللغة العربية، حيث لعب الشعر تقليدياً، دوراً اجتماعياً، قريباً من دور الصحف في المجتمعات الحديثة، وحيث أن كل شيء تقريباً، من افتتاح بنك تجارى وطنى الى الاحتفال السنوى بالمولد النبوى، قد حظى بفيض من الشعر. لذلك ليس غريباً أن تكون مثل هذه القصائد أداة للتعبير عن المشاعر الوطنية... فالمغنى الأكثر شعبية في تلك الفترة، خليل فرح، الذى لا تزال ذكره راسخة في وجدان السودانيين، لم يتلقى أى شكل من التعليم العالى... هذه الملكة، مع معرفة معقولة بالقراءة والكتابة وحب الشعر العربى القديم، مكنته من التعامل المريح مع "الخريجين" وعامة الجمهور في نفس الوقت. والقصيدة الوطنية، التى نشرها، كانت تجمع بين اللغة الفصيحة والعامية في أسلوبها، "وصُتت"، أساساً، لربط الأولى بالأخيرة. وهو إبداع له أهميته الكبيرة، في مجتمع تغلب فيه الأمية. وبحكم تأهله وتمكنه للعب هذا الدور، أصبح خليل فرح مطرب الأغاني الوطنية بدرجة امتياز. ومعظم القطائد المعادية لبريطانيا والمليئة بتلميحات "الحب" للشقيقة مصر، عُبر عن أغراضها بطريقة مجازية تسمح بتفسيرها بأكثر من طريقة واحدة<sup>(٧)</sup>.

إن قدرة ونفوذ الاغاني في تقوية وتعزيز الهوية وتنمية السياسات الوطنية، يمكن ملاحظتها في الطريقة الايجابية، التي يتفاعل بها السكان المحليون، عامة الناس والزعماء، مع أغنية من الاذاعة بلغتهم المحلية، خاصة اذا كان مضمونها مناسباً للمستمعين. وبعض الاغاني والحكايات الشعبية، التي أشرنا إليها في هذا الكتاب، كشفت، أيضاً، أهمية مؤسسات الفولكلور في شرح وتوضيح، ليس التغييرات فقط، وإنما، أيضاً، مشاعر المشاركين المختلفين تجاه مايجرى في المجتمع في مراحل التحول المختلفة. وفي مقدمتهم لكتاب *The Dinka of the Sudan*، كتب جورج ولويس سبندلر عن أغاني الدينكا، مايجب أن يقوم الشماليون بأكثر منه، كأساس للاحترام والتفهم الثقافي المتبادل. «من هذه الاغاني نستطيع، بشكل أولى على الأقل، أن نحس بالاختلاف الكيفي الحقيقي بين تجارب وأنماط تفكير الغربيين والدينكا... وفي نفس الوقت، نستطيع أن نشعر بالخاصية الانسانية المشتركة للعواطف والدوافع ذات العلاقة»<sup>(٨)</sup>.

وكذلك القصص، فهي ليست أقل قدرة وتأثيراً، أو أقل قابلية للتكيف، من أشكال التعبير الأدبي الأخرى، ورغم أن مضامين الحكايات والقصص الشعبية الدينكاوية قد تختلف عن الأدب العربى، لكن ذلك قد لا يشكل عائقاً للفهم والادراك. وبما أنى قد قمت بترجمة وتحرير حكايات شعبية، فقد كنت قادراً

على رؤية درجة قدرتها على شرح وتوضيح جوانب من التجربة الانسانية في عموميتها الاساسية، رغم الاختلافات البارزة. ولكي نقدم الشمالى للادب الجنوبى علينا أن نفتح عيونه وضميره على مثل هذه العمومية الجوهرية، وأن نتبنى الفهم والادراك المتبادل بعيداً عن قوانين وتقاليد الزواج. هذه الاستراتيجية المقترحة للتكامل الوطنى، هي بالضرورة، ذات اهتمام متعدد الوظائف. فالتاجر كان عاملاً هاماً في عملية التعريب، تماماً كما كانت السياسات التى أعطت هويته امتيازات عديدة على حساب الهوية الزنجية الوثنية والمسيحية. والرساليات التبشيرية كانت عاملاً هاماً فى نشر المسيحية في الجنوب، تماماً كما كانت القوانين التى منحتها "مجالات نفوذ" محددة. ولكن القانون، كمنظم ومنسق لتدفق قرارات السيطرة السلطوية الكفوءة، سواء كان ذلك فى شكل موجهات سياسية عامة، أو قرارات يومية، تؤثر فى تخصيص القيم المادية والاخلاقية والروحية، أو فرض أعباء على الناس، يبدو أنه سيكون فى قلب التغيير المرشد.

— إن تاريخ السودان يكشف لنا أنه، حيثما أستبعدت أسباب الصراع على السلطة ومهددت الاستيعاب الطائش غير الرشيد، من خلال ضمان توسيع اللامركزية وحرية التفاعل الاجتماعى، فإن رموز الهوية والوحدة الوطنية يمكن أن تُقبل أو تُرفض على أساس ميزاتها وقدرة توجهاتها الجديدة على الاقتناع. والقضية بالنسبة للسودان، كما يبدو، ستكون فى البحث عن، وتشكيل، الرموز، التى توحد أكثر من أن تشتت وتقسم، دون تهديد المشاركين، الذين يشكل دعمهم وتأييدهم شرطاً جوهرياً للاستقرار السياسى والاقتصادى. وبهذه الرموز، التى تقود التنمية، والحكم الذاتى، الذى يؤكد ويضمن أمن وسلامة أولئك الذين يشكل دعمهم شرطاً جوهرياً، وحرية التفاعل بين مختلف أجزاء القطر، والعمل المحسوب فى كل المستويات لتعظيم الناتج النهائى، بكل ذلك، يمكننا أن نقول أن هناك أسباباً قوية للاعتقاد بأنه من الممكن أن ينمو وعي صادق بسودان أوسع، كأساس لوحدة وهوية وطنية مشتركة. وفى هذا الطريق اتخذت خطوات ايجابية عديدة، وستتخذ خطوات أكثر، ومع ذلك هناك الكثير الكثير الذى يجب أن يعمل.

## الهوامش

- (١) تقرير لجنة التحقيق في أحداث ١٩٥٥، مصدر سابق، ص ٨١.
- (٢) هذه الطبقة هي التي قادت الحرب ضد الشمال، لمعرفة المزيد عن أغانيهم العسكرية انظر Deng, The Dinka Songs, op.cit., p. 139.
- (٣) Arabism, Africanism and Self-identification, op. cit. pp.237-238.
- (٤) Ibid, p. 238.
- (٥) I.G. Cunnison, The Baggara Arabs, (London Oxford Uni. Press, 1966)vii
- (٦) I. G. Seligman and B. F. Seligman, Pagan Tribes of Nilotic Sudan, (London, Routledge Kegan Paul, 1932), p. 178.
- (٧) M. Abdel-Rahim, Imperialism and Nationalism, pp.110-111
- (٨) Deng, The Dinka of the Sudan, viii